جعفر الخليلي

هكذا عرفتهم

خواطر عن أناس أفذاذ عاشوا بعض
الأحيان لغيرهم أكثر مما عاشوا لأنفسهم

الجزء السابع

هكذا عرفتهم

جعفر الخليلي

بسم الله الرحمن الرحيم

ردمك الجزء السابع : ٥ ـ ٠١٤ ـ ٥٠٣ ـ ٩٦٤
ISBN : 964 - 503 - 014 - 5
ردمك الدوره : ٣ ـ ٠١٥ ـ ٥٠٣ ـ ٩٦٤
ISBN : 964 - 503 - 015 - 3

الكتاب : هكذا عرفتهم / ج ٧
المؤلف : جعفر الخليلي
الناشر : انتشارات المكتبة الحيدرية
عدد الصفحات والقطع : ٢٢٨ صفحة وزيري
عدد المطبوع : ١٠٠٠ جلد من الجزء السابع
الطبعة : الأُولى
سنة الطبع : ١٣٨٤ ـ ١٤٢٦ هـ
المطبعة : شريعت
سعر الدورة الواحدة (١ / ٧) : ٣٠٠٠٠ تومان

مكتبة الجوادين العامة
مؤسسة السيد هبة الدين الحسيني
الشهرستاني
تأسست سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م
صحن الكاظمية - العراق

هكذا عرفتهم

خواطر عن أناس أفذاذ عاشوا بعض
الأحيان لغيرهم أكثر مما عاشوا لأنفسهم

تأليف
جعفر الخليلي

هديـــة
مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث
إلى مكتبة الجوادين العامة

كلمة لا بد منها

بقلم
جعفر الخليلي

كانت قد صدرت لي أربعة أجزاء من (هكذا عرفتهم) ثم حكمت الظروف المادية وللظروف أحكامها كما يقولون ـ أن تتأخر الأجزاء الأخرى وقتاً ربما طال، فراح يسألني غير واحد ممن كان يتتبع هذه السلسلة عن أسباب هذا التأخير فأجيب بالجواب المألوف عندنا قائلاً: ستخرج إن شاء الله ـ وبدا لي أن الله لم يشأ بعد حتى ظن البعض أنني قد اصفيت كما تصفي الدجاجة فلم تبض ولم تفرخ، حتى جرني ذات يوم وأنا ـ بسوق الغرب ـ الصديق الأديب ابراهيم حرب وسيطاً في شأن له عند السري الجليل والمحسن الكبير معالي الحاج (عبد الهادي الجلبي)، ولست أدري كيف جرى الحديث عن أسباب وقوف هذه السلسلة عند الجزء الرابع، وكل ما أدريه هو أني لم أكن أنا الذي فتحت هذا الباب، وسأل معاليه: ألم يمت من هؤلاء الأفذاذ الذين عاشوا ـ على حد قولك ـ بعض الوقت لغيرهم أكثر مما عاشوا لأنفسهم؟ وحاولت أن أغير الحديث لأني خشيت أن يجرني الحديث إلى الظروف المالية التي إليها وحدها يعود السبب في الوقوف بهذا الكتاب عند هذا الحد، فيتصدى هو إلى حل هذه المشكلة بما أعرفه عنه، وأن الذي أعرفه عنه شيء كثير طالما بر به طالباً معوزاً يريد أن يتم دراسته العليا، أو مريضاً يقتضيه داؤه العضال السفر إلى الخارج للمعالجة فتحوله قلة ما يملك دون ذلك، وغير هذا مما يعرفه غير الكثير من الناس، فصرت أتهرب منه، ولا سيما بعد أن انكشف له أن الذين ماتوا من هؤلاء غير قليلين، وأني لم أتناس البعض منهم، ولم ألمح إلى الأسباب، وكان يعود إلى الحديث عن هذه السلسلة، ولم يفد تهربي منه، وأخيراً قال لي وبهذا النص: «انتظر أن تبعث لي بما

هو لديك من المسودات فإني أرغب أن أقوم بطبعها ، وأحسست هنا بالخجل يغمرني حتى شحمة الأذن ، ولم أرد عليه بشيء ولا بكلمة الشكر التي يفرضها الأدب ، ورحت مرة أخرى أحاول تغيير الحديث.

وحين تفضل مشكوراً وأنجز للصديق ابراهيم حرب مهمته وقمنا إلى الباب لنخرج وقف عند الباب وقال (لا تنس أن تبعث بما لديك من المسودات لأقوم لك بطبعها) وخرجت وأنا حائر ، فيما كأنني قد جئت وسيطاً لمهمة تتعلق بصديقي الشاعر ابراهيم حرب ، وإنما جئت لكي أحمل هذا المحسن الكبير على طبع ما لم أستطع طبعه بانفاقي كما طبعت الأجزاء الأربعة من قبل.

وبِحَثٍّ من صديقي المحامي المحقق (عبود الشالجي) بعثت بمسودات الجزء الخامس إلى (الشالجي) ليقوم هو بتسليمها إلى معالي (الجلبي) حين يتحسس هو منه أيضاً بهذه الرغبة في طبع الكتاب ، وكان أن طبع الجزء الخامس ثم طبع الجزء السادس ، وتسلمت الجزءين ولم يزالا مكدسين في أحد المخازن في بيروت بسبب هذه المحنة التي حلت بلبنان وحيلولة وجودي بعمان عن اتخاذ التدابير لتوزيع الكتابين المذكورين.

مقدمة

من قلم
روكس بن زائد العزيزي

هكذا عرفتهم لصديقنا المرحوم العلامة الأديب جعفر الخليلي، فن مبتكر من الأدب الحي، يأسر القارىء بأسلوبه الجديد الجامع بين:

أ ـ السيرة الشخصية
ب ـ وتاريخ الأدب،
جـ ـ والنقد النزيه
د ـ والقصة،
هـ والتاريخ،
و ـ وعلم الاجتماع،
ز ـ والأدب الحي،
ح ـ وفن التصوير بالكلمة الرشيقة.

***

أجل إنه يجمع كل هذا بأسلوب سهل ممتنع يشبه أسلوب (عبد الله بن المقفع) أما كتابه هذا الذي نقدمه للقراء الكرام فعنوانه: (هكذا عرفتهم) وقد دعاه موسوعة، خلد فيه أناساً بعضهم لم نسمع بهم، مع هذا ـ وأقول ذلك للحقيقة وللتاريخ ـ فإنه يرغم القارىء على متابعة ما يكتب، وهو يصف خبايا نفوسهم وصف الخبير بكل ما في حيواتهم الخاصة، حتى أولئك الذين لم يلقهم إلا في رسائلهم وآثارهم، فقلق الخليلي بأصدقائه عجيب حقاً،

لأنه مطبوع على الوفاء، لإيمانه بأن الوفاء من أسمى الفضائل إن لم يكن أسماها، قال:

كـــل شيء ينسى (أبـــا عـــادل) ... في الوجـــود إلا الوفـــاء!
ولقـــد صـــاغــك الإلـــه مثـــالاً ... في وفـــاءٍ وبـــاركتـــك السمـــاء
قـــد تفقـــدتنـــي بيـــوم عصيـــب ... عـــز فيـــه الصـــديـــق والأقـــربـــاء
فتقبـــل منـــي ثنـــاء محـــب ... لا يجـــاريـــه في الوجـــود ثنـــاء

***

فهذا الجزء من الكتاب مقصور على ستة بهذا الترتيب

١ ـ ميخائيل نعيمة
٢ ـ وديع رشيد الخوري
٣ ـ السيد محمد جمال الهاشمي
٤ ـ جورج صيدح
٥ ـ الدكتور أمين زهر
٦ ـ وعجاج نويهض

***

لم يكتب على أحد ممن تناولهم في أجزاء هذه السلسلة وهو حي إلا على:

أ ـ المطربة الكبيرة (عفيفة اسكندر) لأنه أشيع أنها ماتت في سقوط طيارة،

ب ـ وميخائيل نعيمة يوم أشيع أنه لقي ربه سنة ١٩٧٥[١].

وكان غرضه من هذا الاحتياط أن لا يضطر للمجاملة، فلما تبين له أن الإشاعة الخاصة بـ (عفيفة اسكندر) وبـ (ميخائيل نعيمة) غير صحيحة، لم يرد أن يئد ما كتب عليهما، وجعل مقالة (نعيمة) أول مقالة في الكتاب.

وقد افتتح هذا الجزءبكلمة قال فيها: «إنه توقف عن متابعة هذه السلسلة عند الجزء الرابع بسبب ظروف مالية، فلما عرف المرحوم (الحاج عبد الهادي الجلبي) بذلك تبرع بطبع الأجزاء المعدة للطبع: أ ـ الخامس، ب ـ السادس، جـ ـ وهذا الجزء السابع، فطبع

(١) كنت في بغداد يوم نقلت وسائل الإعلام ـ خطأ ـ نبأ وفاة المرحوم نعيمة، فقلت للمؤلف: أن النبأ غير صحيح لكنه قال لي: «ان العلامة الأستاذ كوركيس عواد» وكد له النبأ، فلما تبين له صدق ما رويت له، لم يرد أن يبدل شيئاً في ما كتب (العزيزي).

فعلاً الجزء الخامس والجزء السادس، وقدمهما هدية منه للمؤلف، وطلب منه الجزء السابع ليطبعه بانفاقه، ويقدمه هدية له أيضاً. لكن الأستاذ الكبير أرسل به إلى الرياض إلى الرياض وأجيز نشره، غير أن ظروفاً قاهرة حالت دون ذلك، فسعيت إلى استرداده، وعندما وصلت مسوداته اليَّ، أعدت النظر فيها مراجعة وتحقيقاً. فلما عرضته على معالي استاذنا العلامة الرصين وزير الثقافة الدكتور الاستاذ محمود السمرة امر مشكوراً بنشره بانفاق الوزارة الجليلة عليه لما لمؤلفه من خدمات للصحافة، وللعلم، والادب، اولثقافة، والعروبة، والاسلام اذ من مؤلفاته موسوعة العتبات المقدسة ١٣ جزءً والهاتف ٢٥ مجلداً وموسوعة هكذا عرفتهم ٧ مجلدات غير كتبه العديدة.

***

إن هذا الكتاب بأجزائه السبعة هو صورة مشرقة من صور الوفاء، الذي خص الله به هذا الإنسان الطيب الخليلي الفاضل. صاحب القلم المصور، لأنه يرسم في كل مقال صورة مشرقة لمن أرخ له، يرسم فيها محاسنه ويكشف في خبايا نفس صاحبه ما يكاد يخفيه من نفسه عن نفسه. فكم من أحكام جائرة على بعض من أرخ لهم. كالذي صحح من أحكام ذوي الأغراض على العبقري الخالد (ميخائيل نعيمة) فقد اتهمه كثيرون بالبخل بل بأكثر من ذلك بالشح، فجاء المرحوم الخليلي ينفي عنه تلك الوصمة، ويبرزه محسناً إنساناً، في قصته مع الشاب الإيراني (سعيد علي) الذي أوصاه به صديقه الأديب العراقي (ناجي جواد)، فقد استقبله المرحوم (ميخائيل نعيمة) في (بسكنتا) شتاءً وهو بملابس الصيف، قادماً من بغداد، يقول الخليلي ما حرفه: «فتلقاه (ميخائيل نعيمة) بالترحيب، وألبسه بذلة من بذلاته الشتوية، ومعطفاً من معاطفه الصوفية، وبما كان يلزمه من الثياب ثم تلفن للفندق العائلي الوحيد في (بسكنتا) PENSION وطلب من أصحابه أن ينزلوه عندهم بانفاقه - أي بانفاق المرحوم (ميخائيل نعيمة) وهيأ له عملاً دائماً في مدرسة للرهبان في بيروت ثم عاد (ميخائيل نعيمة) ودعا هذا الشاب إلى (بسكنتا) وعينه معلماً بعمل سنوي، وضمه إلى بيته مطلق الحرية يعمل ما يشاء كأنه أحد أفراد أسرته، وقد ذكرت كذلك في مقال لي كتبته على ميخائيل نعيمة ونشرته مجلة أفكار بعد وفاته مع صورة التقطت لنا يوم زار عمان سنة ١٩٦٥، بدعوة من أمانة عمان، حيث ألقى محاضرة عنوانها (الغربة الكبرى).

***

يقول الأستاذ جعفر الخليلي: «أقول أن البر والمعروف الذي لقيه (سعيد علي) من (ميخائيل نعيمة) لا يمكن أن يكون غير ضرب من ضروب السخاء!» وقد قربه ميخائيل إليه حتى غدا واحداً من أعضاء البيت، يأكل ويشرب عندهم ويلبس منهم، ويسهر معهم، وشهادة المرحوم الخليلي تكذب ما كان يشيع خصوم نعيمة عنه من الشح.

ثم يقول الأستاذ جعفر أنه ندم على تقريظه كتاب المحامي (كعدي فرهود كعدي) المعنون بـ (ميخائيل نعيمة بين قارئيه وعارفيه) إذ يقول: «لم أنس مقام ميخائيل نعيمة في عالم الأدب، وانفراده بهذا النوع من الفن الذي استحق به الترشيح لجائزة نوبل سنتين متواليتين!».

هذا بعض ما قاله على نعيمة رحم الله الاثنين.

***

أما وديع رشيد، ١٨٩٨ ـ ١٩٧٧

فيقول أنه عرفه بوساطة (جورج صيدح) والدكتور (سليمان داود) وتلقى أولى رسائله في الثامن من شهر تموز ١٩٧١، وكانت شهادتهما به أنه:

شاعر بارع، وكاتب مبدع، وصديق وفي، ومن كان في مثل هذه الصفات، يسعى الإنسان إلى صداقته، لأنها غنم، قال أنه ينسب إلى الخوري، وهذه النسبة كثيرة في لبنان، وسورية في حين أن هذه الأسر لا يمت بعضها إلى بعض بصلة، من النسب، ووديع هذا عصامي لم تسمح له الظروف بإتمام دراسته، فسعى إلى صقل ملكاته إلى أن أضحى شاعراً مرموقاً، كما تنبأت له السيدة الشاعرة (وردة اليازجي).

يذكره المؤلف بأنه من المسيحيين الذين أولعوا بالقرآن الكريم، مع التعمق في دراسة التاريخ الإسلامي ونهج البلاغة، يذكر أنه أحاط بجانب من الحديث والتفسير، فكان لذلك بعض الأثر في استقامة شعره ونثره، فلما توفيت زوجته وعزاه بها ورجاه بأن يتغلب على حزنه أجابه بقوله: «سأبذل جهدي يا أخي لضبط النفس في هذا المصاب الأليم، اقتداءً بسيد الحكماء الإمام الحسين فيلسوف الإسلام العظيم (علي بن أبي طالب)[1] مع ذلك فأين نحن وضعفنا الإنساني منهم؟ ومن قوة إيمانهم التي بلغوا بها ذروة الشمائل الإنسانية الطيبة.

وقد كان معجباً (بأبو ماضي) سائراً على نهجه الأدبي، مع عفة في اللسان والقلم صفتان لم يتصف بهما إيليا أبو ماضي، لكنه كما يقول المرحوم الأستاذ (جعفر) قد جرى في ميدان (أبو ماضي) فيما بعد، إلى آخر الشوط، فلما لامه (الخليلي) كان اعتذاره: «إن لإيليا أبي ماضي الحلو والمر، فالحلو لإخوانه، والمر لمعاكسيه، والاستاذ الخليلي، يرحمه

(١) جاء في المساعد للأديب الكرملي ما حرفه: «قولنا علي بن أبي طالب» أصح من قولهم علي بن أبي طالب، ج١».

الله لا يرضى عن اهتمام مؤرخي أدب المهجر بأسر الأدباء فهو يرى أن في ما كتب وديع على جبران وميخائيل نعيمة تحاملاً لا يجوز.

يذكر أن (وديعاً) عندما أيسر فتح بابه للضيوف، بكرم وسماحة نفس عزّ نظيرهما!

***

يذكر له (نداء الغاب) الذي يضم جانباً من شعره وقد أثبت رأي إيليا أبو ماضي في مقدمة هذا الديوان: «نداء الغاب» أن أبرز صفات (وديع رشيد الخوري) الاستغراق في التأمل، إذا عرض له مشهد ساحر، رف عليه بكل روحه، ونسي كل شيء سواه، ويظل ذلك الجمال مستحوذاً على روحه حتى يغيب فيها، ثم ينبع منها في هذه القوافي العذبة الرنين فيفتح الناس أعينهم على كنز من البدائع.

ويقتطف الاستاذ (الخليلي) من أدب (وديع رشيد الخوري) ما استهل به رثاءه لشقيقته (وديعة): «الى شقيقتي (وديعة) التي غمرت طفولتي بالحب والجمال، وأفعمت صباي بالأنغام والرؤى. ورافقت شبابي بالعزيمة والاختبار، إلى الحياة التي ما انفلتت من دائرة الجسد الضيقة، واحتجبت عن عيني حتى تسربت كالحلم إلى أعماقي؛ وأصبحت كالظل ملازمة نفسي عندما كنا قادمين من الأزلية، وذلك قبل أن لبست نفسانا المادة منذ عهد بعيد جداً كنا نسير في عالم من أثير، وملء نفسينا اكتفاء وجمال ومحبة وأول ألم أحسسنا به، كان عندما القت بنا الأقدار في هذا العالم، حيث تبتدىء تعاسة الإنسان في الرحم، وتنتهي في القبر، وهكذا يا أختاه ابتدأت طفولتنا بين الخمائل، وكانت طفولتنا منعمة بالغبطة وبالحب الساذج، وذلك لأنها كانت قريبة العهد من ذلك العالم الروحي إلى ما يدعونه خلوداً».

***

وقد تطرق إلى تأسيس الرابطة القلمية والى أعضائها والى خروج إيليا أبو ماضي منها وكيله الشتائم البذيئة المقذعة لمخالفيه في الرأي، وأبرزهم (جبران) و(ميخائيل نعيمة) وذكر أن (وديع رشيد الخوري) انضوى تحت راية (إيليا) لكن لسانه كان عفيفاً ـ في الغالب ـ وإن كانت اقواله خالية من المنطق والدليل المقبول؛

يقول أن آراء وديع الخوري في أدب المهجر تتجلى في كتابه (ظهور وتطور الأدب العربي في المهجر الأميركي) وهو غير راضٍ عن تهجمه على (جبران خليل جبران) و(ميخائيل نعيمة) ولا عن أحكامه على أدبهما وهنا ينبهه على بذاءة (إيليا ابو ماضي) يوم ثبتت عليه سرقة قصيدة (الطين) من الشاعر البدوي (علي الرميثي).

***

والخليلي رحمه الله مطبوع على مناصرة الحق، وهذا ما دعاه إلى تنبيه (وديع) إلى شتائم أبو ماضي السوقية التي يكيلها لمخالفيه في الرأي، أو لناقدي شعره.

وعلى الرغم من التباين بينهما في الرأي فإنه يقول:

«ويعرف مكاتبو (وديع) والمتعلمون به عن كثب مزية انفراده بين أدباء المهجر بترحيبه بالضيوف فهو الذي يستدعيهم وهو الذي يستقبلهم، وهو الذي يعنى بهم عند نزولهم في بيته.

ويقول (وديع) وقد تعرفت بـ (إيليا أبي ماضي) عندما زارنا في (بنغمتن) وأقام عندنا نحواً من عشرة أيام. ويقول: «ويبدو أن أيام وديع الطويلة قد مرت بهناءة، وراحة بال سواء من حيث عمله أو من حيث أهل بيته، وزوجته على الأخص، حتى صحته كانت من أحسن ما يكون، غير أن الأكدار قد تجمعت في سنيه الأخيرة»

ثم يقول: «لم تنقطع رسائل وديع عني، ولم تنقطع رسائلي عنه، لذلك دهشت حين قرأت نعيه في إحدى الصحف فجأة، وراحت دموعي تتفاطر على الصحيفة وأنا أردد بيت (نعمة الحاج):

أسائل أين رفاق الطريق؟ تولوا ولم ترحم مقلتي!

***

وهذا رأيه في السيد (محمد جمال الهاشمي) ١٩١٦ ـ ١٩٧٧

من السادة، ايراني الأصل، حل في (النجف الأشرف) فقيراً جداً، وقد أعانته على مصاعب الحياة التي لا تحتمل قناعة عجيبة وإيمان أعجب، على نقيض غيره من طلاب العلم في النجف من ايران، الذين كان بعضهم يعيش عيشة مترفة، وقد سكن في أول أمره في خان كان الزوار الذين يأتون من (ايران) يحلون به هم وحميرهم، إلى أن رضي أحد الطلاب أن يشاركه في غرفة له، ثم مل الطالب من كثرة قيام الهاشمي للصلاة ليلاً، فخيره بين ترك التعبد ليلاً وبين هجر الغرفة فهجر الغرفة بعد أن تمكن شيخ من الشيوخ أن يقنع خادم المدرسة أن يسكن في غرفة خزين، لأشياء مختلفة ليس فيها منفذ نور عدا بابها.

وقد عرف محمد جمال بالجد والاجتهاد وقدسية السلوك والتواضع وقد وفقه الله بأن تزوج بسيدة صالحة مؤمنة كانت تعول زوجها وأولادها مما تحصل عليه من الغزل، وخياطة الثياب، وكان همه أن يصل إلى أغوار النصوص وفلسفتها، يلذ له أن يحرم نفسه من ملذات الحياة في سبيل الوصول إلى الحقيقة.

***

أما أم السيد محمد جمال فقد علمت بعض بيوتات النجف الأشرف أن تصنع نوعاً من الحلاوة، وقد بلغ السيد محمد جمال منزلة عالية من الاجتهاد، فاشترى له بعض مقلديه، بيتاً أهدوه إليه، فاختار لنفسه من هذا البيت أحط غرفة واضيقها لئلا تغيب عن باله أيام الضنك والضيق، وقد أخذ الناس يأتون إليه طالبين بركته، فكان يكل ذلك إلى زوجته، لأنها كانت تعرف بماذا تكرم الناس، ولما بلغ الحرجية رفض ـ تواضعاً منه ـ أن يصحبه في مسيره أحد من الأعوان، ولما كبر السيد محمد جمال اعتمر العمامة السوداء[1] وأكبَّ على الدروس الدينية، وأقبل على اللغة العربية وعلومها واكتشف مواهبه الشعرية وأخذ ينظم الشعر، وقد شجعه صاحب الهاتف كثيراً، وقوم أشعاره إلى أن بلغ شأواً بعيداً، وانتسب إلى جمعية (الرابطة الأدبية) وأخذ يشارك في نشاطاتها، إلى أن تفوق في نظم الشعر، وقد كان محمد جمال الهاشمي طيب النفس كثير المزاح.

***

وهنا يذكر المؤلف أن مكتبة السيد محمد جمال الهاشمي كانت عامرة بنفائس الكتب وقد قال عليه المؤلف: «وللسيد محمد جمال الهاشمي مزية كبيرة وهي أنه قلما صدر كتاب من كتب العلوم الانسانية الحديثة إلا اقتناه ووعاه»، فأثر فيه ذلك إذ كان يدعو إلى التجديد والإصلاح.

يذكر أن السيد محمد جمال الهاشمي قبل أن يلمع نجمه، كان المؤتمون به قلة من نكرات الرجال والنساء لكن بعد وفاة ابيه كثر المؤتمون به، لكنه شعر بفراغ لما تحول الأستاذ الخليلي بالهاتف إلى (بغداد) فكتب إليه رسائل تفيض بالحنين وفيها أشعار رقيقة، وكان شديد التتبع لكل ما يكتب الأستاذ الخليلي، والحقيقة أن الذي يقرأ رسائله وأشعاره الموجهة إلى الأستاذ الخليلي يلمس مقدار المحبة والإخلاص لصديقه هذا، وفي هذه الترجمة للسيد محمد جمال الهاشمي يسخر الخليلي من خرافة (الأعور الدجال) ومن مؤلف كتابه الذي يؤيد أقواله فيه بمائة وعشرين حديثاً وسنداً وعشرات المؤيدين من رجال الدين ويذكر سخرية (الشيخ محمد الشريعة) من هذه الخرافة وخذلان المؤلف وهربه خجلاً، وعلى ذكر الخرافات والأساطير فإن المرحوم الخليلي من أعداء تلك الخزعبلات وهو يعتقد أنها تشويه لجمال الدين، وقد كاد يضيع حياته ثمناً لمعارضته التطبير في أيام عاشوراء.

---

(١) العمامة السوداء هي شعار السادة الذين يحق لهم أن يكونوا من رجال العلم أما مَن يعتمرون العمامة الخضراء فهم السادة الذين ليسوا من العلماء ـ العزيزي ـ.

هذه إلمامة بما ذكر عن السيد محمد جمال الهاشمي، وننتقل إلى ما قال على جورج صيدح الشاعر المهجري الكبير كيف عرفه؟ ١٨٩٣ ـ ١٩٧٨

يبدو لي مما كتبه على هذا الشاعر أنه له منزلة خاصة في نفسه، فقد كتب عليه ثمانياً وخمسين صفحة من القطع الكامل الكبير، فقد ذكر أن الذي عرّفه بـ (جورج صيدح) هو المرحوم الدكتور رشاد دارغوث، وقال أن (جورج صيدح) ليس له من النسل سوى فتاة تزوجت برجل لا يريده أبوها، ولم يصحح هذا الزواج المكروه المخفق سوى الطلاق، وقد وفقت بزواجها الثاني، وذكر وهو يكتب على صيدح ويذكر أفضال مكتبة الآباء اللعازريين عليه، وقيمتها في نشر الثقافة والعلم، وذكر أن هذا الشاعر كان يحفظ كثيراً من سور القرآن الحكيم، ومن نصوص نهج البلاغة، وعرج على بعض أصدقائه من مفكري النصارى وأدبائهم الذين أولعوا بالقرآن وبنهج البلاغة.

***

وقد وصف هذا الشاعر بقوله: «كان (صيدح) أنيقاً في شبابه، يعطي نفسه لذائذها من المأكول والملبوس، والعيشة الرفيهة، إذ كانت له يومذاك سيارة خاصة، وكان كريماً إلى حد الإفراط، إلى أن قال: «أصيب بخسارة فادحة، ربما كان سببها كثرة انفاقه على نفسه، وعلى هواياته الجنسية، وعلى غيره من الناس، ولا يمنعه مانع عن أن يجود بكل ما تحت يده، فاضطر سنة ١٩٤٥ للهجرة إلى أوروبا، وكان متعلقاً ببلاد العرب ولا سيما ـ مصر ـ يذكرها في كل مناسبة، يقول أنه كان له مغامرات جنسية في (باريس)، وله في ذلك شعر وهو في الثمانين من عمره وقصيدة (بنت باريس) مشهورة تلك القصيدة التي أعجب بها الشاعر (نزار قباني) وأساءت رأي إخوان (صيدح) ـ الغيُر على سمعته ـ به، ومنهم الدكتور (سليمان داود) الذي خاصمه من أجل قصيدته تلك، لأنه لم يحترم وقار شيخوخته، ولا سمعته الأدبية المدوية، ومن (باريس) انتقل إلى أميركة الجنوبية، فأقام في كاراكاس عاصمة فنزويلا وأصدر فيها مجلة دعاها (الأرزة) ولما تحول إلى (الأرجنتين) أصدر فيها جريدة سماها (الرابطة الأدبية) فأضحى له شأن كبير بين الأدباء والتجار فاتجهت إليه الأبصار، وصار عميداً للجالية السورية والجالية اللبنانية بل للجالية العربية كافة. فلم تكن تحدث مشكلة بين تلك الجوالي، إلا ويكون حلها على يد الشاعر (صيدح) فكم من سجين أنقذه من السجن، وكم من مطالب بغرامة تولى دفعها وينفق على الطلاب بسخاء إلى أن لقي ربه، فخلقت له شهرته في الأدب وفي الإحسان حسدة كثيرين، فاضطر لهجرة (كاراكاس) قائلاً:

«إن رأيت الحق يخشى باطلاً ... وسمعت الحمد للجور المشين
فاهجر الدار، وجانب أهلها ... لا يقيم الحر بين الخانعين!»

وبعد رحيله صار خصومه يدعونه إلى العودة، فلم يعد للإقامة، بل عاد إلى (كاراكاس) يصفي أعماله التجارية فيها.

***

وفي سنة ١٩٥١ أوفد رئيس جمهورية (الأرجنتين) ـ الجنرال بيرون ـ مندوباً فوق العادة من أجل توطيد العلاقات مع (سورية) فأوفد (جورج صيدح) مع مندوب رئيس الجمهورية، فلقي أعظم حفاوة ـ في بلاده ـ بعد أن غاب عنها أربعين سنة ثم غادر (دمشق) لكي يقيم في (بيروت) فدعي إلى (مصر) ليلقي سلسلة من المحاضرات حولها فيما بعد كتاباً دعاه (أدبنا وأدباؤنا في المهجر) أثار عليه ضجة هائلة، وهاجمه من أجله عزيز أباظة مهاجمة سافرة، لكنها لم تستطع أن تنال من قيمة الكتاب، أو من مكانة أدباء المهجر!..

فطبع كتابه مراراً، لكن أخذ على كتابه أنه جمع بين الغث والسمين، فسبّب له كتابه هذا جفوة من بعض أحبابه، لأنه فضل الشاعر القروي على الشاعر (إلياس فرحات). وقد وصفه المؤلف بقوله: «وصيدح مرهف الحس، قليل الحلم في ما يمس شخصيته، سريع الغضب ممن يتهمه بما ليس فيه!».

يشكو (صيدح) من خصومه قائلاً: «القضية مهمة تخرج عن المشكلة الشخصية، إلى معضلة اجتماعية، في المفتريات، حيث التحاسد والمكايد، والنفاق على أشده وهو يفسد المساعي والأعمال والمشاريع الوطنية العمومية، ويقصر عمر اللغة والآداب العربية في تلك المهاجر، وقد كنت أنا فيها متبرعاً بمالي وبعلمي، وبوقتي وصفيت تجارتي وقنعت من حطام الدنيا بما قسمه الله لي، لكني لم أتلق كلمة إطراء وإلا قابلها دسيسة ضدي، كأني قد جئت أمراً مزرياً! حتى بعد صدور كتابي المهجري الذي لم تبع منه نسخة واحدة في المهجر، في حين تقدر المبيعات بعشرين ألف نسخة في العالم العربي، وبعد خروجي من أميركا تلقيت ثلاث صدمات من (سانباولو).

أ ـ الأولى من صاحبة (المراحل).

ب ـ والثانية من الشاعر القروي رشيد الخوري الذي كانوا يلقبونه بـ (ضمير الأمة العربية).

جـ ـ والثالثة من إلياس فرحات!

***

وقد أخذ الشعراء على (صيدح) - يوم كرموه - ذلك البيت الذي قال فيه:

«ردوا جميل ثنائكم عني، خطر علي تدفق الاطياب!

فقال بعضهم «إن (صيدح) قد شبه نفسه بالجمل الذي إذا دفن في العطور مات، لأن الجعل معني دائماً بالروث والأقذار.

وكان في عداد الذين هاجموا (صيدح) (عيسى الناعوري) فهجاه صيدح هجاءً موجعاً جداً فاضطر الناعوري لأن يعتذر من تعرضه له فتوقف عن مواصلة هجائه بوساطة المرحوم الأستاذ جعفر الخليلي - الذي كان (صيدح) يجله ويحترمه ويحبه كثيراً.

وقلمنا يعف عن ذكر شيء مما هجى به المرحوم الناعوري - وممن خاصموا (صيدح) شاعر اسمه (يوسف العيد) فهجاه بقوله:

«قصائد العيد هاتوها ليسمعها بأذنه، كعقاب ماله ثاني
وأن أبى، فابطحوه واخفوه بها حتى يفارق هذا العالم الفاني

***

و(صيدح) كما وصفه (إلياس فرحات) - الذي عاداه - بقوله: «صيدح إنسان وديع، قلب طاهر، وعصب ثائر، وشعر كثير، وصبر قليل».

كان الأدباء يقصدون (صيدح) ليستدينوا منه مبالغ فيهبهم وهو عالم أن ما يعطيهم إياه لن يعود، وقد تعجب أشد العجب يوم أعاد إليه - وهو على فراش الموت - الشاعر (وليم صعب) ألفاً وخمسمئة ليرة لبنانية، بعد تسعة عشر عاماً!

وقد لقي (صيدح) من الناشرين ما لقي أكثر الأدباء من هذه الفئة الكريمة!..

لم يغفل ذكر (فلسطين) في كل ما كتب. كتب إلى صديقه الخليلي بعد النكبة يقول: «اكفر بالله وبالضمير أن جئت أهنئك بالعام الجديد، فأنا لا أتوقع من الأعوام والأيام سوى الأحزان والآلام، وإنما أسأل الله أن يرفق بك وبي وبأمتنا المنكوبة، وكفانا أن يصدق الوداد، إن كذبت الأعياد!

***

من شعره الخاص بـ (فلسطين) قوله:

«واهاً (فلسطين) ماذا يجديك دمع تحدر؟
وإن أذوب حناناً وقلب قومي تحجر؟

واهاً (فلسطين) ما لي أنام، وغيري يسهر؟
حبست في الصدر همي فإن نطقت تفجر
أكلما قلت شعراً كتبت الردى المكرر
على ملبك قلبي كالناصري تسمر!

***

توالت عليه النكبات لولا الله منّ عليه بأن تزوج بفتاة فرنسية فأخلصت له كل الإخلاص.

- إذ كسرت رجله فلازم الفراش أربعة أشهر.
- كان عليه ـ في شيخوخته ـ أن يزور المشفى لمعالجة المجاري البولية كل سنة.
- لم يراع أصحاب الحاجات أوضاعه فكانوا يزورونه طالبين مساعدته وهو مريض فلا يبخل على أحد منهم، وهذا الأمر كان يزعج زوجته الفرنسية كل الإزعاج.

وعلى الرغم من كل ما حل به في أيامه الأخيرة فإن خفة روحه لم تفارقه، إذ كتب إلى صديق له قصيدة جاء فيها:

«يا كاسف البال لا تحزن لأحزاني (باريس) مهما قست، ليست كـ(لبنان)!
هنا الجريمة أيا كان فاعلها يخزى، وفي ربعكم يجزى بنيشان!

كان شديد الإعجاب ببيت شعر للشاعر العراقي المبدع (علي الشرقي):

«بلدي رؤوس كله أرأيت مزرعة البصل؟!»

من مزاياه أنه لم يكن يخجل من السؤال عما يجهل، وكان يستوفي كل ما يتعلق بسؤاله ذاك.

كان يجيد الزجل إجادته للشعر المؤتم، ـ الذي يسمونه العمودي والكلاسيكي ـ

بلغه أن العلامة المعروف الدكتور الأستاذ (صفاء خلوصي) العراقي بايعه بإمارة الشعر فأجابه بقصيدة تنم على تواضع شديد.

مات وهو يشكو من أنه لن يجد بعده من يعنى بمخلفاته القلمية، أهدى مخطوطاته إلى صديقه الحميم الأستاذ العالم صديقنا وزميلنا في مجمع اللغة العربية الأردني ـ وديع فلسطين.

***

الدكتور أمين زهر.

يقدم إلينا هذا الدكتور الذي عرفه في العراق صديقاً للفقراء، أخاً للمرضى المحتاجين وقد اغتالته يد الغدر، بطريقة كلها خيانة ونذالة، إذ جاء الجاني يدعي أنه مريض، فرافقه من بيته إلى العيادة وفيما هو يغسل يديه ليفحصه، انقض عليه بساطور جزار، من خلفه، وبعد أن أجهز عليه مسح الدماء برداء الطبيب الأبيض - الطبي - وانسل كانه ذبح عصفوراً، وتركه غارقاً في دمائه، فلما توافد المرضى على العيادة اكتشفوا الجريمة. وقد مهد المؤلف لترجمة صديقه بذكر بعض الأطباء الإنسانيين والدكتور المرحوم منهم

فافتتح ما كتب على الدكتور أمين زهر بما فعل الطبيب الانكليزي (جولد سميث) الذي وهب كل ما له في البنك من حساب للمريض الفقير الذي دعي إلى زيارته، وذكر اعتقاد الدروز التقمص الذي هو انتقال روح الميت من جسد إلى جسد، فإن كان الميت صالحاً انتقلت روحه إلى مخلوق صالح أو أشد صلاحاً، وإن كان الميت طالحاً انتقلت روحه إلى مخلوق خبيث، ويقول أن التقمص فلسفة قديمة اعتقدها الهنود، وتبناها فلاسفة اليونان كأفلاطون وفيتاغورس (PUTHAGORAS) وقد قال أن الدروز لا يكفنون موتاهم بل يلبسون الميت أفخر ملابسه، ويضعونه في تابوت كما يفعل المسيحيون، ولكل أسرة جبانة خاصة بهم، غرفة يفتحونها ويضعون الميت فيها.

***

يقول أن للميت عند الدروز حرمة عظيمة جداً، إذ يشيعون الجنازة بوفود مرتبة، وموسيقى ويكبرون عليه خمس تكبيرات.

وقد ذكر مزية لهذا الطبيب امتاز بها عمن سواه بأنه لم يكن يقبل مكافأة من الصيدلية التي تصرف منها وصفة الطبيب، وذكر أنه قضى في (النجف الأشرف) أربع عشرة سنة كان فيها مثال الأخلاق من النزاهة والتعفف وخدمة الإنسانية، فكان عطوفاً على الفقراء والمحتاجين.

***

(عجاج نويهض) ١٨٩٨-١٩٨٢ يقول عليه أنه كاتب بارع وصحافي لامع، ووطني صادق مخلص، يذكر زوجته الأديبة الشاعرة والروائية القصاصة، وكريمته الدكتورة (بيان) والصحافية (نورا).

والمرحوم (عجاج) هو الذي ترجم (بروتوكولات حكماء صهيون) الكتاب الذي قيل عليه ما حرفه: «لا يليق بعربي أن يبحث عن القضية العربية قبل أن يقرأ ذاك الكتاب!

(برتوكولات حكماء صهيون). ولما وصفه قال: «وهو مؤمن بالعرب وبالعروبة، يحارب التعصب الطائفي داء الشرق العياء كان شديد الوفاء».

لما ترجم (حاضر العالم العربي) اضطر لأن يتفق مع صاحبة النزل الذي يبيت فيه أن تؤجل دفع أجرة مبيته ثلاثة أشهر، واتفق مع صاحب المطعم أن يؤجل ثمن الوجبات ثلاثة أشهر، وكان يكتفي بوجبة واحدة كل أربع وعشرين ساعة، ولما بلغ الأمر (شكيب أرسلان) أن عجاجاً عازم على ترجمة (حاضر العالم العربي) رغب في أن يعلق على فصوله، فقبل، ولما علم رشيد رضا بذلك، رحب بالفكرة، وطبع الكتاب في أربعة أجزاء فلما جاء دور الوفاء بوعده لصاحبة النزل، ولصاحب المطعم وجد نفسه مرغماً على اللجوء إلى الحاج (أمين الحسيني) ليعمل كتوماً للمؤتمر الإسلامي، في حين أنه أبى ذلك لما عرض عليه الحاج (أمين) هذا المنصب! لكنها الضرورات التي تبيح المحذورات، لكن الحاج (أمين) عرف (لعجاج) قدره فمنحه راتباً محترماً ودفع له راتب ستة أشهر سلفاً فتمكن أن يقوم بالتزاماته، وقد وصف المؤلف ما لقي (عجاج) في سبيل وطنه والمبدأ، والأخلاص لما يعتقد فقد بين أنه تحمل ما لا يمكن أن يتحمله إلا من تشبه بالأولياء صدقاً وإخلاصاً، ذكر زواجه الموفق بكريمة الدكتور يوسف سليم المعروف باخلاصه لتلك المهنة الإنسانية الشريفة وزوجته هي الأديبة الشاعرة القصاصة (أم خلدون) - جمال نهويض -

***

يذكر عرضاً ثورة الأستاذ سامي أسعد سليم على الحجاب، وعلى الطربوش، ويذكر ثورة (سلطان باشا الأطرش) التي مهدت لاستقلال سورية وهنا يتطرق الى المناصب التي شغلها عجاج بأمانة، ويصف من مزاياه دماثة الخلق ولين الجانب ويقول: «هو مع أولاده ترب من أترابهم وند من أندادهم، وطفل من أمثالهم، يشاركهم في العابهم كواحد منهم، أما وفاء عجاج لأصدقائه فنادر جداً أما آثاره فيقول المؤلف أنها تبلغ مائة مجلد، وهو خطيب بليل الريق ومحام ماهر وصحافي نزيه».

***

يقول: «عجاج نويهض» لبناني أصيل ابن الجبل الأشم، كريم متواضع وفيّ مؤمن يكره أنواع التعصب، ويرفض آراء الملحدين الذين لا يعيرون تعاليم الدين الحقيقي الاحترام اللازم وقد أثبتت بعض آراء الذين عرفوا (عجاجاً) عن كثب.

قال عليه: الأستاذ العالم وديع فلسطين ما حرفه: «عجاج أستاذي الأعظم وهو العلامة الفذ فاحترامه واجب إلى آخر الدهر».

وقد قلت عليه في كلمة رثاء وأنا أقصد كل حرف منها: «إذا عد العلماء العاملون كان عجاج منهم في الطليعة، وأن حسب المناضلون المجاهدون الذين أصابهم النفي والتشريد كان هو في المقدمة وإذا ذكر الأخوان الأصفياء كان في الصفوة المنتقاه فكان أول من نبه على غدر الصهيونية في ترجمته لكتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) كان أميناً في كل منصب تولاه وفخراً لكل عمل زاوله.

***

لما شعر بدنو أجله أراد أن يرثي نفسه فتولت زوجته الفضل أم خلدون الرثاء عنه تجد هذه المرثاة مثبتة في آخر ترجمته! فرحم الله الخليلي الذي ابتكر فناً خالداً في الأدب العربي الحديث، ورحم من خلّدهم وفاؤه.

هكذا عرفتهم من الشعر

منذ أن صدر الجزء الأول من كتابي (هكذا عرفتهم) وانا اتلقى الكثير من رسائل الادباء نثراً وشعراً وما اقرأه في الصحف تقريظاً لأدباء لهم وزنهم ومكانتهم في عالم الأدب حتى لقد بالغ البعض منهم وعدّ هذا اللون من العرض اسلوباً جديداً يدخل في أساليب الكتابة العربية لأول مرة، وكنت ولم ازل على رغم اعتزازي بهذا التقريظ أحجم عن نشر هذه الآراء عن هذا الكتاب الا ما يجيء عرضاً او مثلاً وشاهداً في هذه العروض وقد رأيت ان اختم الجزء السابع هذا بنموذج من النماذج الأدبية التي اتلقى امثالها لا بقصد التباهي والمفاخرة وانما كلوحةٍ من الألواح الأدبية الرائعة التعبير والتصوير، والنموذج هذا قصيدة بارعة ومن اروع صنوف الشعر للسيدة الشاعرة المبدعة احدى رائدات الشعر النسوي الرائق السيدة (جمال سليم نويهض) المعروفة بكنيتها (ام خلدون) عقيلة فقيد العلم والأدب والوطنية والاريحية عجاج نويهض وهي تقول حفظها الله ذخرا للأدب والفضيلة:-

قلـــم المحبـــة في يــــديـــك يحـــوك أسلاك الحـــريـــر
ويعطـــــر الدنيـــا ومــــا دنيـــاك الا مـــن عبيـــر
قلـــم يخــــط روائعــــا تجيـــــرة وشي الزهــــور
قلـــم ينقـــب عـــن سجـــايـــا النـــاس في عمـــق الشعـــور
ويحــــرر الارواح مـــــن أعبـــائهـــا قبـــل النشـــور
قلـــم يفســـخ المســـك في أرجـــاء أحيـــاء[1] القبـــور
ويخلـــد الاخـــوان بعـــد الموت في الوطـــن الكبيـــر
قلـــم يـــؤرخ للحيـــاة حيـــاة أبطـــال العبـــور

....

عـــرف الكثيـــر و(هكـــذا) أحيـــاهمـــو قلـــم الخبيـــر
صـــاغ الوفـــا مجـــداً لهـــم فـــوق الخـــورنـــق والسـديـــر
لـــولا الوفـــا نسي الكثيـــر وغـــاب في مجـــرى العصـــور
طـــوبـــى لأصحـــاب الخليلي الخليـــل مـــدى الدهـــور
يـــا سيـــدي مـــاذا اقـــول وكيـــف أفصـــح عـــن شعـــوري
قلمـــي ليعجـــزه العبـــور مـــن القليـــل إلى الكثيـــر
تعبيـــره ضحـــل فمـــا أغنـــى الغنـــى عـــن الفقيـــر
والشكـــر بحـــر واســـع وانـــا الغـــريـــق لـــدى الصخـــور

ام خلدون

---

(١) جمع (حي) بمعنى السكن

كيف عرفت
ميخائيل نعيمة [1]
١٨٨٩ - ١٩٨٨

ميخائيل نعيمة والمؤلف جعفر الخليلي.

ما كادت تضع الحرب العظمى الأولى أوزارها حتى بدأت المطبوعات العربية المصرية الحديثة تدخل اسواق العراق عن طريق (المكتبة العصرية) لصاحبها محمود حلمي كما كانت تدخل المطبوعات الأجنبية وعلى الأخص الانكليزية عن طريق (مكتبة مكنزي) ولاول مرة تعم العراق أسماء أعلام مصر وسورية ولبنان الذين لم يكن القراء يعرفون الا القليل منهم عن طريق المجلات العربية التي كانت تصدر في القاهرة ودمشق قبل قيام الحرب العظمى الأولى، وفي ضمن هذه الكتب كانت تمر أسماء من أدباء المهجر كجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وايليا ابي ماضي وأمين الريحاني من اميركا الشمالية، وكإلياس فرحات، وسليم رشيد الخوري (الشاعر القروي) وامين مشرق من اميركا الجنوبية،

---

(١) في سنة ١٩٧٦ تم دخول الجيش السوري إلى لبنان بناء على طلب الحكومة اللبنانية فلقي هذا الجيش مقاومة أدت إلى توقف الأعمال وانقطاع الطرق وإغلاق المطار والموانىء في وجوه الداخلين والخارجين وفي هذه الأثناء شاع خبر وفاة النابغة ميخائيل نعيمة ونشرت بعض الصحف خبره، وبحثت أنا عن الصحف التي نعته فلم أعثر عليها، ولكن الصديق البحاثة الجليل (كوركيس عواد) قد اخلي الخبر فأحزنني ذلك أيما حزن، وكان لا بد لي أن أسجل بعض ذكرياته عنه جرياً على العادة فكتبت هذه الكلمة ثم كذب الخبر، فكان ميخائيل نعيمة ثاني شخص يقرأ ما كان سيكتب عليه بعد عمره الطويل إن شأ الله ـ لأنني قد سبق أن كتبت فصلاً كانت له أهميته على المطربة العراقية (عفيفة اسكندر) حين انتشر خبر سقوط الطيارة بها بباريس ونشرته الصحف ثم كذب خبر سقوطها أطال الله عمرها.

فكانت آثار هؤلاء العلمية تحمل طابعا من التجديد سواء أكان في الشعر ام النثر، واكثر ما كان يحبب هؤلاء الى بعض القراء هو ان الذي يسمى (بالسهل الممتنع) كان اكثر ما يتجلى في تلك الآثار القلمية، فلا بأس لو راح البعض - ومن ضمن هذا البعض كنت انا - يبحث عن شعرهم ونثرهم، ويتبع هنا وهناك آثارهم، فكان من هؤلاء عدد غير قليل ممن اعجبت بهم ومن بينهم كان ميخائيل نعيمة قرأته شعراً ونثراً في المجلات وفي الكتب ولا سيما في الطبعة الأولى من (بلاغة القرن العشرين) ثم في الطبعة الثانية الموسعة التي ظهرت بعد ذلك بسنين، ثم قرأته في كتاب باسم (ما وراء البحار) وكل ذلك قبل ان اقرأ مؤلفاته، وكنت مؤمنا - كما آمنت بجبران، وابي ماضي وفرحات - وغيرهم - بأنه من العباقرة، ولكل عبقري لون خاص، وطبيعة خاصة، يغلط من يقيسهم بمقياس واحد، وان المسحة الظاهرة على نتائج أعلام المهجر إنما هي مسحة فنية جذابة وهي بعيدة كل البعد أو بعض البعد عن البحث، والتحقيق والفلسفة بالرغم من محاولة بعضهم الظهور بمظهر الفلاسفة كجبران، والريحاني، وميخائيل نعيمة، والفن نفسه ليس بالقليل - ومن هؤلاء الاعلام خاصة - لكي ينتقلوا منه الى الفلسفة.

وكان لدي بعض عنوانات من عرفت وأعجبت بهم فكاتبتهم، أما ميخائيل فلم أحصل على عنوانه، ثم أسفت بعد ذلك حين فاتني أن أصل إلى من أريد عن طريق مجلة (السائح) التي كانت تصدر في نيويورك، وكانت تمثل (جمعية الرابطة القلمية) التي كان ينتسب إليها عدد كبير من اولئك الادباء التي انشق عليها بعد تأسيسها بعضهم كان من ضمنهم ايليا أبو ماضي، وظل عدد من أبرز الأدباء وأعلام هذا الفن الذي كان يمثل (السهل الممتنع) بكامل صفاته اعضاء تحت رئاسة جبران خليل جبران الذي كان يجمع بين فن التصوير في الشعر والنثر والرسم، وكان من المعجبين بالامام علي (ع) وقيل انه كان يستظهر الكثير من (نهج البلاغة). وكانت علاقة ميخائيل نعيمة بجبران وطيدة وقد تكون اعمق من علاقة الآخرين، كما قال لي ميخائيل فيما بعد، وكما يستبان من كتاب ميخائيل عن جبران الذي صدر بعد وفاة جبران باسم (جبران خليل جبران) ولكن الذي كنت أسمع به أنا أن عبدالمسيح حداد صاحب (السائح) كان أكثر اتصالا بجبران من أي أحد آخر، وهذا ما يمكن ان يستبينه القارىء في مجلة (السائح) وتعليقاتها.

وأنا هنا لا أسجل تأريخ حياة ميخائيل نعيمة وانما أسجل كيفية تعرفي به وتعرفه بي وما قد عرفت عنه شأني مع الآخرين الذين عرضت لحياتهم او الصحيح عرضت ما ارتسم في ذهني عنهم، ولو كان المقصود ترجمة حياة ميخائيل لاكتفى القارىء بكتابه (سبعون) وبما خلف من الكتب التي جمعت في الأخير كلها في أجزاء لم أرها أنا وان كنت قد قرأتها كتباً مجزأة.

ويستبان ان كان لي عند ميخائيل نعيمة بعض الجاه او الثقة التي لا استحقها فقد جاءت في عدد ديسمبر من سنة ١٩٧٧ كلمة للعلامة عجاج نويهض في مجلة (الاديب) النفيسة لصاحبها الاديب الكبير البير أديب يقول فيها:

«قال الاستاذ ميخائيل نعيمة في (الخليلي) و(هاتفه): ان الأستاذ الخليلي صاحب جريدة (الهاتف) العراقية التي خدمت الأدب العربي في وادي الرافدين سنوات طويلة وهو من كبار القصاصين في العراق، ومن أدقهم في وصف الحياة الاجتماعية ومعالجة مشكلاتها، وتصوير واقع المجتمع العراقي بصدق وفي براعة».

ومات جبران خليل جبران، وأحدث موته ضجة كبرى، فلقد مات وهو في القمة وأوشك أن يجني ثمار أتعابه ليعيش عيشة مرفهة بعد أن ذاق مرارة الحياة كما ذاقها ميخائيل، وكتب الكثير على جبران وما كان قد جمع وما كان يعرف عنه في الصحف والمجلات، وحدث بين ميخائيل وبين السيدة التي كانت تزمع جمع آثار جبران والكتابة عليه شيء من سوء التفاهم، وعاد ميخائيل الى لبنان تاركا نيويورك نهائيا، وتصدى لكي يكتب على جبران ما كان يعرفه عنه، فصدر له كتاب باسم (جبران خليل جبران) الذي كان نسيج وحدة من حيث العرض، وروعة الحكاية منذ صرخة جبران الأولى حين جاء إلى الدنيا إلى حشرجة الصدر عند مفارقته الدنيا، ولا احس ان كتابا في مثل هذا الباب قد سبق ميخائيل في عالم الترجمة من النواحي التي تطرق اليها ميخائيل ولو لم اخش الغيب لقلت ولن يأتي بعده من يستطيع ان ينحو مثل هذا النحو، علي اني لم اغمط (سعيد العريان) حقه فيما كتبه على حياة الرافعي ولكن لكتاب ميخائيل عن حياة جبران حلاوة فنية خاصة.

وقرأت كتاب (جبران خليل جبران) مرتين ولو لم يكن تحت يدي اليوم ما يشغلني عن القراءة والكتابة لقرأته غير مرة، وكتبت الى ميخائيل في حينه، وكان كتابي هذا له في الثلاثينات وكان هذا الكتاب هو المفتاح لفتح باب المكاتبة والاتصال بيني وبين نعيمة، ومن المؤسف انني لا احتفظ بنسخة مما اكتبه حتى المقالات باستثناء بعض ما تنشره لي الصحف من المقالات التي يكثر فيها الشطب والتخطيط بحيث اضطر الى تبييضها فارسل المبيضة الى النشر واحتفظ بالمسودة التي قد تختلف مع المبيضة اختلافاً كبيراً وجوهرياً في كثير من الاحيان، وهذه هي الزيادة والنقصان عما هو في المسودة الشيء الكثير وفي احيان كثيرة، واذا كان لدي اليوم مجموعة من المسودات فهي مسودات مقالات كثر فيها الشطب والمحو، وبعض المقالات التي طبعت على الآلة الكاتبة، اما الرسائل التي اكتبها للآخرين فلم يسبق لي ان احتفظت بصورة منها لأنها هي المسودة والمبيضة معاً باستثناء القليل القليل الذي تكون فيه طبيعة الرسالة كطبيعة المقالة ومن بين هذا القليل لم أجد الا احدى رسائلي التي

كتبتها إلى ميخائيل نعيمة وسيأتي ذكرها فيما بعد.

اما الرسائل التي اتلقاها من الأدباء والفضلاء فإني احتفظ بها في اضابير خاصة ارجع اليها عند الحاجة.

أجل لقد قرأت كتاب (جبران خليل جبران) وربما تأثرت به لحد ما في اسلوب عرضي لبعض النواحي ممن اعرض في كتابي (هكذا عرفتهم) وان عدّني بعض النقاد منفردا في هذا النوع من العرض والكتابة ومنهم ميخائيل نعيمة نفسه الذي يقول عن كتابي (هكذا عرفتهم) في احدى رسائله:

.... ولقد ذكرني مقالك، وما كنت بالناسي، بالهدية الكريمة التي تركتها لي في (الشخروب) وأعني بها كتابك الممتاز الذي تتحدث فيه عن طائفة من الرجال الأفذاذ الذين عرفتهم وعايشتهم في النجف، وقد باتوا اليوم وراء حدود السمع والبصر واني لاعترف ان معظم الذين تحدثت عنهم في كتابك لم يسبق لي ان قرأت لهم او منهم شيئاً، ولكنك بما في قلبك من مودة ووفاء، وبما في قلمك من حرارة ولباقة، جعلتهم يجتازون حدود البيئة الضيقة التي نشأوا فيها، واعطوا ما اعطوا، بل جعلتهم ينفضون عنهم الاكفان ليحيوا من جديد في صفحات كتابك (هكذا عرفتهم) فكنت مؤرخاً صادقاً، وكنت مصوراً بارعاً وبذلك نقلت كتابك من الخصوصيات الى العموميات، بحيث يستطيع اي قارىء عربي ان يفيد من مطالعته وان قامت بينه وبين النجف آلاف الكيلومترات».

غير اني لا اكتم القراء ما كنت قد اخذت على ميخائيل في كتابه (جبران خليل جبران) كما لم اكتم ميخائيل نفسه فيما بعد، وهو ما احسست به من تعالي ميخائيل على جبران كما لو كان يريد ان يقول بأنه أي ميخائيل هو الذي كوّن جبران، او يريد ان يقول بأن جبران كان دونه في مراتب الفن والأدب، وليس هناك جملة او كلمة في الكتاب تدل على هذا المعنى وانما يثير الكتاب بمجموعه مثل هذا الإحساس عندي انا ان لم يكن عند غيري، وستأتي الاشارة اليه لي رد ميخائيل على مأخذي هذا في كتابه عن جبران في اثناء تناولي الجزء الأول من كتابه.

ولم ينقطع اتصالي بميخائيل عن طريق ما كان ينشر، وما كانت الصحف والمجلات تنوه باسمه في المناسبات بما كان يقع تحت يدي من الصحف التي كانت تبادل جريدتي (الهاتف) وحين صدر كتابي (كنت معهم في السجن) اهديت الى نعيمة نسخة فكتب إليَّ يقول:

«بسكنتا ـ لبنان ١٦ ك[1] ١٩٥٥»

عزيزي.... جعفر الخليلي،،،

اسلم عليك واشكر لك تلطفك باهداء نسخة إلي من كتابك القيم (كنت معهم في السجن).

ان في اقدامك على اقتحام السجن بملء ارادتك لتعيش مع الذين عاقبهم القانون لانتهاكهم حرمتهم، ولتخبرهم عن كثب، وتقف منهم على تفاصيل الجرائم التي ادت بهم إلى السجن ـ ان اقدامك هذا لشهادة صادقة بطيب عنصرك، وعمق انسانيتك، وقد كنت سباقا فيما اتيته، إذ لست اذكر اني قرأت شيئا من هذا القبيل لكاتب عربي، في حين اني قرأت الكثير لكتاب غربيين.

لست أدري إلى متى سنبقى نعذب الناس بالقانون فوق تعذيبهم بما يرتكبونه من آثام ضد انفسهم وضد سواهم، وعندي لو ان الناس قاموا يحاسبون انفسهم، واحسنوا الحساب، لوجدوا ان لكل منهم شراكة مباشرة او غير مباشرة في كل ما يفعله غيرهم من خير ومن شر، واذ ذاك فحريٌ بهم ان يعاملوا الخارجين على قوانينهم كما يعاملون مرضاهم، والقاصرين والمجانين بينهم، انك في كتابك وبطريقة غير مباشرة تثير هذه المسألة بالذات، بارك الله فيك».

المخلص

ميخائيل نعيمة

وحين صدر الجزء الأول من كتاب ميخائيل (سبعون) الذي يحكي مرور سبعين سنة من عمره قرأته كما اعتدت ان اقرأ بقية آثاره بشوق ومتعة، وكان لا بد لي ان اكتب إليه بشأنه، وعلماً اني كنت مسبوقاً بانزعاجه من النقد على ما كان يقال عنه، فلم يمنعني ذلك من ان ابدي رأيي في بعض النقاط التي استلفتت نظري في هذا الكتاب الممتع الذي يجتذبك إليه فلا تتركه حتى تأتي على نهايته، وهي نقاط لم ازل حتى الآن أؤمن بصحة وقوفي منها وان لم يوافقني (نعيمة) عليها، ومن المؤسف ان لا يكون لدي صور لرسائلي التي كنت ابعث بها إليه غير رسالة واحدة سيأتي ذكرها لاستعيد بها ذكر تلك النقاط التي استلفتت نظري، وما لبثت ان تلقيت منه الرد التالي على رسالتي، وهو رد ليس منه ما يدل على الانزعاج الذي يتهمه به عارفوه ولعل السبب كامن فيما كنت اتخذه من احتياط في سبك نقدي ودقة الاشارة وكل ما في رسالته هو انه لا يعترف الا قليلا بصحة ما أورد به انا فيقول في رسالته:

عزيزي... جعفر الخليلي،،،

شكراً على كلماتك الطيبة واهتمامك بالرحلة الأولى من كتابي (سبعون) اهتماماً حملك على الاستفسار عن بعض ما جاء فيها، ومنه ان سرد (كوتيا) لبعض وقائع حياته ذلك السرد المسلسل يتنافى ووصفي له ببلادة الذهن، ولكنني قلت فيه قبل ذلك (ص٢٠٠) انه كان إذا تكلم وتمادى في الكلام ظهرت رغوة على طرفي فمه، وان الكلمة كانت تخرج من فمه مترددة، متعثرة، ومعنى هذا القول انه كان كثير الفأفأة، والتأتأة، والوأوأة، فكيف لي، وقلمي ليس شريطا يسجل الكلام على عواهنه كما تفعل الات التسجيل الحديثة، ان اسرد ما قاله لي بغير الاسلوب الذي اخترته؟ وعلى الاخص عندما انقل كلامه من الروسيه الى العربية؟ واي دليل على قصر مداركه اقوى من تحذير والده له: لا تتزوج! واي نفع يمكن ان ينتج عن زواجك؟ الا إذا كنت تريد ان تزيد عدد البله مثلك في الارض (ص٣٠٤).

اما قولي في سياق حديثي عن (فاريا ص٢٢٨) فما كان اقصر بصري، فاستدراك من (ميشا) في السبعين على شيء كتبه وهو دون العشرين، وكان من الواجب ان يخرج من نطاق ال « » وهو سهو مطبعي.

واما أجرة الباخرة من (أوديسا) الى بيروت في (السفرة السندبادية) فقد دفعها ميخائيل اسكندر من آخر ما تبقى لديه من فلوس، ولو انه دفع للقنصل التركي الريالين المجيديين اللذين طلبهما لما استطاع ان يبتاع تذكرة السفر، وكنا كطلاب لا ندفع الا نصفها، والقارىء يستخلص ذلك من سؤالي لرفيقي في محطة القطار في (بولتافا)، إذا كان يملك من المال ما يكفينا للوصول الى بيروت... الخ ص٢٤٥.

اعلم ان هذه الامور ليست بذات بال لمن يقدر الكتاب التقدير العالي الذي اشكره لك، ولكنني شئت ان ابدد بعض ما بدا لك غموضاً ومثيراً للسؤال، وعليك أطيب السلام، واليك أحسن التمنيات من المخلص.

ميخائيل نعيمة

«حاشيه ـ بعد اسبوعين تصدر الرحلة الثانية من الكتاب ان شاء الله».

وصدر الجزء الثاني ثم الثالث، وفي هذا الجزء اعني الثالث أحسست بأن الكاتب قد فقد تلك الحرارة التي تبعث اللذة في النفس على النحو الذي انطبع به الجزء الأول والثاني، ومع ذلك فلم اتطرق الى ما بدا لي من التباين بين الجزأين السابقين وهذا الجزء الثالث، وانما كانت رسالتي تتناول بعض ما لفت نظري من كتابه وفي هذا الضمن مرت

المناسبة التي ذكرتني بشعوري بتعاليه على جبران في كتابه (جبران خليل جبران) ثم انكرت عليه ايمانه بتقمص الأرواح فقد كان يقول انه سمع ابنة أخيه تناديه وفي ساعة معينة وهي على مسافة بعيدة من المستحيل ان يصل صوتها اليه، وحين لقيها تحقق بأنها كانت تناديه في تلك الساعة المعينة!! ولست الآن اذكر الحادثة تماماً، فقد عرفت انه يؤمن (باليوغا) وكان كمال جنبلاط هو الآخر يؤمن (باليوغا) واحسب ان هذا هو الجامع بينهما فقد كانا صديقين حميمين، وقد اخذ سكان القصبة على نعيمة تقاعسه وتقاعده عن الاستفادة من هذه الصداقة لخير مدينته يوم كان كمال جنبلاط وزيراً ومطالبته باصلاح طريق الوصول إلى بسكنتا والاهتمام بها، وكانوا يقولون ان نعيمة كان قادراً وبكلمة واحدة منه ان يحمل جنبلاط على الاهتمام ببسكنتا ولكنه لم يفعل.

ومن حسن الاتفاق انني وجدت بين مجاميع المسودات التي احتفظ بها مسودة لرسالتي التي وجهتها له على اثر صدور الجزء الثاني والثالث من كتابه (سبعون) وهي التي انقلها هنا:

«نابغة الأدب الحي ميخائيل نعيمة».

مرة أخرى اشكرك على ما اسبغت عليّ من النعم الروحية في المرحلتين الأخيرتين من كتاب (سبعون)، اما المرحلة الأولى فأخال اني قد وفيتها بعض ما تستحق من شكري الخالص في حينها، وحسبك من اثر هذه المراحل اني وافقتك فيهما بروحي وخيالي في أية جهة اتجهت وفي اية بقعة حللت، كاني انا الطائف، والجائب، وهذه أهم ميزة يمتاز بها الادباء العباقرة الذين يحملونك على ان تتحسس بأحاسيسهم، وتتلذذ بلذائذهم وتجوب الدنيا كلها برفقتهم وتراهم بمراياهم وانت قاعد في مكانك.

أتدري يا سيدي انني اتمثل (الشخروب) اليوم كما لو كنت انا الذي حرثت أرضه، وغرست شجره، وحفرت القناة لتفجر مياهه، وكاني أنا نفسي الذي رحت ابحث عن كهف تستجم فيه روحي، وترتاح نفسي، ولقد بكيت معك بعيني وقلبي لأنني وجدتك باكيا بقلبك - وان لم تعترف انت بذلك - لقد بكيت معك وانت تودع اخاك واباك وامك الوداع الأخير... واكثر من هذا...

وماذا تريد ان يفعل ادبك اكثر من هذا؟ بأن يدعك مقروءاً بلذة، ومحبوبا بقوة، ومقتدى للكثير من المراحل الروحية، وفي الكثير من الآراء والافكار، كمبتكر فذ، وعبقري ماثل.

واحسبك وانت كما وصفت واكثر - لا تضيق بخاطرة صغيرة كانت قد عنت لي قبل اكثر من خمس وعشرين سنة، اي حين اكملت قراءة كتابك (جبران خليل جبران) وقد

جددها الآن (سبعون) في مرحلته الثالثة حين عرض للكتاب، وما جرى بينك وبين الريحاني بشأنه، فأنا متفق معك كل الاتفاق فيما ذهب إليه من تفضيل اباحة السر، والكشف عن المكنونات على قدر الامكان ومقتضى الحال طبعاً، وانك احسنت الى الأدب حين امطت اللثام، وكشفت ما اخفي واستتر، كلاً أو جزءاً من حياة جبران الخاصة كما فعلت مع نفسك في مرحلتيك السابقتين.

أما جبران فقد انقطعت علاقته بالدنيا فلا يهمه ان يذكر بخير او بشر، وان يكشف أحد سره او يكتمه، ولكني خرجت من كتابك (جبران خليل جبران) في وقته وأنا اشعر بشيء من تعالي المؤلف وهو انت على المؤلف عنه وهو جبران، ولست اذكر الآن النقاط التي بعثت في نفسي هذه العقيدة، فقد مر على قراءتي لكتابك اكثر من خمس وعشرين سنة ـ كما قلت ـ كل ما اذكر هو اني فرغت من قراءة (جبران خليل جبران) وانا اشعر بهذا الشعور الذي لم ارتح اليه لا لأنك غير جدير بهذا المقام، وانما لأني لا احب ان يوحى الي كتاب انت تكتبه بمثل ما أوحي الي كتابك، ولك ان تعطفني على (اللؤماء) ـ ولا احسبك فاعلا ـ او على الذين لم يحسنوا القراءة.

وهناك شيء آخر من هذه المآخذ ـ استغفر الله بل من هذه التوافه ـ وهو انه قد صعب عليّ ان اوفق بين رأيك في الحياة الذي يكاد يتخصص باعتبار الحياة والممات شيئاً واحداً ومحاولتك حمل قارئك على ان يتلقى الموت كحدث اعتيادي لا فرق بينه وبين الولادة اذ تقول:

«وإذا كان في الأرض ظاهرة تتمكن بغير انقطاع فتلك الظاهرة هي الموت، أفما آن للناس ان يألفوها، وان يستعدوا لها (ذلك هو العجب العجاب)» وتقول في مكان آخر:

«لم يربح الموت جولته معي، فقد خرجت منها ودرعي لم يخرقها اي سهم من الشك في حكمة النظام السرمدي وعدله... الحياة حق والموت حق».

اقول لقد صعب عليّ ان اوفق بين رأيك هذا وبين ما وقع لك بالذات، فقد رأيتك تعطي العواطف قيمة لا يعطيها الا الذين عرفوا برهافة الحس، ورقة المزاج، وقد أريت قارئك انك كنت في غاية الرهافة، وفي غاية الرقة فيما كتبت، والا لما حدتك هذه العواطف على ان تتمثل عهد الطفولة، وعهد الصبا، والابوين، والخال، والاخت والاخوة، وأولاد العم، ثم تشد الرحال الى بسكنتا بعد تلك الغيبة الطويلة وانت تكاد تذوب شوقاً، وحنيناً، ولم تكتف بذلك، بل رحت تهم بان تضع حفنة من تراب الشخروب في تابوت ابيك، فكيف تقول في احتضار أمك:

«ولم اكن جاهلاً ان التي ولدتني ستموت يوماً فما هالني (كذا) وانا بجانب سريرها ان أمس يدها تتثلج، وتتيبس في يدي، فلا نبض ولا حرارة» وتعود فتقول:

«لا ما هالني (كذا) ان ارى التي ولدتني هيكلاً مهجوراً» فكيف تريد من القارىء ان يطوي كل هذه الذكريات والعواطف ساعة يموت عزيزه لمجرد ان تكون الحياة والممات سواء في الطبيعة؟ وانت تعلم انها ليست سواء في سنة الانسان الذي من طبيعته الفرح، والحزن، والضحك، والبكاء، والا فبماذا نفسر بكاءك على اخيك هيكل؟

وليس من بأس ان تدعو للتجلد والتصبر ـ كما قد فعلت ـ وان تضرب بتجلدك وتصبرك المثل، اما ان تقول انه (لم يهمك) منظر أمك وانت بجانبها في ساعة الاحتضار فأغلب الظن انه حال ـ إذا وقع ـ فلن يحكي شيئاً غير جهادك مع نفسك، اما عاطفتك ـ وانت انسان اعتيادي ـ فلا يمكن ان يهولها مثل هذا الموقف، فكيف وقد اوتيت نفساً تفيض بارق العواطف، وارهف الأحاسيس، اعيذك بالله يا أخي ان تكون من القساوة ـ وليس من الجلد ـ حيث ذكرت[1]....

وما يدريني فلعل المفاهيم التي التبست عليّ، وإذا صح هذا فإن الريحاني وهو الأديب العبقري قد سبق وأوجد لامثالي المعاذير ما يخفف وطأة الخجل حين اضاع المفتاح، ولم يحسن القراءة، والتبست عليه المعاني[2].

وتافهة أخرى قد علقت بذهني وهي اشد تفاهة مما مر، وانا أريد ان امحوها بكشفي اياها لك وهي اني قد استكثرت عليك ان تنسب (اللؤم) إلى خصومك، لا لأنك كنت محقاً اطلاقاً، وانما لأن نفساً طاهرة استطاعت ان تعتبر الكثير من الظواهر اوهاماً، وقد امتلأت بالمحبة لهي في اسمى مراتب العفو والسماحة، وكان يكفيك من خصومك ان تورد كلامهم فيك وتترك للقارىء ان يقول فيهم ما يستحقون.

وإذا جاز ان يوجه مثل كتابك للريحاني جواباً على كتابه قبل ثلاثين سنة، فإنه لا يجوز ان يوجه بعضه ولا بعض بعضه في هذا اليوم وانت من حيث السمو، والزهد، وصفاء النفس في الضراح[3] الارفع.

---

(١) الحق أن لميخائيل نعيمة متناقضات كثيرة فيما ظهر لي بعد ذلك، فهو يؤمن بالأرواح وخلودها، ويرى أن هذه الظاهرة ملموسة محس بها في حياة الناس ويضرب لذلك أمثلة ثم ينكر بعد ذلك أشياء كثيرة قد قالها من قبل، وهذا ما أخذه عليه ابن خاله المحامي كعدي فرهود كعدي في كتابه الذي أصدره عنه وأحدث به ضجة أدبية كبرى

(٢) هذه الرسالة ورد نعيمة عليها لا تخلوان من الإبهام لمن لم يستحضر ما جاء في كتاب (سبعون).

(٣) الضراح: بالضم والشد بيت في السماء مقابل الكعبة (العزيزي).

أما الاحلام فمن المؤسف ـ والأسف لي وليس لك طبعاً ـ ان يكون الوارد منها على سبيل المثل في (سبعون) لا يستحق ان يثير الدهشة والاستغراب فيحرمني ذلك من نعمة مسايرتك فيه والتلذذ بمضمونه.

ولا اجزم بأني قد قلت شيئاً يستحق الاهتمام من لدن غيري ولكني جازم باني لم اقل شيئاً يهمك، وكل ما فعلت، هو انني قد بحت لك ببعض ما خالجني من افكار على أثر قراءتي كتابك النفيس الذي ستظل ذكراه تعطر انفاسي الى ما شاء الله، حفظك الله يا سيدي نبراساً للأدب الرفيع، ومناراً للمعرفة، وقدوة للخير الذي نذرت نفسك له، والذي دعوت له مخلصاً ولم تزل تدعو وللمعجب بك والمخلص لك على البعد.

جعفر الخليلي

«بسكنتا/ ٢٩ك٢ ـ ١٩٦١».

«اخي..... الخليلي

تلقيت ببالغ التقدير والارتياح تعليقك القيم على الرحلة الثالثة من (سبعون) وإذا أنا علقت بدوري على بعض ملاحظاتك فبقصد التفاهم لا أكثر.

١ ـ يبدو أنك طالعت كتابي عن جبران منذ عشرين سنة أو أكثر فشعرت أن في لهجة المؤلف شيئا من الاستعلاء على المؤلف عنه، والارجح أن مرد ذلك الشعور إلى التباين الذي أظهرته في حياة جبران بين المثل الأعلى الذي كان يبشر به، والواقع الذي كان يعيشه، فتبادر إلى ذهنك انني أدينه بما أنا براء منه، وذلك ما انفيه في الكتاب نفسه، إذا لا أبرز نفسي من مثل اخطاء جبران، ثم انفيه بطريقة أوضح، وأوسع في كتابي (سبعون) حيث أفضح ضعفي، وخيانتي لمثلي الأعلى في أكثر من مكان فلا مجال لأن يستعلي انسان على انسان تجاه الحق.

٢ ـ ان ما وصفته من مواقفي تجاه الموت لا مبالغة فيه على الاطلاق، فالموت لا يرهبني، لأنه ليس في نظري انقطاعا للحياة وذلك لا يعني انني لا احزن لأحزان الذين يحزنون على الموتى ولكنني أحبس الدمع لأنه في نظري دليل الضعف، أما قلبي فرقيق إلى حد انني اتحاشى أن أدوس نملة، وإذا ما ابحت لعيني أن تدمع قليلا عندما جاءني خبر وفاة شقيقي هيكل في ديار الغربة فلأنه تراءى لي ـ ولا أدري لماذا ـ أن روحه قد تسر بمثل ذلك البرهان الحسي لعظيم محبتي له.

٣ ـ لست أشك في أن غيري يستطيع أن يروي من الاحلام ما هو أروع بكثير من تلك التي رويتها في (سبعون) ولكن ما رويته بفي بغرضي، وهو ان اوجه فكر القارىء الى

جانب مهم جداً من الانسان وحياته، وهو جانب مهمل ومغمور من قبل الذين يحاولون فهم الحياة بالاسلوب العلمي او بالتحليل الفلسفي.

يا ليت كل الذين يقرأون، يقرأون بمثل وعيك وفهمك، وادراكك، بارك الله فيك، واليك أحسن التمنيات وعليك اطيب السلام من المخلص.

ميخائيل نعيمة

حاشية:

«لقد فاتني ان اقول كلمة في اللؤم... فهو لؤم من ايما مصدر جاء ولا غضاضة في تسميته باسمه، والغضاضة أن تحقد على اللئيم، وأنا ما حقدت أبداً على الذي قال ما قاله عني، بل كانت ظروف بعد ذلك ابديت له فيها مودة خالصة دون أن أسمعه كلمة عتاب».

ميخائيل نعيمة

ولنعيمة محبون ومعجبون كثيرون، كما أن له حاسدين وكارهين هم الآخرون كثيرون، وقد نسب كارهوه أو قل ناقدوه له السرقة وقالوا أن قصيدة (النهر المتجمد) انما هي قصيدة لشاعر روسي قام نعيمه بترجمتها من الروسية إلى العربية بالشعر وانتحلها، ونسبها لنفسه، وهي قصيدة يصف بها احد الانهار المتجمدة ويقيس هذا النهر بنفسه اذ يقول في آخر القصيدة.

يا نهر ذا قلبي، أراه كما أراك مكبلاً — والفرق أنك سوف تنشط من عقالك وهو لا

وانا مقتنع كل الاقتناع بأن هذه القصيدة إذا كانت مترجمة حقا فلا بد أن يكون (نعيمة) قد أشار إلى هذه الترجمة يوم نشرها لأول مرة، وتناقلتها الصحف والمجلات والكتب واغفلت تلك الاشارة، وفي مثل هذا كان الشيخ محمد رضا الشبيبي قد ترجم (القطرات الثلاث) من الفارسية واغفلت الاشارة إلى ترجمتها حتى دخلت ديوان شعره كما لو كان هو صاحبها الأصلي، ومثل هذا قد وقع في القرون السابقة وقد يقع في القرون الأخيرة.

أو أن ميخائيل نعيمة هو صاحب (النهر المتجمد) الاصلي، ولكن اللؤم الذي يشير إليه (نعيمة) هو الذي صاغ هذه التهمة، ولا سيما وان نعيمة في غنى عن سرقة مثل هذه القصيدة ما دام له شعر هو اسمى وابلغ، وأعمق فكراً من هذه القصيدة المزعومة سرقتها.

كل هذا وغيره وبالرغم من مواصلتي الاصطياف بلبنان من كل سنة وبالرغم من تعلقي الشديد به واعجابي بعبقريته وسمو أدبه فلم يأت لي ان أحظى بزيارته وأن أراه

وجهاً لوجه وفي كل سنة كنت أشدد على نفسي بأن لا أعود في هذه السنة الى بغداد الا وقد حققت لنفسي منيتها، واغترفت ما استطعت من عذب خيره، فأعود ولا أدري حيث مضيت؟ ولا أدري كيف مضيت؟ وقضيت هذه الشهور الثلاثة أو الأربعة ولم أوفق الى اجتياز هذه الخطوة بين (سوق الغرب) الذي اعتدت الاصطياف فيه و(بسكنتا) البلد الرابض على سفح صنين.

وجاءت المناسبة، مناسبة انعقاد مهرجان الكندي ببغداد وكان (نعيمة) من المدعوين إليه، وكنت أنا من المضربين عن حضور جلساته، بالرغم من دعوتي الى المؤتمر عضواً وقد نزل نعيمة بفندق بغداد، ومررت عليه ولم يكن قصدي أن أراه فحسب وانما أردت أن أدعوه إلى بيتي وأن أحتفي به على قدر ما يتسع لي الاحتفاء بعبقري ربطت بيني وبينه المودة ولكنني لم أجده ثم سافر قبل سفر الوفود، فالزمت نفسي في هذه المرة إن أنا قضيت الصيف بلبنان أن أقصده (ببسكنتا) وكان الذي قصدت، وكانت حصيلة هذه الزيارة كلمة معنونة باسم (ميخائيل نعيمة أندر من الكبريت الأحمر) نشرتها جريدة (البلد) لصاحبها عبدالقادر البراك بمناسبة المهرجان الذي أقيم لتكريم نعيمة ببيروت، ونقلتها أحدى المجلات بهذه المناسبة، وقيل لي ان احدى الصحف اللبنانية قد نقلتها هي الأخرى، وقد كتب لي نعيمة على اثر نشر جريدة (البلد) هذه الكلمة يقول فيها:

(.... فقد وصلني أمس عدد (البلد) البغدادية وفيه مقالك الطريف جداً عن (الكبريت الأحمر) وكيف تعقبته من (فندق بغداد) إلى بسكنتا) إلى (الشخروب) لتصطاده في نهاية المطاف عند صديقه اميل ضومط في سوق المغرب....).

ولدي قصاصة من المجلة التي نشرت (اندر من الكبريت الأحمر) وليس على هذه القصاصة اشارة إلى اسم المجلة التي انقل منها هذا المقال المعنون: (ميخائيل نعيمة اندر من الكبريت الأحمر).

اما المقال الذي كتبته عن نعيمة ونشرته الصحف فهو كما يلي:- (بيني وبين الأديب النابغة ميخائيل نعيمة علاقة روحية يرجع تاريخها إلى ايام صباي، يوم كنت التقط بنات القرائح من شعراء المهجر كما يتلقط الطير الحب بين حبات الرمال، فأتلوها وأترنم بها لنفسي، وانا نجفي عريق لا استطيع التخلي عما الف الناس من الاعتبارات والعادات بسهولة ومن هذه العادات تنغيم الشعر، وترتيله حسب ذوق المنشد وسليقته[1]، فالشعر في

(١) سبق أن وصفت في عدة مناسبات من أجزاء كتابي (هكذا عرفتهم) كيف كان ينشد الشعر في محافل (النجف) وأنه لمن المؤسف أن تطغى اليوم موجة القراءة المسلة المتبعة في المدن العربية على الطريقة النجفية، فلم نعد نشنف مسامعنا بتلك الترانيم والتلاحين التي كانت تزيد الشعر وقعاً في النفوس، وروعة في الذهن.

النجف ـ إلى عهد قريب ـ كان لا ينشد الا منغماً، ومرتلاً حتى في مجالس الرثاء، وكان انتشار الشعر على هذه الصورة من خصائص خطباء المنابر، وقلما وجد النجفي يقرأ الشعر لنفسه ولا يترنم به بلحن خاص به، وبلحن عام من الحان المقامات العراقية، وكان هذا الشعر الذي كنت اتلقطه من مجلة المقتطف والهلال، والعرفان، والزهور والسائح الأميركية ان حصلت بيدي يساعد كثيراً على أن يجعل النغمة في الذهن، وفي الفم، حلوة رتيبة، ذات صدى في النفس، فقد كانت بحوره موسيقية، ومعانيه جذابه، ساحرة، واثره جد عميق في القلوب والافكار، ولم يكن يعوز هذا الشعر شيء ليخلد غير الناي والوتر، ولو كان العود والناي مباحين في أوساط (النجف) لظل المستمع مسحوراً بالشعر إلى ما شاء الله، إذ الشعر معنى في فن، ونغمه في صوت، في مفهوم النجفيين.

وكان ميخائيل نعيمة في الطليعة من هؤلاء الشعراء الذين يدخل شعرهم إلى نفوس الشباب، وهواة التجديد ـ استغفر الله بل نفوس الكثير من الكهول والشيوخ ـ فقد كان في (النجف) من شيوخ الأدب، وأئمته عدد غير قليل ممن ينزعون إلى التجديد أكثر من نزوع الشباب.

وكانت تشدني إلى ميخائيل نعيمة وأنا في أول مراحل الصبا والشباب ما كان يتدفق به شعره من المعاني والافكار، حتى لقد حملت مرة الخطيب المعروف السيد خضر القزويني على أن ينشد لنا (اوراق الخريف) باحد لحونه النجفية، وترانيمها التي اعتاد النجفيون ان يشنفوا اسماعهم بها، فانشدها في بيتي، وفي وسط جمع من ادباء الشباب جمعتهم عندي احدى المناسبات الادبية، ثم انتشر انشادها على لسان السيد خضر في كثير من المحافل بعد ذلك. أما اليوم وبعد أن مر على ذلك ما يقرب من اربعين سنة تتيقظ في نفوس بعض المتفننين الذواقين من اللبنانيين روح التحسس والتلذذ، ويفطنون الى منزلة نعيمة الأدبية، وإلى قيمة شعره، وإلى هذه القصيدة (أوراق الخريف) بالذات فيلحنونها وينشدونها في مهرجان نعيمة الأخير، وكم كان جميلاً لو كان جهاز التسجيل معروفاً في وسطنا يوم غنى السيد خضر:

تناثري تناثري يا بهجة النظر
يا مرقص الشمس ويا أرجوحة القمر
يا أرغن الليل ويا قيثارة السحر... الخ.

أقول كم كان جميلاً لو كنا قد سجلنا انشاد السيد خضر لهذه الأبيات في وقته لكي نقارن بين نغمة هذه المقطوعة في مهرجان نعيمة وهي التي تقوم على أوتار العود والكمان ونغمة السيد (القزويني) الذي اعتمد الحنجرة الصافية وحدها في الأداء قبل ما يقرب من أربعين عاماً.

أما نزعته في دنياه تستخرجها من كتبه فيكفي أن يمثلها قوله:

«ان لم تكن بئراً فكن دلواً... وان لم تكن دلواً فكن حبلاً... وان لم تكن حبلاً... فكن بكرة على الأقل... ولا تكن حجراً يطرحه العابثون في البئر ليسمعوا ضجة الماء فيها...» أما ناقدوه فيقولون ما كان نعيمة يوماً كما يقول، وانما كان هذا مجرد قول منه او تمنيات... ومواعظ لا غير...

ونما الحب والاعجاب في نفسي لهذه الزمرة من الشعراء المجددين هنا في المواطن، والمجددين هناك في المهاجر، فتعرفت عن هذا الطريق من المهاجرين بجبران، وابي ماضي ورشيد ايوب والشاعر القروي والياس فرحات، الذي اشتدت صلاتي الروحية به بعد ذلك وتوثقت تلك الصداقة حتى جنى قراء جريدتي (الهاتف) من (فرحات) الشيء الكثير من الخير، وقد فخر (الهاتف) بأن كان السبب في ادخال مثل هذه اللذة الروحية، والمتعة الادبية على نفس قرائه زمناً ليس قصيراً، كما نمت المحبة والصداقة بيني وبين عدد آخر من الأدباء والنبغاء من هذا الطريق نفسه.

وعاد نعيمة من اميركا إلى (بسكنتا) (والقت عصاها واستقر بها النوى) بعد أن ذاق الشيء الكثير من مرارة الغربة، وشظف العيش حتى كان يحمل بضائع التجار ويطوف بها على بغل بين القرى الاميركية النائية ليعرضها للبيع.

وكنت قد عرفت (نعيمة) باكثر ما يمكن لواحد مثلي أن يعرف واحداً مثله، وظل عليّ أن أعرف وجهه، وبشرة هذا الوجه، وموضع الألم من تجاعيدها، وموضع البسمة في شفتيه وهذا يتعذر على الرائي أن يراه إذا لم يسعده الحظ أن يرى الرجل عن كثب رؤية عميقة نافذة أضف إلى ذلك من أن المناسبات، والمكاتبات، والرسائل التي كانت قد جرت بيني وبينه كانت عاملا كبيراً في زيادة الشوق الى رؤيته، فحاولت قبل عدة سنوات وأنا أزور لبنان، لقد حاولت غير مرة أن أزوره في صومعته ببسكنتا لاضرب عصفورين بحجر واحد فأرى الرجل ببصري، واتعمق في هذه الرؤية عن قرب، بعد ان رأيته ببصيرتي على البعد، ثم لأرى هذه البيئة النقية، والمنبت الزاهر الذي ترعرع في قاعه نعيمة وتفيأ ظلاله، فهل هو من الجمال والقدرة بهذا المدى إذا ما وجدت البذرة الطيبة المشحونة بالقابليات والاستعدادات، ام هو مدين لتربة أخرى ليس لها ببسكنتا اية صلة من قريب أو بعيد.

لقد حاولت زيارته غير مرة وانا امر على بيروت فكانت تحول بيني وبين ذلك الحوائل فيشتد شوقي، وتزيد لهفتي، ويكثر حرصي على رؤيته بداعي السنة المعروفة (المرء حريص على ما منع) فتتأجل المحاولة الى وقت آخر وآخر، حتى كان مهرجان

بغداد، ومعنى ذلك أن الرجل قد جاء بنفسه ليمهد سبيل هذه المتعة الروحية، وليسعد صديقاً بلغ الشوق منه الغاية، لقد جاء الى بغداد، ولسان حاله يعيد المثل العامي العراقي إلى الذهن قائلا: (المايجيء وياك تعال وياه) أي أن الذي لا يجيء اليك هو فَرُحْ انت إليه.

ولكن سوء الحظ في هذه المرة لم يكن بأقل مما كان في السابق، فقد كنت قررت لنفسي تجنب حضور الحفلات الرسمية في جميع الدعوات التي كنت أتلقاها لسبب ليس هذا محل ذكره. لذلك انحصر أمر التقائي بميخائيل في الفندق وحده، وهكذا قصدت الفندق متلهفاً، وزرته غير مرة فلم أوفق واضطررت إلى أن أترك له بطاقة عنوانها بالبيت المعروف:

لا تلــم كفــي إذا السهــم نبــا   صــح منــي العــزم والدهــر أبــى

وعاد نعيمة إلى لبنان ولم يسعدني الحظ برؤيته...!

أما اليوم وأنا اقضي الصيف بسوق الغرب من لبنان فلا بد لي أن أنازل الظروف القهارة، واصارع العوائق والحواجز حتى اصرعها وأن كنت أبعد الناس عن فهم الصراع والمصارعة، ان لم أكن اشدهم كرها لهذه الرياضة ورياضة الملاكمة خاصة، ومصارعة الثيران، فلا بد لي أن أرى في هذه المرة نعيمة على رغم معاكسة الظروف لكي يصدق الخبر الخبر، ولأكحل عيني برؤية رجل وثق شعره وأدبه أواصر الصداقة والمحبة في نفسي منذ اول يوم بدأت أدرك فيه معنى الادب، ومعنى الفن فلا بد أن أمتع عيني هاتين برؤيته وان كان دون ذلك خرط القتاد وأعد لي صديقي الدكتور أمين زهر الطبيب بسوق الغرب سيارته لتقلني وتقل من آله المتعطشين إلى رؤية نعيمة السيدة الأديبة سامية قائد بيه وابنه رجاء زهر الذي تولى قيادة السيارة وانحدرنا من (سوق الغرب) إلى بيروت، ومنها إلى (بكفيا) قاصدين (بسكنتا) التي اضفى عليها وجود ميخائيل فيها جمالا روحياً، وأكسبها شهرة، وحباً اكثر في النفوس الخصبة، ودعاها لأن تكون مقصدا للكثير من الزوار الذين يؤمونهم بقصد زيارة نعيمة.

وما كدنا نجتاز (بكفيا) وتدور السيارة بنا دورة أو نصف دورة من تلك السلسلة الشامخة من الجبال التي كانت قد ضربت حول الوديان ما يشبه الدائرة حتى رأينا جنة، أو قل رأينا الجانب الاكبر من هذه الجنة إذا كان هذا الجانب يعني الخضرة التي تبهج النفس تحت شعاع الشمس، والهواء العليل، والنسمات التي تنعش القلب والاحراج التي تغطي قمم الجبال والتي تصعد بالانظار إلى أعالي قبة السماء الزرقاء لتريك كيف تمتزج زرقة السماء بخضرة الأرض، والوديان التي تنزل بالانظار إلى أعمق أعماق الصخور لترى

في هذه الاعماق قصارى ذلك الصعود، وقد ربضت في سفوح تلك السلسلة من الجبال قرى نثرت الطبيعة بيوتها هنا وهناك مجتمعة ومتفرقة تحت سقوف حمراء من القرميد كان لها بين تلك الخضرة الممتدة امتداد البصر روعة وبهجة، وقامت قرى أخرى فوق التلال وعلى أعلى القمم، تنفذ أشعة الشمس من بين شبابيكها الزجاجية وهي ترقص في غلائل وملاءات من الالوان الشمسية الباهرة من ازرق وبنفسجي وأحمر وأصفر، وبين كل مسافة واخرى تقوم آلاف من (الشخاريب) من شواهق الصخور، وقد عملت في صخورها الامطار والثلوج والرياح، والعواصف على مر الدهور تشقيقاً، وتأكيلاً، ونحتاً حتى لقد بدت وانت تنظر اليها مجسمات من بعيد من عوالم الجن، والعفاريت، والناس والحيوان كانت لها ذات يوم عروق تنبض، وتزخر بالوان الحياة وعجائبها، فهذه التماثيل التي نحتتها الثلوج والعواصف في هذه الصخور تجسم لك جوانب من مدن وباحات، وميادين وقلاع وبيوتاً ومساجد، وكنائس، فكأنك تجوب أحدى المغارات كمغارة (جعيتا) مثلا التي تجعلك تتخيل وانت في بطن الأرض عوالم من الصخور المجسمة كانت ذات يوم حية تموج بالحياة وقد قلبتها الطبيعة صخورا جامدة بقصد أو دون قصد، فهكذا كنت ترى أعالي الجبال من بعيد تجسم هذه العوالم تجسيما، كل هذا والمياه تتدفق من وسط الجبال وتنساب كما تنساب الحيات والافاعي كانها صاعدة نازلة فيبهرك كل هذا وينسيك جمالها نفسك، وتسأل عن اسم هذه البقاع من الجنة فيقال لك ان اسمها (المتن) ولو قيل (القلب) لكن الاسم اكثر انطباقا على هذه الرقعة من الارض، وفي قسم من هذه الجنة المحاذي لجبل (صنين) ولد ميخائيل نعيمة.

وما أتى ذكر الجنة الا وتراءى للانسان ان هناك جهنم، فاين هي جهنم هذه الجنة؟ وسرعان ما تحس بجهنم هذه وتراها بعينك، وترى عزرائيل وبيده منجله الذي يحصد به الارواح الى جوارك يريد أن يطرح بك ويرميك حطباً لجهنم وان جهنم هذه ترقد في الخوف الذي يراود العيون وهي تنظر إلى الطرق الضيقة، ومتعرجاتها، والتواءاتها من وراء تلك الجبال الضاربة في الأعالي والنازلة الى الاعماق، وهذا الصعود الشاق الذي تخال انك تصعد الجبال عمودياً، والنزول العمودي المباغت، والسيارة في كل آن على شفا جرف من السقوط في اخدود من الأودية التي لم يصل بعد اليها انسان، ولم يسبر العلم غورها بعد، وكل ما يرى الرائي منها خضرة داكنة لحد السواد في أعمق الاعماق من الاودية.

ان جهنم هذه كامنة في هذا الخوف الذي يملأ القلوب من أن يغفل السائق فيؤدي شبه الانحراف الذي ربما لا يزيد على قدم واحدة ذات اليمين أو ذات الشمال فتهوي السيارة بمن فيها إلى (اسفل السافلين)، الطريق كله منذ ان تخرج من (بكفيا) إلى ان تدخل (بسكنتا) على هذا النمط ينغص عليك التمتع بالجنة، ويزيد هذا الخوف ويزيد

تلويح عزرائيل لك بمنجله حينما تتقابل سيارتان احداهما جائية والأخرى ذاهبة والطريق في أغلبه لا يزيد على مرور سيارة واحدة دون زيادة لمستزيد، فيتأخر هذا الى الوراء قليلاً حتى يجد مجالا له بجنب الجبل ويتقدم ذلك بحذر وايدي الركاب على قلوبهم خوفاً من وادي الجماجم.

ولو عرف طريق بسكنتا ضارب المثل للشدة التي تعرض الانسان في طريق غايته لما استعمل للاستحالة مثلا يقول (دونها خرط القتاد) وانما كان يقول:

(دونها طريق بسكنتا)

وبلغنا (بسكنتا) وشكرنا لمضيفنا رجاء زهر الذي كان يسوق سيارتنا بحزم، وشدة حذر وحسن سياقة وقد بهرنا موقع بسكنتا وانتشار بيوتها على بعد خمسة كيلو مترات من ذلك الجبل الاشم (صنين العظيم) واقبلنا على بيت ميخائيل نعيمة، وليس هناك شيء بعد، يحول بيني وبين رؤيته فهو يقضي كل ايامه في بيته على ما اعلم باستثناء الأيام التي تدعوه الضرورة إلى أن يقصد بيروت، ولكنه لا يقيم فيها في الصيف، ولم يبق للظروف والاقدار شأن في العراقيل التي تحول دون رؤيته.

وطرقنا باب الدار التي كان قد وصفها في كتابه (سبعون) وتذكرت اللغز الذي كانوا يلقونه علينا لفظاً ويطلبون منا حله أيام كنا ندرس القواعد العربية، والبيت الذي كانوا يريدون منا اعرابه وهو:

طرقـت البـاب حتـى كـل متنـي ولما كــل متنـــي كلمتنـــي

ولكني طرقت الباب حتى كل متني ولم يكلمني أحد، أترى ان هناك سراً تعود له هذه الخيبة كلما حاولت رؤية (نعيمة).

ومر من هناك رجلان ونحن نطرق باب البيت قالا لنا ان نعيمة في (الشخروب) وهو المزرعة التي قامت في سفح جانب من مثل تلك الصخور التي تراءت لنا من بعيد في الطريق، وخشينا ان نلاقي من جهنم ما لقينا قبل دقائق من الهلع والخوف، ولكن الموقع كان قريبا، وشعرت ونحن نقبل على (الشخروب) بالبهجة تغمر نفسي لأنني تأكدت من انتصاري في هذه المرة على القدر والظروف، وفي بيت نعيمة القروي القائم وسط بستان من شجر الكرز رأيت عش هذا البلبل، وصومعة هذا الناسك الذي عرف في الاوساط (بناسك الشخروب) ولكني لم أر هذا البلبل، ولم أجد الناسك ويا لشماتة الظروف والاقدار.

لقد قال لي أخوه وكان هناك لقد قال لي: ان نعيمة قلما يغادر صومعته، ولكنه اعتاد ان يقضي في كل سنة اسبوعا أو أقل من ذلك ضيفاً على صديقه أميل ضومط بسوق

الغرب...!! وهو منذ يومين هناك اي بسوق الغرب الذي اقضي انا فيه الصيف من كل سنة.

وهنا لم أعد ذلك الرجل المغتر الذي كان يحسب انه قادر على أن يغير من الظروف أحكامها وان كانت ظروفاً تافهة، وغير ذات أهمية، وعدنا فقطعنا الطريق من جانب القوس الثاني من جبال (المتن) الى سوق الغرب.

وفي (سوق الغرب) رقت الظروف، واشفقت، فالتقينا في بيت اميل ضومط، وكان عناق وقبلات، في مجلس عمر بالأحاديث الأدبية والأفكار مما يقتضي له حديث طويل ربما سأوفق لعرضه ذات يوم...!! وكانت النعمة شاملة برؤيته، والمتعة كاملة بأحاديثه، وحدث عن اثر هذه اللقيا في نفسي ولا حرج.

اما ان يكون نعيمة اندر من الكبريت الأحمر ادباً وفناً ونبوغاً فهذا ما لا يختلف منه احد عرف نعيمة ولكن العجيب وهو ان رؤية نعيمة السهلة المتيسرة لكل من يطلبها، كيف كانت اندر من الكبريت الأحمر لواحد مثلي، تمنى ان يخرط القتاد ولا يسلك طريق بسكنتا المروع المخيف ولكن هكذا كان.

بغداد ـ كرادة مريم جعفر الخليلي

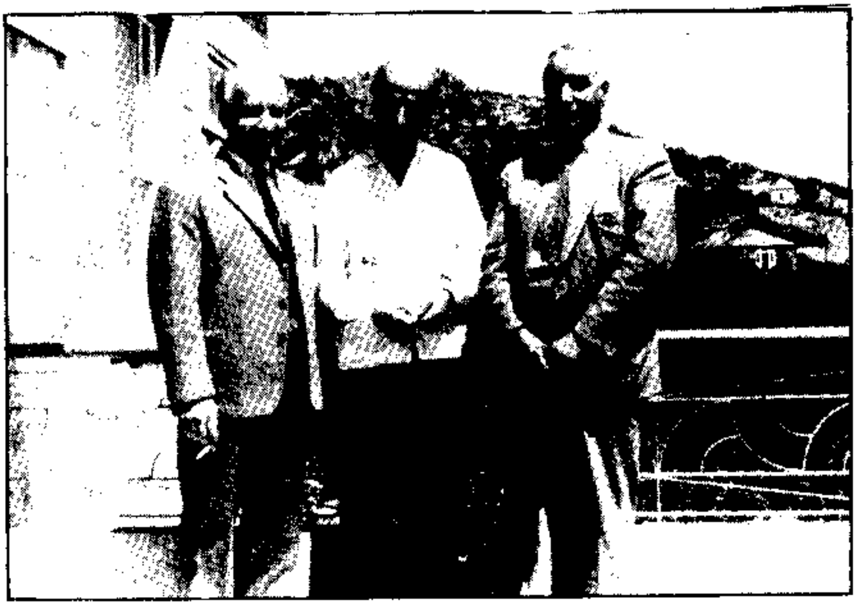

ميخائيل نعيمة بين جعفر الخليلي وناجي جواد على شرفة بيت عظيمة ببسكنتا

وزاد ارتباطي به فلم يمر بعد ذلك صيف الا وكنت اقطع ذلك الطريق المخوف طريق بسكنتا تشجعني الرغبة للقياه على اجتيازه فأقضي عنده بعض الوقت واعود، وقد اكرر زيارته في نفس الصيف غير مرة، وكم دهشت حين علمت بأن له ريشة في الرسم لا تقل شأناً عن ريشة النبغاء الرسامين في الرسم لو انه واصل العمل رساماً، فحكايته كحكاية جبران خليل جبران، وعلى ذكر جبران لقد رأيت لميخائيل نعيمة صورة بريشة جبران وكنت انتظر ان تكون لنعيمة مكتبة كبيرة ولكني لم أجدها كذلك لأنها لم تتجاوز مئتين أو ثلثماية كتاب على اكثر تقدير ومن هذا قد يعلم بأنه كان كاتباً مفكراً اكثر منه باحثاً مدققاً، وكانت (مي) وهي ابنة أخيه او انها ابنة اخته وقد نسيت لقد كانت هي التي تقوم بالاهتمام به قبل زواجها، لأن نعيمة كان اعزب كجبران، وقد قيل لي انه ممسك يتغلب عليه الشح، وان المحيط الاميركي قد طبعه بطابعه فراح يثمن كل شيء وقد لا يلقي خطاباً الا باجرة! فقد وسطتني مرة مدرسة عاليه الثانوية النموذجية إليه ليتقبل ان يكون ضيفها في حفلتها السنوية، وكانت قد عرضت عليه مثل هذا الرجاء فرفض رفضاً باتاً ولست أدري من الذي اشار على المدرسة بوجودي بسوق الغرب وبعلاقتي الصميمية به، فاخذوني إليه ورجوت منه ان يسمعه هذا الحفل المدرسي واعظاً ببعض الكلمات من تجاربه ومشجعاً لهم على تحمل شدائد دنياهم لأن كل ما يطلب من واحد مثله هو هذا الذي يطلبه هؤلاء، ولكنه أصر اصراراً عجيباً على الرفض وقال لي انه قد اعتذر منهم قبلاً وقد اساؤوا اليك بتحميلك هذه المشقة، مشقة الدرب إلى (الكبريت الأحمر) لقد قالها وهو يضحك ولم يستجب لي، وحصل هناك بعد أيام من يقول لي بأنه لو دفعوا له مبلغاً لقبل الدعوة ان يكون ضيف الشرف، وقص علي قصة وقوفه خطيباً في مناسبة لا اذكرها وكان ذلك بثمن والله اعلم.

ولم يكن يهمني ما كان يقال عنه وما كنت انا قد اختبرته بنفسي بقدر ما يهمني منه اديباً عبقرياً وكاتباً قل نظيره في الوان ما كتب، ومفكراً من افذاذ المفكرين، وقد ترك طائفة من الكتب تصلح ان تكون موضوعات دراسة عامة، وستظل هذه الكتب تقرأ كما تقرأ كتب جبران الى ما شاء الله، وان لم تخل بعضها من المتناقضات في عالم الفكر والفلسفة التي أشار اليها ابن خاله كعدي فرهود كعدي، ولكنها مناقشات قلما يستطيع أحد لفرط اعجابه بميخائيل ان يتبينها.

وكتب إلي عجاج نويهض حين انتشر خبر وفاة نعيمة يقول:

«لقد رأيت لنعيمة صورة في الصحف قبل نصف سنة او اكثر فقرأت في تلك الصورة امارات قرب الرحيل من انكماش وضمور في سحنته على الجملة، رحمه الله فهو الحلقة

مكتبة الجوادين العامة
مؤسسة السيد هبة الدين الحسيني
الشهرستاني
تأسست سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م
الكاظمية - العراق

الأخيرة او الحبة الأخيرة من مسبحة (الرابطة القلمية) التي تعد نهضتها جانباً حياً من الأدب المهجري وهو بالروح ـ باعتقادي ـ صدى الروح في الوطن الام، وهذا ما سيبحثه الكثيرون من أهل الدراية، وأنا ما عرفت نعيمة عن كثب الا سنة ١٩٤٣ لما كنت اتولى الاذاعة العربية في دار الاذاعة الفلسطينية لأربع سنوات، وقد كان من رأيي ان اعتبر اذاعة فلسطين ملكاً للأمة العربية لذلك كنت ادعو في مواسم رمضان خاصة الاعلام من سورية ولبنان ومصر فضلاً عن فلسطين.

ففي سنة ١٩٤٣ جئت سورية ولبنان من القدس لأدعو نفراً من أعلام العرب الذين أنا اختارهم، وأرجحهم، ولا دخل لحكومة فلسطين بذلك البتة، لأن حرية العمل الاذاعي كان من شروطي الواضحة لقبول الاشراف على الاذاعة العربية، ـ وسأخبرك في مناسبة أخرى عن الكبوة التي كباها الأستاذ محمد كرد علي لما دعوته مرتين ـ ولما جئت بيروت دعوت الاستاذ الغلاييني، والاخطل الصغير (بشارة الخوري) وفؤاد الخطيب، وانتهى كل شيء معهم، وما رأيت من كل واحد منهم لما دعوته الا حسن الارتياح والشكر والتلبية، ولكن اقترح علي حينذاك ان يدعى نعيمة ـ وكان وقتها في بيته ببسكنتا ـ فوافقت على هذا وصعدت الجبل أنا وصديقي الاستاذ خليل تقي الدين لكي أرى نعيمة، فلما وصلت إلى غابة بولونيا خابرته بالتلفون اذ ان الوصول إلى بسكنتا حينذاك كان امراً شاقاً ورجوت منه بعد اعلامه بالغرض من مجيئي ان يتفضل إذا امكن إلى أوتيل قاصوفا، في ضهور الشوير لنجتمع معاً، وقد ضربنا لهذا الاجتماع موعداً آنياً»، وطلبت من الاستاذ تقي الدين ان يسمح لي بأن أرى نعيمة في الفندق على حدة متى حضر، لأن هذا أفضل من محادثته في مجلس يحضره اناس، ولما جاء نعيمة عرضت عليه الدعوة بالمجيء إلى القدس، وسيكون هناك ضيفاً على الاذاعة مكفياً نفقات الانتقال ذهابا وايابا والاقامة لمدة اسبوع، فشكر ووافق مبدئيا ولكنه أخذ يسأل، وأول ما سأل عنه كان مقدار المكافأة؟! فقلت له: سأدفع لك مثل ما سأدفعه للغلاييني، الاخطل الصغير، وفؤاد الخطيب، فقال: كم؟ فأضطررت أن اذكر له المبلغ، وكنت أدفع عادة للضيوف المدعوين من خارج فلسطين ما لا تدفعه اذاعة أخرى في الشرق العربي، وهو مئة دينار مع أن التوسع بمعرفة مقدار المكافأة بأرقامها بعد اعلامي له: انه هو ومن ذكرت من الاعلام سواء في المعاملة المادية (أي المكافأة) تخفض من شأن الدعوة، وتقلل من كرامتها، وتجعلها ذات صفة تجارية فارتاح نعيمة إلى مقدار المكافأة، ثم سألني: والانتقال؟ فقلت له: انكم الآن جميعا أربعة ضيوف تنتقلون من بيروت أحسن انتقال في سيارة فارهة ومن الطراز الأول، وتنزلون في فندق الملك داود، وهو أفضل فندق في الشرق الاوسط، ثم قال، اما أنا، فلا أذهب مع أحد، وأنما أذهب وحدي، وأرجع وحدي في سيارة لا شريك لي فيها.

فلما قال لي هذا، فكأني اصبحت وأنا على ظهور الشوير داخل الفندق، وفي الساحة الواسعة من بهوه (بدوش بارد) ولاحظت أنه كان يشدد معاني كلامه المتعلق بسيارة له وحده، فقلت له: أنا شخصياً - وقد اجتمعت لأول مرة - لا استكثر عليك أي طلب بشأن انتقالك الى القدس، ولكن لي بعض الملاحظات على السيارة.

فأولاً، لا يليق بي وأنا الداعي أن اميز في المعاملة فرداً عن آخر في الضيافة، فإن فلاناً، وفلاناً، وفلاناً وهم كما تعلم من اعلام قومنا، ولم يطلب أحد منهم ان ينتقل في سيارة وحده.

وثانياً، فاني لا استطيع أن أبين لهم أني أفردتك عنهم بسيارة وحدك دونهم، وهم حين يعلمون بهذا - لو اني وافقت عليه - لطلب كل واحد اما سيارة تقله وحده والا رفضوا الدعوة بعد قبولهم لها واستعدادهم لأن تكونوا انتم الأربعة في سيارة واحدة، وحينذاك تفسد الدعوة.

وكلي رجاء - يقول نويهض - ان تعيد النظر في مسألة السيارة وانا سعيد ان تحظى الاذاعة العربية في بيت المقدس. وفلسطين التي يريدها قوم ان تكون وطناً قومياً لليهود - بثلة من رؤوس العرب، وانت واحد منهم وفي نهاية الاسبوع سأقيم لكم حفلة تكريم لائقة يدعى اليها اعيان عرب فلسطين لا القدس وحدها، فكان جوابه: ان المحافظة على كرامته تدعوه إلى ان يطلب ما يطلب، ولما وجدت منه كل هذا، ختمت الحديث معه بقبولي: اني اسف كل الأسف ان اسحب عرضي هذه الدعوة لك، واني أرجو ان اراك في القدس في مناسبة أخرى، واستأذنته وانصرفت وركبت السيارة مع صديقي تقي الدين وهبطنا بيروت، وجاء الغلاييني والاخطل الصغير، وفؤاد الخطيب فاحسنوا المقال والفعال، ونزلوا ضيوفاً مكرمين وشيعوا سادة واخواناً بررة اعتزت فلسطين ولا سيما يوم حفلة التكريم.

وبعد بضعة اشهر وكنت قد استقلت من الاذاعة جاء نعيمة محاضراً في جمعية الشبان المسيحيين في القدس، وكأنه أحد سياح شركة كوك، والتقينا في بغداد بمهرجان بغداد والكندي واهديت له كتابي (أبو جعفر المنصور وعروبة لبنان) فجاءني في صباح اليوم التالي، وشكرني على الكتاب الذي سره كثيراً كما قال ثم قال لي اريد ان اخبرك لا من قبيل اني قرأت كتابك بل من قبيل الحقيقة هو اننا نحن عرب ومن حمص، وعشيرتنا الى اليوم في البادية وتدعى (بالنعيمات)[1].

---

(١) ذكر لي نعيمة يرحمه الله سنة ١٩٦٥ يوم دعته لجنة أمناء المكتبة الوطنية - مكتبة أمانة العاصمة (عمان) لإلقاء محاضرة، فلبى الدعوة وألقى محاضرته في قاعة أمانة العاصمة وعنوانها القرية الكبرى ذكر لي أن أسرته من قرية (النعيمة) الأردنية التي نسبت إلى النعيمات (العزيزي).

وتشاء المصادفة ان يبتعد المحامي كعدي فرهود كعدي وهو ابن خال نعيمة وأحد المعجبين بنعيمة، والذي لازم نعيمة منذ ان عاد من المهجر ملازمة الظل، وبشر بادب نعيمة، ونبوغه، وكان لتبشيره بذلك كثير من الاثر في الاوساط، ذلك لأن (نعيمة) كان أهلا لكل ما يقال عن ادبه ولولا ذلك لما ترجمت اثاره إلى غير لغة من اللغات الحية، ولما اتخذ موضوع اطروحات ودراسات ثم لأن المحامي كعدي فرهود كعدي فضلا عن كونه من فضلاء الحقوقيين وكبار المحامين من رجالات الأدب المتضلعين من تاريخ الادب، والمعروفين بالبراعة في الكتابة، وكان قد رأى هذه المتناقصات في آراء نعيمة وافكاره وفلسفته ولعله اول من فطن إلى ذلك فالف بهذه المتناقضات كتاباً باسم (ميخائيل نعيمة بين قارئيه وعارفيه) وهو كتاب لا تشوبه اية شائبة تخرج به على حدود الانصاف اذ يعترف فيه الكاتب المؤلف (كعدي) بعبقرية نعيمة، وكل ما فيه انه ينفي عنه صفة الفيلسوف وكان لنعيمة كتاب نقد باسم (الغربال) يحكي جانبا آخر من جوانب ادب نعيمة الذي يغربل في (غرباله) الافكار، وينقد الآراء، وكأن كعدي فرهود كعدي ما أصدر كتابه (ميخائيل نعيمة بين قارئيه وعارفيه) الا ليقول للقراء (من غربل الناس نخلوه) فاستقبل القراء كتاب كعدي باعجاب منقطع النظير، واقاموا له حفلة تكريم واطالت الصحف القول فيه، ونفد الكتاب في مدة وجيزة، وقد قرأت انا الكتاب بعد زمن من صدوره، وامنت بما جاء فيه، وكتبت عليه مقالاً في مجلة (العرفان) ايدت فيه هذه الآراء التي جاء بها كعدي ولكنني ندمت بعد ذلك لا لانني قلت شيئا خلاف الحق، وخلاف ما امنت به، ولكن لأن نعيمة ـ كما بلغني ـ كان قد حقد على ابن خاله على ما قيل حتى امتنع من الحضور في حفلة دعي اليها حين علم بان كعدي كعدي من المدعوين فيها ايضاً!! وهنا بان لي من نعيمة ما كان قد قيل بانه لا يتحمل النقد، ولا يطيق لناقد غفرانه.

اما الكلمة التي كتبتها على كتاب المحامي (كعدي فرهود كعدي) فها هي ذى انقلها من مجلة (العرفان):

ميخائيل نعيمة بين قارئيه وعارفيه

تأليف المحامي كعدي فرهود كعدي

هذا كتاب حالت بيني وبين قراءته وقت صدوره ظروف ليس هذا محل ذكرها فلم اقرأه الا اليوم، وهو كتاب يخص ميخائيل نعيمة، وميخائيل نعيمة نابغة من نوابغ القرن العشرين، له اسلوبه الخاص، وعقليته الموزونة، وخياله الواسع، وكل ما يصعد بالنوابغ الى القمة من المؤهلات، وقد عرفته قراءة حتى لبإمكاني القول انه لم يفتني شيء مما كتب او كتب عليه الا القليل القليل، ثم اتيح لي ان انعم بلقياه مرات فازددت به اعجابا لذلك ليس من الغريب ان اتتبع كل ما يحوم حوله، ويكتب عليه، ويرد فيه ذكره، لأن ما يكتبه نعيمة

صادر من القلب، وما يصدر من القلب داخل في القلب بلا استئذان.

وعلى انني اعلم ان في كل نفس زوايا، وفي كل زاوية خبايا يستخلص منها المتعمق الحقيقة حقيقة النفس ان هو تلمس آثارها، وامعن في افكارها واعمالها، فإنني لم اكلف نفسي مثل هذا التأمل في نفس نعيمة الا قليلا، ومن هذا القليل كتاب وجهته اليه يوم صدور كتابه (جبران خليل جبران) قلت له فيه بتواضع انني شاعر بأنه يتعالى في هذا الكتاب على جبران حتى لكأنه يريد ان يقول ان مقامه في الصف كان قبل جبران، فكتب إلي ينكر ذلك، ولم يهمني شيء بقدر ما كان يهمني ادب نعيمة الذي جعل منه صاحب رسالة في صوغ الفكرة، وابتكارها، وما يسبغ عليها من حلاوة اختص بها العباقرة من الادباء، ولعلي كنت من الضعف بحيث اسدل الاعجاب على عيني غشاوة لم يدعني ان ارى شيئا من نعيمة غير هذا الادب المشرق الساحر الخلاب.

واليوم يقع بيدي كتاب (ميخائيل نعيمة بين قارئيه وعارفيه) لمؤلف اوتي حظاً كبيراً في سوح المحاكم محامياً وملكة جد واسعة في ميدان الادب كاتباً، لا تقرأ من كتابه بضع صفحات حتى تدرك انك امام رجل لم يستطع الاعجاب، وهو من المعجبين بنعيمة أديباً منقطع النظير ان يلقي علي عينيه حجابا عن رؤية الحقائق فيما يستعرض من آثار نعيمة القلمية، كما فعل هذا الاعجاب ويفعل مع الآخرين، ولم تستطع القرابة والمحبة - فهو ابن عمة نعيمة - ان تصرفه عن ذكر ما يراه حقا، شأن المحامي الذي يعرف قدسية المحاماة وقيمتها - وشأن الاديب الذي يعرف قدر النقد، وحق الناقد والمنقود فلا يتجاوز هذا الحق، ولا يخرج عن حدوده، وقد صح فيه ما ذكر حبيب مسعود نقلا عن الناقد الفرنسي: (سانت بوف) قوله: «على الناقد ان يكون محامياً وحكماً معاً».

وكعدي هذا هو المحامي والحكم والاديب الناقد الذي نبحث عنه بين نقادنا اليوم فلا نعثر على امثاله الا القليل، فهو لم ينقد اثار نعيمة واقواله، وانما وضع دروسا للنقد لا ينبغي ان يتجاهل قواعدها الناقدون.

وانا ممن يعتقدون ان الاثر الادبي متى ظهر الى الوجود اصبح من حق القراء ان يقولوا فيه ما يشاؤون، ومن حق صاحبه ان يصحح تلك الاقوال إذا وجدها قد جانبت الصواب ان شاء ان يصحح، ولا سيما ان نعيمة نفسه قد سلم هذه القاعدة حين قال:

«إذا لم يكن للناقد من فضل سوى فضل رد الامور إلى مصادرها وتسميتها باسمائها لكفاه ذلك ثواباً».

كذلك كان من اقوال نعيمة قوله «حرية التعبير اقدس من اي تقليد واي عقيدة».

والتزاماً بمثل هذه المبادىء فتح المحامي كعدي كتابه بعد مقدمات عن مولد نعيمة ونشأته، وثقافته الواسعة موجزاً فيها ما جاء في كتابه (السبعون) وكتابه (الغربال) وموردا اقوال نعيمة عن مكانة الغربال في عالم النقد واعتباره سنة تفرضها الطبيعة، ثم يورد المؤلف النقيض لهذا القول والنهي عن الغربلة فيما قال نعيمة نفسه، ويجعل القارىء في حيرة كبيرة امام هذا التناقض الوارد بالنص من الاقوال.

ثم يتناول المؤلف العقل والخيال عند نعيمة، ويورد من كتب نعيمة ما يدعو الى نبذ العقل والاستغناء عنه بالخيال، ثم اذابه في مصادر اخرى ولا سيما في (السبعون) يؤله العقل ويمسخ الخيال!!.

وفي فصل آخر يتحدث المؤلف عن المدنية الغربية والمدنية الشرقية عند ميخائيل نعيمة، وكما يفعل في الفصلين المتقدمين يورد الناقد اقوال نعيمة في مدنية الغرب وسموها ووجوب اعتراف الشرق بها، ويشجب كل ما يخص الشرق من التراث والافضال، بينما هو لا يرى قيمة للشرق يرى في مكان آخر ان الشرق في غنى عن اقتباس حرف واحد من المدنية الغربية!!.

والحديث عن تنسك نعيمة وزهده وتصوفه كثير، ولم يكن توفيق عواد وحده ولا ثريا ملحس وحدها هما اللذان اطلقا عليه صفة ناسك الشخروب، والاديب الصوفي، وانما شهرة تنسكه وزهده قد تجاوزت الحدود، ولذلك خص الناقد هذه الشهرة بفصل خاص، وناقش زهد نعيمة فيما عرض من اقواله وحياته من تناقض يبعده عن صفوف الزهاد المتنسكين.

ومثل هذا يسوق الناقد فصلا عن كفر نعيمة بالنمو والتقدم مستشهدا باقوال نعيمة التي جمعها الناقد من مؤلفاته ثم يجيء بعد ذلك باقوال نعيمة التي يعترف فيها بهذا النمو كقوله (الانسان طفل الهي ينمو كما ينمو الطفل، مدفوعا بقوة النمو الكائنة فيه) وكقوله (انما الانسان بذار الهي باق ببقاء الله، ينمو شأن كل بذار).

وهكذا يفعل في الفصل الثامن من كتابه ويناقش نعيمة في اقواله فيما يخص الزواج والتبتل والثنائية والاحدية والتقلب في اقواله المتناقضة.

وفي الفصل التاسع من كتابه ينقل الناقد متناقضات من اقوال نعيمة في الشكوى كان يشجب نعيمة كل شكوى للافراد والجماعة مما يعانون من الاذى والمظالم في الحياة ويدعو الى الصبر والتحمل في حين يحث على الشكوى ويحض على الجهر بها في مواقع اخرى!!.

وفي الفصل العاشر يفعل الناقد كما فعل في الفصول المتقدمة في ما يتعلق بوجود الله وذاته، وما يخص القضاء والقدر والجبر والتفويض، وبعد مقدمة طويلة عن مفهوم (الله) والعقيدة عند مختلف الشعوب القديمة يسوق الناقد آراء نعيمة التي يستخلصها من كتبه بكل ما فيها من نفي واثبات وتناقض ليس الى تعليله اورده من سبيل.

ونشر الريحاني كلمة نقد مغلفة بما يشبه العتاب يوجهها الى ميخائيل نعيمة بكلمة لا تخلو من قسوة وتأنيب، فيتخذ الناقد من هذا الرد موضوعاً لمحاسبة نعيمة على قساوته، كأنه لم يكن ذلك القائل: (تعلم يا بني رحابة الصدر من الارض ومن البحر) ويثبت لنعيمة كثيراً من مثل هذه العظات والحكم التي يقولها نعيمة ولا يعمل بها.

وهكذا يوازن الناقد بين ما قاله نعيمة عن جبران في حياته وبين ما قاله بعد مماته، وما أخذ نعيمة على جبران مما جاء نعيمة بمثله واكثر منه على ما روى الناقد في هذا الفصل.

وينهي الناقد كتابه بالفصل الثالث عشر فيتحدث عن ميخائيل بين الفلسفة والادب والانعتاق، ويورد المؤلف بحثاً عن الفلسفة والفلاسفة عند المتقدمين من اول ظهور علم الفلسفة حتى هذا اليوم، وهو بحث وان كان من المفيد الاطلاع عليه ولا سيما وهو خلاصة لكل آراء الفلاسفة في الكون، وفي الله وفي نواميس الطبيعة ولكن الناقد كان في غنى عن ايراد مثل هذه التفصيلات في هذا المكان وبشمل هذه الأحاطة ويكفي لو ان الناقد قد انتقل بعد مقدمة وجيزة الى ما كان يريد ان ينفي عن نعيمة صفة الفيلسوف دون الحاجة الى هذا الاسهاب، وقد لاح لي في هذا العرض قول الناقد في الصفحة ال ١٩٥ (ان الشيعة ذهبوا الى ان لله قداً، وصورة، وجسماً واعضاء!!) في حين ان ليس هنالك شيء من هذا ولا شبيهه عند الشيعة، وهذا الامام علي (ع) وهو امام الشيعة يحدد عقيدة الشيعة في الله، وعدم تجسيده في قوله: «فمن وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن اشار اليه فقد حده» وفي القضاء والقدر رأت الشيعة قبل ان ترى المعتزلة ان لا جبر ولا تفويض، بل هو امر بينهما فنسبت الشيعة الخير لله، والشر لنفس الانسان المعبر عنه بالشيطان وتمسكت الشيعة بالآية الكريمة (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره).

وقد بلغني ان صدر استاذنا نعيمة - وهذا ما تواتر نقله - قد ضاق بهذا الكتاب وغضب على مؤلفه!! فإن صح ذلك فلست ادري كيف نسي نعيمة قوله:

(اما اليوم فقد اصبحت وعندي مناعة ضد اي نقد مهما بالغ في التحقير والتجريح، وضد اي مديح مهما اغرق في الاطناب والتعظيم) ثم قوله (وفيم يضيق صدره - يعني صدر

الانسان - بما يقوله - ويكتبه الغير).

انني أربأ بالأديب النابغة ميخائيل ان يكون اقل شأنا من جاكلين زوجة اوناسيس التي حين بلغها خبر اعتزام الناقد العنيف (بايرغيت) على ان يؤلف عنها كتابا وهي تعلم معنى تأليف هذا الكتاب عند هذا الناقد، تبسمت وقالت: (ارجو ان لا يتحفظ فيما يكتبه عني، وان لا تحول الشفقة دون ما يريد ان يكتب).

هذا وكتاب الاستاذ كعدي لم ينل من نعيمة، ولم يخدش شيئا من كرامته، ولم يتجاهل منزلته اديباً فذاً فكثيراً ما نوه الناقد بمزاياه وعظمته في ثنايا كتابه، وعندي ان كتاب كعدي فرهود كعدي، يجب ان تقوم بطبعه المؤسسات الثقافية وتجعله من كتب المطالعة في الكليات والجامعات، والمعاهد، ليتعلم منه الأدباء قواعد النقد وادبه، فهو كتاب يكاد ينفرد في عالم النقد من حيث وضع الشيء في موضعه، ومن حيث التزامه بكل الفروض المطلوبة من الاديب الاصيل والناقد المنصف.

ولا غرابة في ذلك ما دام مؤلفه محامياً يعرف كيف يستنبط الحوادث ويستخرج الادلة ولا يتجاوز حدوده بالتفريط، واديبا يعرف قيمة الكلمة ووزنها في عالم الادب فلا غرو إذا اثار اعجاب القراء..

ودعاني ذات يوم المحامي كعدي فرهود كعدي الى بسكنتا لاقضي عندهم ليلة واحدة على الاقل، وان بيت المحامي كعدي قريب جدا من بيت نعيمة، وانا بالنظر لما كنت اسمع عن ضيق صدر (نعيمة) بابن خاله (كعدي) تحيرت في امري وخشيت ان يعرف نعيمة انني كنت ببسكنتا وكنت في جواره، وفي بيت خصمه!! فماذا الذي سيكون من امري معه وانا احبه؟ ولكن الذي يعرف (كعدي) ويعرف طيبه، وسخاء نفسه، وادبه وظرفه لا يمكن ان لا يستجيب لدعوته، فاستجبت وصممت على عدم الاتصال باي احد ممن عرفت من سكان بسكنتا، وعلى الاخص (سليمان كتاني) وقضيت ليلة زاهرة وقد صادف وجود جورج كعدي الذي كان قد جاء من اميركا الجنوبية هناك وعزمت على ان اصارح نعيمة بالواقع، وبما كان يجول في خاطري ان جمعتنا يوما المجالس، وجرنا الحديث الى تلك الليلة غير المنسية ذكراها، ولكن ذلك لم يصادف ولم يقع المحظور حتى هذا اليوم..

قيل ان نعيمة كان ممسكا، او قل انه لم يكن سخيا حتى في قلمه، واني اعرف ان سليمان كتاني وهو من ادباء بسكنتا اللامعين حين ازمع ان يدخل المسابقة التي وضع الخطيب السيد جواد شبر شروطها والجائزة التي ستمنح لاحسن كاتب يكتب كتاباً محدود الصفحات عن الامام علي (ع) كتب (سلميان كتاني) كتابه المعروف باسم (الامام علي نبراس ومتراس) ولما كان من محبي نعيمة والمعجبين به، والمؤمنين بأدبه عرض

مسودة هذا الكتاب على ميخائيل نعيمة ليرى رأيه فيه فاثنى نعيمة عليه وايد دخوله المسابقة وحين طالب (الكتاني) من نعيمة وضع مقدمة له بقلمه ما دام قد أرضاه الكتاب امتنع (نعيمة) من ذلك، وفسر البعض امتناعه هذا ببخله في احتمال ان يفوز سليمان كتاني ويفيد من مقدمته التي ستكون بدون شك ـ ضرباً من ضروب التزكية، فتساعد على فوزه ودخل (كتاني) المسابقة وربح الجائزة الأولى وهي (٤٠٠) دينار عراقي، وجاء (سليمان) يطلب مني ان اكتب لكتابه المقدمة فكتبتها، وقد طبع الكتاب عدة طبعات ونفد، وشكر الله سليمان كتاني ان ينجح كتابه هذا دون ذكر اسم لنعيمة، والا لنسب (نعيمة) الفضل في نجاحه لمقدمته على ما كان يقول (كتاني).

وكرم نعيمة على عهد الياس سركيس رئيس الجمهورية اللبنانية للمرة الثانية وخصص مبلغ محترم لمقتضيات هذا التكريم، وكان تكريما لائقا بنابغة كميخائيل نعيمة وحين جاء المصور ليصور لنعيمة ولرئيس الجمهورية صورة تذكارية أبـــى الياس سركيس الا ان يجلس نعيمة على الكرسي ويقف هو الى جنبه مبالغة منه في تكريمه، وقال الذين يتصدون لهفوات نعيمة ان مبلغا من النفقات التي كانت قد خصصتها الجمهورية اللبنانية لتكريم نعيمة، قد فضل من شيء قدره البعض بثلاثين الف ليرة لبنانية وقدرها الآخرون بأكثر من ذلك، وقالوا ان نعيمة جاء يطالب بهذه الفضلة باعتبارها خاصة به، ومقررة لتكريمه، وقالوا حين بلغ هذا مسامع رئيس الجمهورية الاستاذ الياس قال: كم انا اسف لأني تركت الكرسي لنعيمة ليجلس عليه ووقفت انا الى جانبه، وانا اروي هذه الرواية على ما كان يتناقله الناس وليس عن تحقيق قمت به بنفسي فقد كنت حينذاك في العراق ولم اكن من المدعوين في حفلة التكريم ببيروت.

وقد انبرى الشاعر القروي لتفنيد الأسباب التي دعت إلى تكريم نعيمة بحجة ان نعيمة كان مقصراً نحو بلاده ولم تتضمن اثاره اي موقف من المواقف الوطنية وذكر العروبة، حتى في المواقف الصعبة، والمحن التي قاستها البلدان العربية، وتبعه على ذلك البعض، وخالفه الآخرون، وكتبت انا لجريدة النهار مؤيدا التكريم، ولائما الحكومة اللبنانية لأنها قد توانت في تكريم نعيمة فقد كان الواجب ان تقوم بتكريمه قبل هذا بزمن بعيد، ثم قلت اني اخشى ان يظن البعض ان اعتراض (الشاعر القروي) قد جاء بداعي الحسد، في حين ان الشاعر القروي نفسه كان يجب ان يكرم ايضا.

ولا اعتقد ان للتكريم دخلا في الوطنية في كل مكان فنحن حين نكرم العالم الجيولوجي والفيزيائي، والكيميائي، وحين تمنح جائزة نوبل فإنما يجري ذلك تقديراً للنبوغ، والفن، والتبحر في العلوم، اما التكريم لأجل الوطنية، والجهاد فله ميدان آخر، ومع ذلك فإن آثار نعيمة لم تخل من الحرقة والحماسة الوطنية وان كان مقلا فيه، وهذه

قصيدته التي يستنهض بها العرب ويثير فيهم الحماسة غير خفية على قارئه، إذ يقول يؤسفني انني لا اضبط نص هذا المقطع منها كاملاً ولكنه كاف لتصوير غيرة نعمة على قومه اذ يقول:

اخي من نحن لا وطن ولا دار ولا جار؟
إذا قمنا، إذا نمنا، ردانا الخزي والعار
فهات الرفش واتبعني لنحفر خندقا آخر
نواري فيه احيانا

وكان قد وارى امواتنا في مقاطع اخرى من هذه القصيدة التي كنت احفظها ونسيتها.

*****

ومن الانصاف ان نذكر ان لنعيمة الى جانب ما يتهم به من الحرص والبخل جانب لا يمكن ان يفسر بغير السخاء، فقد كان هناك شاب اسمه (سعيد علي) ضاقت به الدنيا على رحبها، وكان ممن شغف بقراءة ميخائيل نعيمة، وكان قد رسب في امتحان الصف النهائي من الثانوية في العراق، واخفق ان يجد له عملا ببغداد، فصمم على السفر الى لبنان لعله يفيد ممن سبق له التعرف بهم من طريق مكاتباته وجاء يطلب مني كتاب توصية الى نعيمة فبخلت عليه لسماعي ببخل (نعيمة) حقاً كان ذلك ام باطلا، وزودته برسالة إلى الشاعر احمد الصافي النجفي، واكتفى برسالة توصية من ناجي جواد إلى ميخائيل نعيمة، وكان ناجي جواد قد صحبني في بيروت ذات مرة الى بسكنتا ليتعرف بميخائيل نيممة وتم التعرف به وصارت له بعد ذلك دالة عليه، واعان ناجي جواد (سعيد علي) بأن قطع له بطاقة سفر وزوده بقدر من النقود وسافر سعيد وليس عليه الا بذلة صيفية لا يملك غيرها، والفصل كان فصل شتاء وقد وصل إلى (بسكنتا) وإذا يفاجأ بالبرد الذي لا عهد له به فتلقاه ميخائيل نعيمة بالترحاب، والبسه بذلة من بذلاته الشتوية، ومعطفا من معاطفه الصوفية، وبما كان يلزمه من الثياب، ثم تلفن (للبنسيون) الوحيد ببسكنتا بأن ينزلوه عندهم ويقدموا له الأكل والشرب على حسابه (اي على حساب ميخائيل) ووعده بأن يحمل احدى المدارس التي تعود للرهبان بان تستخدمه معلما للأطفال والى ان يتم انجاز وعده فقد عاد (سعيد علي) إلى بيروت ليقدم ما يحمل من رسائل الوساطة الى الجهات الأخرى التي استخدمته في الحال، ثم دعاه بعد ذلك (نعيمة) الى بسكنتا، وكان قد تم تعيينه بعقد سنوي، واطلق نعيمة لسعيد علي الحرية في بيته ليعمل ما يشاء وما لبث نعيمة ان رأى بعض مقالاته ورسائله تنشر في المجلات فسأل عنها (سعيد علي) فاعترف بأنه هو

الذي كان ينقلها من مجاميع اثاره ويبعث بها للصحف، واتهمه ميخائيل ببيعها على تلك الصحف، وحاسبه عن حديث سجله له سعيد علي لمحطة اذاعة بغداد وطالبه بثمنه لأن سعيد علي هو الذي طلب الحديث منه لاذاعة بغداد، وظل ينتظر ميخائيل الثمن بدون طائل وقد كتب لي (سعيد علي) من بسكنتا يطلب مني السعي لتحصيل ثمن الحديث، وكان مدير الاذاعة يومذاك مدحت الحادر، فانكر مدحت ان يكون هنالك اتفاق سابق بين الاذاعة وبين نعيمة وكل ما علم ان هذا الحديث المذاع كان كعشرات الأحاديث التي تؤخذ من كبار رجال الادب دون ان يتقاضوا عليها اجورا، ومع ذلك فقد اتفقنا انا واياه على مكافأة رمزية حولت باسم ميخائيل نعيمة على ما قيل لي.

اقول ان البر والمعروف الذي لقيه (سعيد علي) من ميخائيل نعيمة لا يمكن ان يكون غير ضرب من ضروب السخاء، وقد قربه ميخائيل اليه حتى غدا واحداً من اعضاء البيت يأكل ويشرب عندهم ويلبس منهم، ويسمر معهم، وكان سعيد يكتب لي كثيراً ويحدثني بما كان يجري وما يتلقى نعيمة من الكتب والرسائل وقد كتب إلي عن اول ملتقاه بنعيمة يقول وبعد ان تناولنا الفطور قال لي نعيمة:

«في الفور: اين هو... جعفر الخليلي؟ وكيف حاله؟ فقلت انه في بغداد وحاله ما تسر لها»:

قال «انه كاتب لطيف، حلو التعبير، جميل المزاوجة، وقد قرأت القسم الاعظم من النفحات الفارسية - يريد بها مجموعتي المسماة بنفحات من خمائل الأدب الفارسي - فراقني كثيراً، فقل له اني اجهل الفارسية وليس لي وسعي ان اكتب عنه، ولكنني التذذت برقة لغته التي نقل بها شعراً فارسياً إلى شعر عربي، واذكر ان جعفر الخليلي كتب لي رأيه في (سبعون)، فاعجبني نقده لأنه دقيق جداً».

وكثيراً ما وصل إلي من نعيمة ثناء مثل هذا مما لا استحقه حتى لقد قال عني ان جعفر الخليلي يستحق ان يكتب كتاب خاص عنه، وقد نشرت ذلك القول بعض الصحف وحين صدر لي كتاب القصة العراقية كتب لي ما يلي:

«بسكنتا شباط ١٩٦٣

«عزيزي... جعفر الخليلي

احييك، واشكر لك تلطفك بتقديم نسخة إلي من مؤلفك الجديد: (القصة العراقية قديماً وحديثاً). ولقد أحسنت اذ مهدت لدراسة القصة في العراق بدراسة وافية عن القصة العربية في ابعد جذورها، حتى جاء كتابك مرجعاً للباحثين في القصة العربية اجمالا، والعراقية بالأخص، وهل من ينكر فضل العراق في دفع القصة العربية الحديثة إلى الامام.

الا ان القصة العراقية بقيت زمانا محصورة ضمن حدود العراق فكان من الضرورة بمكان ان ينبري لها كاتب مثلك فيحمل حكايتها إلى العالم العربي الاوسع ويسهل على الباحثين الوصول إلى منابعها، وهكذا جاء مؤلفك خدمة جليلة للقصة العراقية، وللمكتبة العربية، زادك الله نشاطاً.

ميخائيل نعيمة

حاشية:
«اسفت لعدم تمكننا من الاجتماع في بغداد ايام مهرجانات الكندي ودار السلام».

*****

حتى الآن وانا اشعر بالندم على نشري المقالة التي قرظت بها كتاب (ميخائيل نعيمة بين قارئيه وعارفيه) ولو كانت مجلة (العرفان) تحت يدي لنشرتها هنا تبريراً لرأيي الذي ايدت به المحامي كعدي فرهود كعدي فيما ذهب إليه على اني لم أنس مقام ميخائيل نعيمة في عالم الادب وانفراده بهذا النوع من الفن الذي استحق به الترشيح لجائزة نوبل سنتين متواليتين، كما لم ينس المؤلف كعدي مكانة هذا النابغة وكنت اعرف مما كنت اسمع ان ميخائيل ضيق الصدر لا يطيق ان يسمع نقداً، ولكني لم اعلم بأن ضيق صدره يصل به إلى الدرك الذي يكهربه، ويكويه، ويعلم الله عز علي ذلك، فقد كنت انقده من قبل وانا في غاية الاحتياط ولئلا افسد هذه المحبة كنت أصب نقدي في قالب من الاسئلة، كما كنت اريد الاستفهام وذلك تحاشيا عن غضبه او عدم رضاه، على ما نبهني غير واحد إلى طبيعته، حقاً كان ذلك ام باطلاً.

لقد كان ذلك في صيف ١٩٧٥، وخشيت ان ازوره وكنت قد نشرت هذا المقال في العرفان) قبل ايام قليلة، وتركت الأمر الى ايام يخفف مرورها شيئاً من غضبه مني إذا جاز ان يكون غاضباً، ولكن هذه الفتنة الكبرى التي احرقت الحرث والنسل والتي حلت بلبنان قد حالت بيني وبين قضاء الصيف من سنة ١٩٧٦ بلبنان فقضيت صيفي بمصر، منتظراً الصيف المقبل لكي ازوره كالعادة وما كأني عملت شيئاً، ولم ادر ان القدر قد خبأ لي مفاجأة محزنة، وحازة في النفس لن انسى الامها حتى الموت.

لقد بكيته وظل ضميري يخزني لأني لم اوفق إلى استرضائه إذا كان قد فارق الدينا ولم يرض عني، واحسب ان حال ابن خاله المحامي كعدي فرهود كعدي سيكون كحالي، مع ان كلينا لم يقل ما يخرج على حدود الواقع الذي نؤمن به، ويقتضيه العرف الادبي.

مات ميخائيل مات بعد ان ترك ثروة جد ثمينة في عالم الفن والادب، وليت ورثته يتنازلون عما تدر مطبوعات كتبه إلى مدينته بسكنتا اسوة بما خلف جبران لمدينته (بشرى) فيكون وهو حي قد غذى بلده والبلدان العربية بافكاره، وسمو ادبه وفنه وغذى بلده بعد مماته بمحصول كتبه وما يمكن ان يدر بيعها الذي سيظل جاريا وغير منقطع على ما اعتقد.

كيف عرفت
وديع رشيد الخوري
١٨٩٨ ـ ١٩٧٧

عرفت وديعاً عن طريق جورج صيدح، والدكتور سليمان داود، اللذين تربطهما بوديع رابطة مودة قديمة راسخة، وقد تلقيت أول رسالة منه في ٨ تموز ١٩٧٠ من (بنغهمتن) بالولايات المتحدة يفتتحها بقوله: «إني أشكر صديقي وصديقيك الشاعرين اللامعين جورج صيدح والدكتور سليمان داود إذ أتاحا لي هذه الفرصة السعيدة للتعرف إليك... الخ»، وكنت تلقيت من (الدكتور سليمان) تعريفاً به شاعراً بارعاً وكاتباً مبدعاً وصديقاً وفياً، ويضيف الدكتور سليمان إلى ذلك... ويقول:

«ولقد سألته أن يبادئك بالمراسلة وهو فاعل إن شاء الله».

وقد شاء الله أن يفعل وفعل، وكان أن نعمت بصداقته، وتمتعت بأدبه وأخلاقه السامية التي قل وجودها بين المهاجرين العرب في أميركا اليوم والتي ربما أشرت إليها فيما بعد.

ووديع من عائلة الخوري في (الشويفات) والانتساب للخورية كثير الانتشار في لبنان، ولكن ما كل من ينتسب للخورية قريب أو نسيب بعضه لبعض فالشيخ بشارة الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية، وبشارة الخوري (الأخطل الصغير) ورشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) وفارس الخوري المحنك السوري وغيرهم الكثير لا يمت بعضهم إلى بعض بقرابة أو نسب وعلى هذه الشاكلة تكون جميع الأسر الخورية بسورية ولبنان وغيرها.

وانتقل والد وديع وهو شاب من الشويفات اللبنانية إلى (برمانا) بلبنان التي وصفها سليم ذيب بالثريا المعلقة بين الأرض والسماء، وهناك تزوج الوالد، وولد له أربعة أولاد كان وديع أكبرهم، فقد ولد في الـ ١٥ من أيار سنة ١٨٩٨، أما والده فقد توفي في سني الحرب العظمى الأولى، وتحولت مسؤولية البيت ورعاية أهله إلى وديع وهو لم يزل يافعاً، وقد اضطرته الأحوال إلى ترك المدرسة الانجليزية الشهيرة (ببرمانا) التي درس فيها الكثير من أبناء الأقطار الشرقية ومنها العراق.

وإذا كان لم يستطع أن يكمل الدراسة في هذه المدرسة فقد استطاع أن يلم بعض الإلمام باللغة الانجليزية واللغة العربية اللتين كان يتولى تدريسهما في هذه المدرسة مدرسون متضلعون، كان لهم الفضل في تخريج عدد من التلاميذ الذين اشتهروا فيما بعد بالإطلاع الواسع على هاتين اللغتين.

وكان لوديع من الملكات الطبيعية التي كانت ستخرج منه شاعراً ممتازاً لو كان قد أتيح له أن يصقل هذه الملكات ويروضها ويبدو أنه بدأ بهذا الصقل والممارسة وهو لم يزل حدثاً، فقد قال عنه الأديب نجم الأسود: أن السيدة الشاعرة المعروفة (وردة اليازجي) اطلعت على شعره وهو في مقتبل العمر فبشرته بمستقبل باهر وكان كما توقعت له.

وساعده الإلمام باللغتين على العمل في فرع مطعم (الغوث الأميركي) موظفاً، وهو المطعم الذي كان يتولى الاهتمام بيتامى الحرب والفقراء المعوزين بلبنان، ولما كان مثل هذا العمل لا يكفي للقيام بمهمة المسؤولية التي ألقيت على عاتقه بعد وفاة أبيه فقد هاجر سنة ١٩٢٠ إلى الولايات المتحدة، وسكن (بنغهمتن) من ولاية نيويورك.

وفي هذا البلد دأب على العمل وتزوج، وأنجب، كما دأب على نظم الشعر وممارسة الكتابة ونشر قصائده ومقالاته في الصحف العربية التي كانت تصدر في الولايات المتحدة وعلى الأخص منها (السمير) جريدة الشاعر الخالد إيليا أبي ماضي ويتبين القارىء مكانة شعره ونثره من ديوانه (نداء الغاب) الذي طبع مرتين، كما يتبين أسلوب عرضه للأدباء الذين عرفهم من أشعارهم، وعرض آثارهم في كتابه (ظهور وتطور الأدب العربي في المهجر الأميركي).

وعجيب أمر هؤلاء المسيحيين من أمثال جورج صيدح، ووديع فلسطين وإلياس فرحات وجورج جرداق إذ يقبلون على التاريخ الإسلامي ويولعون بالقرآن الكريم، وبنهج البلاغة، وحتى الإحاطة، بجانب من الحديث والتفسير، بأكثر من الكثير من المسلمين الباحثين ولا أشك أن وديع رشيد الخوري قد أخذ بشيء غير قليل من أدب الإسلام والإلمام

بشيء غير قليل من أخبار الرواة عند المسلمين، فكان لذلك بعض الأثر في استقامة شعره ونثره، فحين توفيت زوجته وعزيته أنا بفقدها ورجوته بذل الجهد في التغلب على مصابه كتب إلي يقول:

«وسأبذل الجهد يا أخي لضبط النفس في هذا المصاب الأليم إقتداء بسيد الحكماء الإمام الحسين ابن فيلسوف الإسلام العظيم الإمام علي بن أبي طالب، ومع ذلك فأين نحن وضعفنا الإنساني منهم؟ ومن قوة إيمانهم التي بلغوا بها ذروة الشمائل الإنسانية الطيبة، وأعطوا مثالاً لا يجارى للعالم أجمع في قوة الإيمان بالله وضبط النفس في المصائب والمحن (كذا)».

وأكثر من هذا ما يقوله عن بيئة (النجف) مرقد الإمام علي، والأدباء الذين نشأوا في هذه المدينة وليس من شك في أن أمثال الجواهري، والصافي، والشرقي، والشبيبي من شعراء جيل النجف الأخير قد استلفتوا نظره ولربما كان قد تأثر بهم كما تأثر بغيرهم من أدباء العرب في الأقطار والأمصار الأخرى وأعجب بأدبهم ما دام هذا رأيه فيما يقول:

«ولكم وقفت مطلاً على مشارف (النجف) ومعالمها، متغلغلاً في صميم نفسية القوم هناك، دارساً أطوارهم وقيافاتهم، وطرق معيشتهم التي أوحت إليهم بالشعر والأدب في تلك البيئة الطيبة».

ولمن تسنى له أن يقرأ (نداء الغاب) الذي يضم جانباً من شعره، وجانباً من نثره الذي طبعه سنة ١٩٣٦ لأول مرة ثم طبعه طبعة مزيده ومنقحة سنة ١٩٦٩ يرى فيه أنه كان كثير الاتصال بآثار الأدباء في الأقطار العربية وأنه يقرأ الصحف السعودية والكويتية مثلما يقرأ صحف العراق ولبنان ومصر، وهذا واضح من تعليقاته ونقده، وهو شديد الاشمئزاز من هذا الشعر الموسوم بالشعر الحر وله وقفات هجوم عليه، وقد قرأ ما وجهت إلي بعض صحف الكويت من نقد ومؤاخذة على المحاضرة التي ألقيتها بدار (رابطة الأدباء) بسبب إنكاري على الشعر الحر هذا الاتجاه في القول فكتب إلي قائلاً:

«قرأت ما ثار عليك من الصخب والهياج حول المحاضرة في الشعر الموزون التي ألقيتها على أعضاء جمعية الأدباء في الكويت فهي شهادة لك بصحة ما تقول، لأن الجيل الجديد اليوم لا يتذوق الشعر الجيد، ولا يستسيغ موسيقى الأوزان، فقد دفعته الجامعات والكليات بدفعة الماجستير والدكتوراه، وما إليها من الألقاب الأدبية الفخمة (هذا إذا كان بين هؤلاء من يتحلى بدرجة الدكتوراه أو الماجستير حتى البكلوريا، فكيف وجلهم، بل وكلهم لم يعرف حتى مبادىء العلوم العربية، فعصف الغرور برؤوس الشباب، وخيل إليهم

أن اللغة العربية تضيق عن التعبير عما يجول في مخيلاتهم، فاستنبطوا هذه اللغة المالطية الصقل، وهي لغة لاهم يفهمونها ولا نحن نستطيع حل أسرارها ورموزها، وقد صح فيهم قول المتنبي:ـ

وكم من عائب قولاً صحيحاً   وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الإفهام منه   على قدر القرائح والفهوم

ومثل هذا ما يراه وديع في أغلب شعر المرأة، ولا يسلم إلا بالقليل من شعر الشواعر من نسائنا، ولقد كتب إلي يوم قرأ في مجلة (الأديب) قصيدة للسيدة أم خلدون بمناسبة إقامة سالم الألوسي، وفؤاد عباس، وطالب الحاج فليح كلا على حدة حفلة تكريم لي لمرور خمسين سنة على مزاولتي الأدب باسم اليوبيل الذهبي، نشر البعض ما كانوا ألقوه بهذه المناسبة من شعر ونثر، وكان من ذلك قصيدة للسيدة الشاعرة (أم خلدون) قرينة المؤرخ الكبير (عجاج نويهض) وقد نشرتها مجلة (الأديب) ونشرت ردي عليها فكتب إلي وديع قائلاً:

«لقد اطلعت في (الأديب) على القصيدة الرائعة التي نفحتك بها الشاعرة (أم خلدون) بمناسبة اليوبيل الذهبي ـ فهي بنسجها القويم البناء، والمعنى، والإيقاع من الشواعر القليلات جداً في عالمنا العربي، أما الكثير من شواعرنا فهن من المثرثرات اللواتي ملأن صحفنا بالكلام السخيف الذي لا يفهم منه شيء...»

وهنا يطري شعري في الرد على (أم خلدون) بما لا أستسيغ ذكره حذراً من انطباق المثل المعروف (مادح نفسه يقريك السلام).

ويقول إيليا أبو ماضي في مقدمة (نداء الغاب) عن وديع: «والاستغراق في التأمل صفة بارزة في الشعراء وهي في (وديع رشيد الخوري) أبرز صفاته، إذا عرض له مشهد ساحر رف عليه بكل روحه، ونسي كل شيء سواه، ويظل ذلك الجمال مستحوذاً على روحه حتى يغيب فيها ثم ينبع منها في هذه القوافي العذبة الرنين فيفتح الناس أعينهم على كنز من البدائع... الخ».

ولقد أعجبني رثاؤه لأخته (وديعة) الذي نشرته جريدة (السائح) التي كانت لسان حال (الرابطة القلمية) بنيويورك، فيها تصوير غاية في الروعة من العواطف والمحبة إذ يستهلها بقوله:ـ

«إلى شقيقتي (وديعة) التي غمرت طفولتي بالحب والجمال، وأفعمت صباي بالأنغام والرؤى، ورافقت شبابي بالعزيمة والاختبار، إلى الحياة التي ما انفلتت من دائرة

الجسد الضيقة واحتجبت عن عيني حتى تسربت كالحلم إلى أعماقي، وأصبحت كالظل ملازمة لنفسي عندما كنا نسير معاً في عالم من أثير، وملء نفسينا اكتفاء وجمال ومحبة، وأول ألم أحسسنا به، كان عندما ألقت بنا الأقدار في هذا العالم، حيث تبتدىء تعاسة الإنسان في الرحم وتنتهي في القبر، وهكذا يا أختاه ابتدأت طفولتنا بين الخمائل، وكانت طفولتنا مفعمة بالغبطة وبالحب الساذج، وذلك لأنها كانت قريبة العهد من ذلك العالم الروحي الذي يدعونه خلوداً... الخ.

وكم كنت أود أن آتي على كل ما جاء في رثائه لأخته ولكنني تجنبت ذلك خوف الإطالة مع أن الروعة كلها كامنة في داخل هذا الرثاء الذي لا يجوز لي اختصاره.

وفي نيويورك تأسست جمعية (الرابطة القلمية) من لدن طائفة هي من خيار أدباء المهجر في الولايات المتحدة بل من خيار أدباء العرب في عصرهم وقد اختير جبران خليل جبران رئيساً لها، وكانت جريدة (السائح) لصاحبها عبد المسيح حداد العضو بجمعية (الرابطة) لسان حالها، وكان أبو ماضي الشاعر الفريد بابتكارات موضوعاته الشعرية وسلاسة صوغها هو الآخر من أعضاء هذه (الرابطة) البارزين ولكن لم يلبث طويلاً حتى اختلف مع أعضاء (الرابطة) ولا سيما مع نعوم مكرزل وخرج منها، وأن بين شعر إيليا أبي ماضي الرقيق، المتدفق حيوية الذي يسيل عذوبة، وبين صفاته وأخلاقه بوناً شاسعاً فهو رجل متهم بكيل بذاءة القول والسباب والشتائم المقذعة لخصومه لذلك سرعان ما وجد له بين الموتورين من (الرابطة) لعدم قبولهم أعضاء فيها، والمعجبين بشاعريته الذين يحملهم الإعجاب أن يسيروا وراءه وأن يروا ما يرى فكان الذين حملوا على أعضاء (الرابطة القلمية) غير قليلين، ولما كان أبرز أعضاء (الرابطة) هما جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، فقد كانت الحملة تتوجه إليهما في الغالب، وكان الناقمون يبحثون عن أخطائهم حتى ولو كانت هذه الأخطاء مغتفرة بمقتضى قواعد الفن، والعلوم العربية، فيخلقون منها جرائم غير مغتفرة ويسلقونهما بالسنة حداد، اندفاعاً وراء أبي ماضي الذي كان يتناول حتى خصوصياتهما بالنكير وبما تعود لسانه عليه، على ما كان يقول.

وكان وديع رشيد الخوري ممن انضوى تحت راية أبي ماضي ولكن لسانه كان عفيفاً وإن كانت حملته في الغالب مما يعوزها المنطق والدليل المقبول.

وكانت له آراء في أدب أعضاء الرابطة وأخلاقهم، وفي طليعتهم كان جبران، ونعيمة، وإذا صحت آراؤه في محل ما فإنها لن تصح أن تكون قاعدة تطبق في كل مكان ثم أن الكثير من هذه المآخذ التي أخذت على جبران، ونعيمة، لم يسلم منها أغلب الشعراء والأدباء، وتتجلى آراء وديع الخوري بأجلى مظاهرها في كتابه (ظهور وتطور الأدب العربي

في المهجر الأميركي) وفي المقالات التي كان يكتبها في مختلف الصحف ولا سيما في جريدة (السمير) جريدة إيليا أبي ماضي، ومن التهم التي وجهها وديع لجبران ونعيمة هي التشاؤم، والحملة على أوطانهم ومواطنيهم، وشكاواهم وهي شكاوى كانا يريدان منها الاستنهاض وهياج الشعور الوطني وإلا فهم أموات ليس فيهم من الحس والشعور بشيء كما يظهر ذلك في قصيدة نعيمة المعنونة بـ(أخي) وهي من أجود القصائد الاستنهاضية، ولكن وديعاً كان يرى فيها العقوق، والغرم للبنان، والغريب أن وديعاً كان يستخف قصيدة (النهر المتجمد) لنعيمة، وهي قصيدة مترجمة عن الروسية كما ذكروا وتعتبر من أجود الشعر، وأبدعه، وغير هذا مما لا أذكره الآن، وقد كتبت إلى وديع بمخالفتي لرأيه وشرحت له ما يعني مقال جبران الذي هاجم به أمته ومواطنيه، وما تعني قصيدة نعيمة: (أخي إن ضج بعد الحرب... الخ) في رأيي، وأوردت له العلل والأسباب، ونفيت أي تشاؤم فيما كتب أو نظم هذان، وعزوت الشكوى، وما كان يسميه وديع بالتشاؤم، إلى ما لقي لبنان في أيام الحكم العثماني من الاضطهاد ثم ما لقي لبنان من ضنك العيش الذي اضطر الكثير إلى الهجرة، ثم ما أصاب بعض هؤلاء المهاجرين من الأدباء الذين لم يمارسوا التجارة من قبل ولم يعرفوا دروبها حتى لقد آل الأمر ببعضهم إلى أن يحملوا (الكشة) أو كادوا يحملونها، فكيف تريد أن لا يحسوا بوطأة الغربة والبعد عن الأهل التي لم ترق وديعاً الشكوى منها البادية أحياناً في أشعارهم أنات، وحسرات، ودموعاً».

وقد تلقيت من وديع رسالة يقول فيها:

«إن السرور الذي خامر نفسي عند تلاوة رسالتك الثمينة وما حملت من الآراء القيمة في شرح وتعليل الأسباب التي حملت جبران، ونعيمة ورفاقهما على التشاؤم والشكوى المريرة من الحياة يضاهي سروري بما نفحتني به من طيب الثناء، وجميل المديح، وذلك لأن الأدب لا يستقيم إلا بالمقارنة والقياس، وتبادل الآراء أدامك الله نبراساً للفضل والعلم، والأدب الرفيع».

ثم يبدأ بمناقشتي في آرائي، ويقول لماذا لم يظهر هذا التشاؤم على آثار أحد غير نعيمة، وجبران، من أدباء العرب في أميركا الشمالية والجنوبية، وقد عانوا مثلما عانى جبران، ونعيمة، ونسي وديع أن هذا الذي يعده تشاؤماً عند جبران ونعيمة لم يكن إلا شكوى طارئة لا يجوز أن نغلبها على أدب نعيمة وجبران ونجعلهما طابعاً عاماً، ونسي وهو الذي يقرأ كثيراً أن مثل هذه الشكوى موجودة عند جميع شعراء المهجر وكتّابه وهي تأتي في مناسبة من المناسبات فيشكو المهاجر الأديب مما يحوطه، أو يشكو من وجود أمته وينحى باللائمة على بلده لطول رقدته وعدم نهوضه، وغير ذلك من مثل هذه الأحاسيس التي يسميها وديع الخوري بالتشاؤم وهو موجود بكثرة، عند أغلب أدباء المهجر إن لم يكن

عندهم جميعاً، ومن الغريب أن وديعاً يعزو هذا التشاؤم أو الشكوى عند جبران ونعيمة إلى جبلتهما ويقول:

«... وهذا التجهم، والانكماش على النفس في أدبهما أرده أنا إلى الخلق والروح، لا إلى الظروف وحدها، فقد ظهر هذا الخلق عند نعيمة باكراً وقبل الحرب العظمى الأولى وهو محاط بعطف القيصرية الأرثوذكسية أيام دراسته في (اكرانيا) وهي أجمل المقاطعات الروسية، فربيعها فاتن وصيفها رائع، غير أنه لم يلفت نظره، مما نشاهد في تلك البلاد من المشاهد سوى نهر متجمد؟! ذلك لأن في (النهر المتجمد) وحشة تحاكي ما في نفسه من الشجون والوحشة».

وكتبت إلى وديع إذا كان مرده كل ما أخذه على جبران ونعيمة وهو الجبلة والخلق فلماذا لا يتعرض لخلق أبي ماضي وجبلته، فإن هذا الشاعر الذي بز شعراء عصره بالصور الفكرية، والسلاسة التي طبع بها شعره له من سلاطة اللسان والفحش والبذاءة في الأقوال ما يثير الدهشة، ويكفينا منه الشتائم القبيحة التي كالها لروكس العزيزي لمجرد أن روكس بن زائد العزيزي أورد مضامين قصيدة (الطين) والكثير من نصوصها المنظومة بلغة البدو الأردنيين قبل أن ينظمها أبو ماضي!! وقد أيد عدد كبير من شعراء البدو قول العزيزي وأوردوا نصوصاً للقصيدة البدوية، أفلا يكون أبو ماضي أحق بالمؤاخذة على شتائمه من أعضاء (الرابطة القلمية) في تشاؤمهم؟

ويغلب على ظني أني كتبت الى وديع بما قص عليَّ رشاد بيبي وكان يومذاك المسؤول عن مكتب محطة إذاعة (الشرق الأدنى) ببيروت التي كان يرأس مكتبها العام محمد الغصين (بليماسول) في قبرص، حين جاء حديث الخلق والتطبع، والنفوس وما جبلت عليها، قال رشاد لقد دعي (إيليا أبو ماضي) إلى لبنان زائراً، حين علمت به رأيت في حلوله ببيروت فرصة للتحدث إليه، وإذاعة هذا الحديث من محطة (الشرق الأدنى) ولكن المبلغ الذي كنت مخولاً لدفعه وهو ألف وخمسماية ليرة لبنانية - إذا لم تخنّي الذاكرة - غير مناسب لهذا الشاعر الشهير، فأبرقت إلى المركز بليماسول أطلب منهم تخويلي بصرف مبلغ آخر وجاءني الجواب بمضاعفة المبلغ وخولت بصرف ثلاثة آلاف ليرة - على ما أذكر - ويقول (رشاد بيبي) وحينذاك جوزت لنفسي الاتصال بإيليا في الفندق لأخذ الحديث المطلوب، فكان أول ما طلب مني أن يعرف كم أنا دافع له إذا ما قبل بإجراء هذا الحديث معي؟ وهنا يقول رشاد بيبي - تغيرت نظرتي إليه من حيث الجبلة لا من حيث الشعر الذي امتاز به وخلب به الألباب، وبدأت أساومه حتى رضي بتسعماية ليرة - أو دون ذلك إذا لم أنس.

وإذا صح أني نقلت لوديع الذي كان يناصر (أبا ماضي) في حملته على جبران ونعيمة وسائر أعضاء (الرابطة) سألته لماذا لا يخص بالنقد خلق أبي ماضي ويحاسبه على شتائمه المقذعة التي يكيلها لمخالفي آرائه ونقاد شعره؟ فكتب إلي وديع يقول:

«... أما (إيليا أبو ماضي) فسيرته كسيرة كل مجاهد ذي عائلة يروم التقدم والنجاح (كذا) فقد كان عنده الحلو والمر، الحلو لمحبيه، والمر لمبغضيه» (كذا) ولكن لم يقل (وديع) لماذا كان هذا المر مشوباً بالقذع، والشتائم القبيحة النابية وغير المناسبة من شاعر عبقري جليل القدر كأبي ماضي - ويقول وديع «وكثيراً» ما كان يتغلب المبغضون محبين لسياسته اللينة الرقيقة، فيقبلون على جريدته السمير - وهذا ما أشك أنا في صحته وقد سبق لي يوم صدر ديوان (الجداول) لأبي ماضي أن كتبت إلى الدكتور محمد حسين هيكل في العشرينات أن يأمر متفضلاً أحد موظفي جريدته (السياسة) الأسبوعية التي كانت تصل إلي بانتظام أن يشتري لي نسخة من (الجداول) التي وصلت إلى مصر ولم تصل إلى العراق، فاشتريت لي وكان لها بين الأصدقاء وفي مقدمتهم شاعرنا الكبير أحمد الصافي النجفي صدى كبير حمل البعض على استنساخ بعض قصائده ولا سيما الطلاسم، وكنت قد حصلت على نوع من الورق الجيد والغلاف الذي يكفي لطبع خمسماية نسخة، فكتبت إلى أبي ماضي بأني من المعجبين بشعره وأنا أطلب منه الإذن بطبع خمسماية نسخة على سبيل التنويه، لأني لست بتاجر ينشد الربح، ولم أكن أعرف عنوان السمير فأخذته من (صادق الوكيل) الذي كان يكاتب أدباء المهجر ويكاتب (أبا ماضي) بصورة خاصة، ولكن (أبا ماضي) لم يرد على رسالتي فكتبت إليه ثانية ورجوت (صادق الوكيل) أن يكتب إليه ويعرفه بي لئلا يظن بي الظنون، فلم يرد أيضاً وهنا في النجف تصدت إحدى المطابع لتجمع مما نقل بعض الأدباء عني، وما حصلت عليه من المطبعة من شعر أبي ماضي القديم، حين شاع بأني قد كتبت إلى أبي ماضي أستأذنه بإعادة طبع (الجداول) وشرعت تطبع هذه المجموعة التي لا تمت للجداول إلا بالقليل منه، الأمر الذي حملني على أن أدفع بنسخة (الجداول) لإعادة طبعها بمطبعة الراعي وهي مطبعتي المسماة باسم جريدتي (الراعي)، وكان الذي يسوغ لي مثل هذا هو أن العراق ولم يزل حتى كتابة هذه الكلمة غير مرتبط باتفاقية صياغة المطبوعات ونظمها الدولية، ومع ذلك فكنت أشعر بمسؤولية أدبية تمنعني من القيام بطبع (الجداول) دون استئذان صاحبه، ولكنه لم يجب، وقد أخرجت المطبعة النجفية النسخة المسماة بالجداول، وما هي من الجداول بشيء إلا القليل القليل.

ولم أحس وديوان الجداول الذي قمت بطبعه على وشك الخروج من الطبع إلا ورسالة تأتيني من أحد المحامين في الولايات المتحدة، يقول بأنه سيقيم الدعوى علي ما لم أدفع له

عشرة آلاف دولار ـ على ما أذكر ـ جزاء تجاوزي على حقوق موكله أبي ماضي، وقد رددت على كتاب المحامي وذكرت له بأني قد كتبت لأبي ماضي مستأذناً مرتين وكتب له الصديق (صادق الوكيل) هذامن حيث المسؤولية الأدبية، أما المسؤولية القانونية فليس هناك ما يشملني منها بشيء، وهذا ما يجب أن يعرفه محام مثلك.

ويبدو أن المحامي قد انتبه فكتب إلي أني أرجح من حيث الترضية أن تبعث لأبي ماضي بـ (٢٥٠) نسخة وهي نصف المطبوع، وأني لأقسم بأني بعثت له كل ما هو تحت يدي من المطبوع بالبريد المسجل ولم أبق لنفسي غير نسختين ووصلت هذه النسخ أبي ماضي ولكن لم تهدأ ثائرته، وقد أقام الدنيا وأقعدها، ولم يبق صديقاً لم يشكني إليه، ولست أدري فلربما سلقني في (السمير) سلقاً، ولربما شتمني بما اقتضت طبيعته أن يفعل، ولكني أشهد أني لم أسمع بأذني شيئاً من هذا القبيل، وأحسب أن مقدمتي التي قدمت بها الجداول هي الشاهد على أن الدافع في طبع الجداول ليس إلا التنويه باسم أبي ماضي ولفت الأنظار إلى هذه الشاعرية الفذة، بالإضافة إلى رسالة اعتذار مليئة بالأدب التي كتبتها إليه مصحوبة بنسخة من (الجداول) التي قامت بطبعها المطبعة النجفية، شاهداً على ما أقدمت عليه هذه المطبعة قبل إقدامي فلم يجبني عليها، وظل في غضبته حتى مات لأنه جبل من طينة خاصة تمنعه أن يثق بأحد، وأن يحسن ظنه به، غفر الله له وتغمده برحمته.

ويقول وديع الخوري:

«والمشادة التي حصلت بين أبي ماضي وبين أعضاء الرابطة، ونعوم مكرزل وغيرهم قد حدث مثلها في مصر بين العقاد، وشكري، والمازني، وشوقي، وحافظ، ثم بين أصحاب مدرسة الديوان أنفسهم، وقد جرى مثل هذا بين العقاد والدكتور طه حسين وبين العقاد واسماعيل مظهر، ولم يقتصر هذا على مصر بل تعداها إلى جميع الأقطار العربية، وإننا نرى له أثراً كبيراً في الغرب».

وأن هذا الذي ذكره وديع أن أدباء مصر وإن كان بعضه ما يلام عليه الشاعر والكاتب فإنه لم يبلغ المهاترة والبذاءة التي كان يستعملها أبو ماضي على ما أعلم، ثم أنه من الظلم أن يزج باسم شوقي بين هؤلاء الذين تحدى بعضهم بعضاً بتلك الحدة من المزاج والتهم التي ندموا عليها فيما بعد، واعتذر بعضهم إلى بعض، ولا سيما فيما يخص أحمد شوقي.

ويكاد يعترف وديع بحدة لسان أبي ماضي في الشعر بعد أن اعترف بالنثر وقال أن لأبي ماضي الحلو والمر يعطي الحلو لمحبيه والمر لمبغضيه فقد جاء في قصيدة وديع في

يوبيل جريدة (السمير) قوله:

لـــك مـــن يــراعــك صــولــة أدبيــة ... يخشى لظـاهـا الـعـابـث المغـــرور
لا يصلـــح المـــوج الذميـــم إذا فشى ... في الحكـــم إلا النـاقــد النحـــريـــر
وعــواهــل الأقلام يـــرعـــب ذكـــرهـــا ... الظلام حيـــن رحـــى النـــزاع تـــدور
لـــولا اليـــراع وهـــول وقـــع صريـــره ... مـا انحـل عـن عنـق الضعيـف النيـر

ولكن لم يكن هناك عابث ومغرور، وأعوج، وظالم، وإنما هناك من كان يتوجه لأبي ماضي بنقد، أو مخالفة رأي، أو عدم ميل أو مكارهة، فكان أبو ماضي يشهر قلمه كما لو كان سيفاً في حرب لم تبق ولم تذر مما يتنافى والخلق الرضي.

وحين لمته على ما ورد في كتابه (ظهور وتطور الأدب العربي في المهجر الأميركي) من التحامل على أدب جبران ونعيمة الذي لم أجد له محلاً لذكره هنا كتب الي يبرر ما جاء في كتابه قائلاً:

«... وقد ذكرت في كتابي عن أدباء المهجر: أن أبا ماضي استقى معلوماته الأدبية، والفلسفية من رواد إدارة (مرآة الغرب) و(السمير) و(الهدى) - وهذه الصحف الثلاث كانت تصدر في الولايات المتحدة - نشرت قصيدة أبي ماضي (كن جميلاً ترى الوجود جميلا) ونشرت أصلها الانكليزي لتدل القراء على أن القصيدة التي أعطت أبا ماضي شهرته أنما هي مترجمة، وأما إذا كنت قد عرضت في (كتابي) لأدب جبران، ونعيمة أكثر مما عرضت لأدب الآخرين، وأشرت إلى الانتحال والاقتراض في نتاجهما فذلك لأنهما أكثر الأدباء استيعاباً وتعمقاً في أدب الغرب، فقد استلفا النظريات الفلسفية والأدبية والصوفية، والاستعارات الفنية كما هي وادعياها بعد أن غيّراها بعض التغيير، فالتأثر بالشيء يا أخي والاستيعاب شيء آخر».

ويقول في رسالة أخرى:

«أن الكتب في أدب المهجر كثيرة متعددة اليوم غير أن معظمها يُعنى بما هو خارج عن دائرة الأدب الصحيح فهناك من يسترسل في البحث عن عائلة جبران، وعن علاقته (بماري هانكل) وحبه لها، وغرامه وصلاته (بميشلين) و(حلا الضاهر)، و(ماري خوري) و(رودان) إلى ما هنالك أكثر مما يعنون بدرس أدبه ورسومه، ومن هذا القبيل أيضاً قبول الجمهور ما كتبه نعيمة عن نفسه وعلى (الرابطة القلمية) على علاته من دون غربلة أو تمحيص حتى غدا جبران ونعيمة والرابطة القلمية أسطورة من الأساطير، ومن بقي هنالك من أدباء المهجر وشعرائه ورجال الصحافة فيه لغوا في لغو»

وهذا ما هاج الدكتور سليمان داود حين تأسست (جمعية الأدب العربي في أميركا الشمالية وكندا) واختير الدكتور سليمان داود رئيساً ووديع رشيد الخوري أميناً للسر، فكتب (وحيد الدين بهاء الدين) يبارك قيام هذه الجمعية قائلاً ولكن (هيهات) أي هيهات أن تبلغ هذه الجمعية مبلغ (الرابطة القلمية) وقد مرت هذه الإشارة في عرضي للدكتور سليمان داود، ومحاولتي ارضاءه.

ويعترف وديع الخوري من حيث يريد أو لا يريد بخمود الحركة الأدبية عند أدباء العرب في المهاجر الأميركية بحيث تصبح (الهيهات) التي أطلقها وحيد الدين صحيحة إذ يقول وديع:

«وقد علمت عن حركة قوامها لم شعث ما تبعثر وما تنوسي من أدب المهجر قبل أن تمهد الحركة الأدبية بهمود من بقي من الأدباء، وأن إدارة المعارف الأميركية تنشط هذه الحركة وتدعمها، وسأطلعك على ما يَجِدُّ عندنا في المستقبل».

والذي أعتقد أن وديعاً كان مخطئاً في لومه الكتاب في تقصيهم لخصوصيات الأديب، وحياته الخاصة الخفية إذا على هذه الخصوصيات الاعتماد في معرفة منحى الأديب، ومزاجه، لكشف أدبه لأن إنتاج الأديب وحده للغوص في أعماق ما ينشيء من شعر ونثر، وحقيقة ما يقول، ثم إن كل اعتماد علم النفس وعلم الاجتماع يقوم اليوم على حياة الإنسان الخاصة والعامة وأثره أدباً كان أو عملاً.

وكان (وديع) في كل رسائله يحاول أن يبرز هجومه على جبران ونعيمة، فكان يعد هذا الهجوم ضرباً من النقد ويعزو دفاعي أنا عن جل ما كان يوجهه وديع إلى هذين العبقريين من قبيل الرأي الذي يرتبط بالذوق وكان يقول.

«لقد نقد جبران ونعيمة كثيرون غيري من قبل، وأن النقد المجرد لا يضير الأديب ـ هذا إذا كان نقداً مجرداً ولكن نقد وديع وأبي ماضي لم يكن نقداً مجرداً وإنما كان تحاملاً ـ بل يدفعه إلى الضبط والتصويب، وإذا ما اطلعنا على أساليب النقاد وأحكامهم نجد اختلافاً كبيراً في حكمهم عن كتاب، أو قصيدة، أو مسرحية ما، كما هي الحال في (جداول) أبي ماضي، فالدكتور طه حسين فندها في الجزء الثالث من (حديث الأربعاء) صرفاً ونحواً، وبياناً، وموسيقى ولم يرض إلا عن بعض المعاني المتسقة، وقد أبى الدكتور أن يشجع النشء في مصر على قراءتها خوفاً من أن يفسد شعرُ أبي ماضي عليهم ذوقهم الأدبي، في حين أن العقاد وجد في أبي ماضي شاعرية فذة، ورأى أن الهفوات التي أشار إليها الدكتور لم تقتصر على شعر أبي ماضي، وشعراء المهجر بل تعدته الى الشعر في الأقطار العربية أيضاً، أما الدكتور أبوشادي فقد وضع إيليا أبا ماضي في الطبقة الرابعة من

الشعراء، ورفع رشيد أيوب، ونسيب عريضة، وندرة حداد إلى الدرجة الأولى، وبين هذه الدرجات تفاوت كبير، وقد قال في هذا المعنى (ايفور آرمسترونك ريتشاردز) وهو من أشهر النقاد العاملين البارزين في هذا العصر، قال: (يعاني النقد من قصوره على نظرية واحدة فتتجمد قواعده، فالخلاف بين النظريات لا يغض من شأن النقد بل ينير جوانب الموضوع، ويوسع آفاق الباحثين، ويهدي الأديب والأدباء الى رسالتهم الإنسانية والخلاف هو في التناقض، فقد تكون كل نظرية من هذه النظريات خاطئة جزئياً لاقتصارها على جانب واحد وقد يكون صوابها موقوتاً بعصرها وما أحاطت به من العوامل، ولكن لها جميعها شأنها في الاهتداء إلى الحقيقة الكاملة) انتهى كلام (آرمسترونك ريتشاردز) ويعقب عليه وديع قائلاً:

«وهذا التحديد يا أخي يدل على أن الخلاف بين نظرتي ونظرتك في أدب جبران ونعيمة ورفاقهما ليس تناقضاً بل هو من العوامل التي تهدي إلى الحقيقة الكاملة».

وأنا لم أنزه هؤلاء الأدباء ومنهم جبران ونعيمة من الأخطاء، ولكني كنت أرى فيما جاء في كتاب وديع الخوري تحاملاً وليس نقداً.

قلت أني لا أعتبر جبران ونعيمة وأضرابهما معصومين من الخطأ في نسج العبارة والفكرة ولكني لا أذهب مذهب من يريد اتخاذ هذه الأخطاء وسيلة لتزييف أدبهم وسخافة آرائهم كما كان يفعل إيليا أبو ماضي وأنصاره، لذلك حين صدر كتاب المحامي الأديب كعدي فرهود كعدي عن ميخائيل باسم ميخائيل نعيمة بين قارئيه وعارفيه) كنت ممن آمن برأيه في نقده النزيه، ولم أكن أنا وحدي الذي أعجب بهذا الكتاب وما تناول من تناقض نعيمة في آرائه وإنما هناك طبقة دعاها الإعجاب إلى الاحتفاء بكعدي المحامي في حفلة تليت فيها الخطب والقصائد وقد دعاني إعجابي بهذاالنقد البريء المستقيم أن أعلق عليه بمقال نشرته في مجلة (العرفان)[1] وكعدي هنا هو ابن خالة (ميخائيل) وكان من الملازمين لنعيمة، وقد وجد (وديع الخوري) في كتاب كعدي ما يدخل السرور على نفسه بالرغم من أن هذا الكتاب يخالف آراء المهاجمين المتحاملين على أدب جبران وميخائيل نعيمة إذ أن مضامين الكتاب تنص على تقدير أدب نعيمة وعلو شأنه في الأدب وإنما تأخذ على نعيمة التناقض وتنفي صفة الفيلسوف عنه، وقد كتب لي وديع بشأن هذا الكتاب ما يلي:

«منذ أسبوع تلقيت رسالة أخوية جميلة من أخينا الأستاذ كعدي فرهود كعدي يطلعني فيها على اجتماعه بك مرات عديدة ببيروت، وقد أعجب بك، وبالمقال الذي كتبته على كتابه، ونشرته مجلة (العرفان)، كما أنه كتب مقالاً سوف تنشره مجلة (العرفان) في

(١) راجع في هذا الجزء (كيف عرفت ميخائيل نعيمة)

الموضوع أيضاً، وقد ذكر لي أن السيدة الأديبة (وداد سكاكيني) زارته وهي تعد كتاباً ضخماً نقداً لميخائيل، ويقول كعدي أن العيون قد تفتحت على أخطاء جبران ونعيمة وآرائهما الاجتماعية الأدبية، وخصوصاً الفتيان والشباب، ولذلك لا أرى ما يغيظ نعيمة منك في مقالك المنشور في (العرفان) ولا سيما وأنت ألين، وألطف من قرأت لهم النقد والتمحيص، وقد قال رب الحكمة (يسوع) قديماً: ليس أحد كاملاً إلا الله وحده».

ورأيت أن النقاش قد طال في رسائلنا حول بعض الأدباء من أعضاء (الرابطة الأدبية) الذين تناولناهم في رسائلنا وعلى الأخص منهم نعيمة وجبران وأن الإطالة في هذا النقاش لا جدوى منها ولا فائدة، فطلبت منه السماح بإيقاف النقاش عند هذا الحد.

لعل وديع رشيد الخوري الوحيد من أدباء المهجر الذين كان باب بيته مفتوحاً للضيوف وللأدباء بصورة خاصة، وقد ساعده على ذلك ما كان يتمتع به من رفاهية نسبية من العيش بحيث صار يكفي المؤونة غير محتاج إلى أحد لذلك حين بلغ الخامسة والستين رأى نفسه بحاجة إلى الراحة من أعماله اليومية فكف عن العمل نهائياً في سنة ١٩٦٣ تحاشياً للإرهاق، غير طامع بشيء أكثر مما هو فيه من الاستغناء عن العمل، وعدم الاحتياج، ولا سيما وهو يقول:

«إن جيلنا هذا قد رأى من مباهج العمران، ووجد بين يديه من غرائب الثراء والغنى مما لو حظي به قارون وهارون الرشيد بجزء صغير منه لتاه على العالم كبراً وخيلاء».

ويعرف مكاتبو وديع والمتصلون به عن كثب مزية انفراده بين أدباء المهجر بترحيبه بالضيوف، فهو الذي يستدعيهم، وهو الذي يستقبلهم، وهو الذي يعنى بهم عند نزولهم في بيته، ويستبين القارىء اهتمامه بالأدباء وحسن ضيافته مما يقول: «... إن من الأخوان الذين التقيناهم كان الشاعر (نعمة الحاج) المقيم في (ساوث كرولينا) التي تبعد نحو ٨٠٠ ميل عنا، فقد زارنا في (بنغهمتن) منذ عامين، وبقي معنا أسبوعاً كاملاً، و(نعمة الحاج) هذا تاريخٌ حي، وراوية لحوادث الجوالي فقد قدم إلى الولايات المتحدة في سنة ١٩٠٨ وهو حدث فتأمل، ـ والذي كنت أعرفه أنا أنه لا يزال حياً حتى كتابة هذه السطور ولكنه اليوم في عداد المتوفين.

ويقول وديع: «وقد تعرفت بإيليا أبي ماضي عياناً عندما زارنا في (بنغمتن) وأقام عندنا نحواً من عشرة أيام، وهكذا كان مع عبد المسيح حداد، فقد كان يتردد على (بنغهمتن) مراراً لأن ابنه جريراً قد سكن فيها مدة، وهكذا جمعتنا الظروف بالأديب الراقي الذكي (وليم كاتسفليس) في (بنغهمتن) أيضاً.

أما الأديب أمين زيدان وهو من كبار أدباء المهجر وخطبائه، ولكننا لم نلتقيه وجهاً لوجه حتى الآن بل يسمع أحدنا الآخر بوساطة التلفون أحياناً، ولعل بُعد المسافات، وضغط الأشغال المتواصلة كان السبب في حرمان بيتنا من التشرف به».

وطالما دعاني أنا في رسائله لزيارة (بنغهمتن) وكان جد فرح بوجود الدكتور سليمان داود في كندا فكتب إلي يقول:

«أن الدكتور سليمان داود سيعرج على نيويورك وهو في شوق إلى الاجتماع بي، وقد كتبت إليه ودعوته هو وزوجته لزيارتنا في (بنغهمتن) وأني سأنتظره في المطار القريب منا».

وحين علم مني بأن ابنتي (ابتسام) ستقضي شهرين من إجازتها في الولايات المتحدة كتب يقول:

«في مطلع هذا الشهر ونحن ـ أنا وزوجتي ـ نترقب كلمة على بطاقة أو نداء بالهاتف من كريمتك العزيزة الشقيقة (ابتسام) فلم نحظ بشيء، وقد كنا نتطلع لنعرفها إلى أفراد عائلتنا من الأولاد والحفدة، إذ أننا نجتمع معاً في (كننكت) أو محل آخر في خلال كل صيف، ونقضي مدة في (كيب كاد) على شاطىء البحر في (ماستشويس) وهو متنزه مشهور، وكنا ننوي أن تكون العزيزة (ابتسام) معنا، وقد فهمنا من رسالتك أن ابنتك الكريمة قد غادرت العراق، وعليه فإن وصولها إلى (نيويورك) كان يجب أن يكون في مطلع هذا الشهر، فلو أرسلت أو اطلعتناعلى محل إقامتها لنذهب إليه ونأتى بها إلى المنزل، وأننا في انتظار كلمة».

وحين علم وديع بعودة ابنتي إلى بغداد دون أن يسمح لها الوقت بالاتصال ببيته كتب إلي قائلاً:

«... ويا ليتنا حظينا بلقاء الشقيقة (ابتسام) والتعرف إليها، وكنا قد أعلمنا أفراد العائلة والأنسباء بزيارتها المنتظرة غير أن أميركا كبيرة وواسعة الأرجاء، ومن الصعب على من يزورها زيارة قصيرة الأمد أن يتمتع بزيارة كل من يود أن يزوره، وإذا ما تسنى للعزيزة ابتسام زيارة ثانية للولايات المتحدة فلتعلم أن لها عماً وخالة في (بنغهمتن) وستكون معهما بين أهلها وذويها».

ولا أحسب أن مثل هذه النماذج بين أدباء العرب في المهاجر كان كثيراً، فقد كان وديع سخياً، وكان بيته مفتوحاً للضيافة، وكان على جانب كبير من دماثة الخلق، وطهارة النفس، والطيبة.

ولا أعرف إلا أن له ثلاثة أولاد، ابنين وبنتاً، أما الأبناء فهما: ريتشارد، وجورج، وأما كريمته فهي (ألفير) وقد علمت بذلك مما يتخلل رسائله من الأحاديث الخاصة والعامة، وقد كتب مرة بعيد الميلاد من سنة ١٩٧٤ يقول:

«مرت هذه الأعياد والمواسم والناس ترقب قدومها بفروغ صبر لما يتخللها عادة من اجتماع الأسر، والأصحاب بعضها ببعض الآخر كما هي الحال في هذه البلاد، بلاد الشركات الصناعية الهائلة، حيث تتفرق الأسرة الواحدة بحكم العمل في أنحاء البلاد.

وقد اجتمعنا بأولادنا، رتشارد، وجورج وألفير، وعائلتها، فإن ريتشارد وجورج وعائلاتهما - وهما متزوجان ولهما أولاد في (كنتكت) وابنتنا (ألفير) وعائلتها في ولاية (نيوجرسي) - وهي الولاية التي قضت فيها ابنتي ابتسام معظم إجازتها ولم تدر بوجود السيدة ألفير فيها - وهكذا أمضينا هذه الفرصة بين الأولاد والحفدة وهم اثنا عشر نفساً، ولكنك كنت يا أخي كل هذه المدة في الفكر والضمير، وأن الفكر هو مرتع الأخوان الذين يتفاهمون بالعاطفة والروح رغماً عن القطيعة والبعد.

ويبدو أن أيام وديع الطويلة قد مرت بهناءة وراحة بال سواء من حيث عمله، أو من حيث أهل بيته وزوجته على الأخص، حتى صحته كانت من أحسن ماتكون غير أن الأكدار قد تجمعت في سنينه الأخيرة، وقد ابتدأت بظهور ورم في رأس حفيد له اسمه (كاري) كان وديع يؤثره ويحبه كثيراً وقد عجز الأطباء عن معالجته لأن هذا الورم كان من النوع الخبيث على ما يبدو، فتوفي الولد بعد أن طال علاجه وطال عذابه، وخلف في قلب جده وجدته ناراً مشتعلة من الحزن لم يمر عليها غير ثلاث أسابيع حتى زاد أوارها بفقد يوسف الخوري وهو الأخ العزيز لوديع، وقد مات على أثر حادثة اصطدام سيارته بسيارة شحن في طريق (فلوريدا) التي كان قد ذهب إليها لتمضية فصل الشتاء، وقد كان لهذه الوفاة أثر بليغ من الحزن في نفس وديع وعائلته، وفي السنوات الأخيرة، شكت زوجته من آلام اضطرتها لدخول المستشفى، ودلت الفحوص على تغلغل السرطان في أمعائها وأجريت لها العملية اللازمة، وخرجت من المستشفى وهي تظن أنها تتماثل للشفاء لما ظهر عليها من تحسن أدخل السكينة على نفس وديع مؤقتاً إذ لم تلبث بعد ذلك أن أسلمت الروح لبارئها، وكان حزن وديع على زوجته وأم أولاده، ورفيقة حياته كبيراً جداً، ولولا الإيمان الذي كان يملأ نفسه كما أعلم لما عاش بعدها يوماً واحداً، وقد ظل وحيداً لأن ولديه يعيشان في (كنتكت) وابنته تعيش في (نيوجرسي) وقد أقنعته ابنته بأن يقضي عندها أياماً لعله يتناسى مصابه، وقد كتب إلي يقول:

«ومن العجب يا أخي أننا نمر بكوارث جمة في عصرنا هذا الذي تعددت فيه وسائل الهلاك والانقراض فنحزن، ولكن الحزن لا ينفذ الى الصميم إلا إذا كان للكارثة صلة بمن نعرف، ونقدر، ونحترم، من المحبين والأصدقاء».

ولم تكتف الأقدار بهذه المصائب التي اكتنفته من جراء فراق زوجته وأخيه وحفيده، وشعوره بالوحدة وإنما ظهرت عليه آثار (الفتق) الذي ألزمه الدخول الى المستشفى وإجراء العملية اللازمة، ولم تكن هذه العملية بالأمر العسير ولكن شاءت الأقدار أن تصحب جرحه مضاعفات نغصت عيشه طوال شهرين ثم اضطرته للقيام بعد ذلك برياضة خاصة من المشي على قدميه لمسافة طويلة في كل يوم حتى شفي تماماً بعد عناء.

وعلى قلة شكواه فقد كان يشكو إلي مرارة ما يلاقي من الوحدة بعد وفاة زوجته، وكنت أواسيه بشرح ما لاقيت من فقداني أمي، وأبي، وأخواتي الثلاث، وابني (هاتف) الذي سميته باسم جريدتي التي كنت أصدرها، وأخي عباساً الذي كنت أعزه أكثر من نفسي، وزوجتي التي قلت فيها (أنساك لا والله لا أنساك) وما أصبحت ألاقي من غربة النفس والوحدة، وأعراض الشيخوخة التي صرت أنسى بها كل شيء غير ألم الوحدة، وهو نسيان مذهل ينذرني بقرب الانتهاء والدور الأخير من الشيخوخة، فكتب إلي ذات مرة عن هذا النسيان قائلاً:

«إن ما يراودك أحياناً من السهو والنسيان يراودني يا أخي أيضاً» وهذا اعتراف منه بصحة رأيي إذ أن وديعاً يكبرني بست سنوات، ويردف وديع قائلاً: «فهو ليس نتيجة الشيخوخة كما تتوهم، بل إنه نتيجة تحويل الفكر من حال إلى حال شأن المفكرين المشتغلين بالأمور العقلية، فقد حكي عن (نيوتن) مكتشف الجاذبية أنه كان كثير السهو والنسيان، وقد سأل نجاراً ذات يوم أن يعمل له بيتاً من الخشب في الحديقة ليسكن فيها كلباً وهراً كان قدر رباهما صغيرين فتآلفا تآلفاً تاماً أكلاً، وشرباً، ولعباً ونوماً حتى ضرب بألفتهما المثل، وأعجب أصحاب نيوتن بهذه الألفة، بالرغم مما في طبيعة الهررة والكلاب من التنافر والعداء.

ولما أكمل البيت الصغير في الحديقة، وكان له باب واحد، وقف (نيوتن) متعجباً يسأل النجار، ويقول أن البيت جميل ولكن لماذا له باب واحد للكلب، وليس للقط باب، فمن أين سيدخل القط إلى بيته ليت شعري، فضحك النجار لأن نيوتن نسي تآلف الهر والكلب ودخولهما من باب واحد، وسكناهما في مسكن واحد».

لم تنقطع رسائل وديع عني، ولم تنقطع رسائلي عنه، لذلك دهشت حين قرأت نعيه في إحدى الصحف فجأة وبدون سابقة من علم بانحراف صحته أو وقوع حادث له، فأسندت

رأسي إلى ذراعي ورحت أحدق إلى أبيات الدكتور سليمان داود وهو يرثي وديعاً في نفس الجريدة ويقول:

لقـــد أحببتـــه حبـــاً بليغـــاً وكـان (وديـع) مـن صـافي نجيعـي
سيبقـى ذكـره طـي (الأغـانـي) وفي معنـى العـروبـة والفـروع

والأغاني هذه التي يشير إليها الدكتور (أغاني المزرعة) وهو ديوان في ثلاثة أجزاء باسم مزرعته في الجريدة نفسها، حدقت في أبيات نعمة الحاج وهو أكبر من بقي من أدباء المهجر سناً في الولايات المتحدة إذ يقول عن وديع:

تعبـت وأنهـك عـزمـي المسيـر وحيـداً وأصبحـت في وحشـة
أسـائـل أيـن رفـاق الطـريـق تـولـوا ولـم تـرهـم مقلتـي
كـواكـب فـن مـن الذروة تهـاووا جميعـاً إلى الحفـرة
وهـذا (الوديـع) على أثـرهـم تـولى لينضـم للعصبـة

وراحت دموعي تتقاطر على الصحيفة وصدى بيت نعمة الحاج القائل (تولوا ولم ترهم مقلتي) يحفر في قلبي الحفائر والأخاديد من جروح لن تندمل مهما طال الزمن ولن يلفها النسيان، كما كان يلف الأشياء الأخرى منها.

كيف عرفت

محمد جمال الهاشمي

١٩١٦ ـ ١٩٧٧

في أواخر العقد الثامن من القرن التاسع عشر يدخل النجف شاب يرتدي قباء أزرق اللون من القماش المعروف في ايران باسم (ـ ـ ـ) وهو قماش وطني ترتديه الطبقة الروحانية، المتواضعة، وكان يعتمر عمامة سوداء، لقد جاء من مدينة (كليا يكان) من أعمال مدينة أصفهان، يحدوه الشوق الى طلب العلم والتفقه في الدين وكان اسمه السيد جمال (الكليا يكاني)، ويبحث له عن مأوى، وعن أستاذ يواصل عنده دروب العلم التي كان قد بدأها بمدينة أصفهان.

أما الأستاذ فليس وجوده بالأمر العسير في النجف، فهناك عدد كبير يدرسون الأدب، والفقه، وسائر العلوم بالمجان، وكانت النجف تستعيب تقاضي الأجور عن التدريس، ولا يرد أحد من الأساتذة طالب علم عن تدريسه إلا إذا كان غير واجد فراغاً من الوقت عنده، وعلى هذا فقد كانت صعوبة الطالب الغريب في النجف منحصرة بالمأوى، وبالمعيشة، ولم تكن المدارس الدينية في النجف يومذاك بكافية لسكن الغرباء الذين يأتونها من كل الأقطار الشيعية للدراسة، أما المعيشة فكان يضمنها الطالب مما يصل إليه حوالة من أهله على أيدي بعض التجار وبشيء من المساعدة من المراجع الدينية التي تصل إليهم بعض الأموال بصفة (حقوق) شرعية من خمس وزكاة، و(حق امام) فينفقون منها على مستحقيها ما يسعهم الانفاق، وكان بعض هؤلاء المتغربين في طلب العلم يعيشون عيشة مرفهة بسبب غنى أهليهم فيسكنون أحسن البيوت ويأكلون ويلبسون أحسن المأكل

والملابس، وكان بجوار بيتنا مدرسة باسم مدرسة (الايرواني) رأيت بعيني كيف كان بعض طلابها يتركون قشور (الرقي) والبطيخ كما يتركها البطر الشبعان وفيها بقية صالحة للأكل من اللب، كانوا يتركونها عند باب المدرسة من الخارج وعلى دكتي الباب وفي ظنهم أن الحطابين والسقائين سيأخذونها لتأكله حميرهم، ولقد رأيت جاراً لنا وهو من طلاب العلم كان يحمل هذه القشور إلى بيته وحين رآني قال لي دون أن أسأله أنه يأخذ هذه القشور لنحتفظ بها لحمير السقاء الذين اعتدنا أن نشتري منه الماء فلم أصدق وأنا صبي حينذاك قوله فقد رسخ في ذهني أنه يأخذها ليتمتع هو وأهل بيته بما بقي فيه من اللب، وكان هذا الظن مني نتيجة ما كان يشيع بأن بعض البيوت ومنهم بيوت الطلبة الفقراء يحملون من الشارع وفي خفية من الناس ما يتركه الأغنياء خارج بيوتهم مما يفضل من الطعام الصالح للأكل.

ولم يكن السيد جمال الكليا يكاني إلا من أولئك الطلاب الفقراء، وقد استعان بقليل مما زوده به أهله وبعض معارفهم بمدينة كليا يكان لكي يصل إلى النجف ووعدوه أن لا ينقطعوا عنه كلما تيسر لهم ذلك، ولكن ذلك لم يتسير فيما بعد إلا قليلاً بل وأقل من القليل، وكان من الايمان والقناعة ما يستعين بها على دنياه وعيشه المدقع.

أما الأستاذ فقد وجده في الأسبوع الأول، وأما السكن، فقد كان في خان من خانات محلة المشراق كان الزوار الذين يأتون من ايران يحلون به هم وحميرهم، وقد كان أول نزول السيد جمال فيه ولا أدري كم بقي فيه حتى رضي أحد طلاب مدرسة الصدر أن يشاركه غرفته، كذلك لا أدري كم بقي حتى ضاق صدر صاحب الغرفة وبرم به وسئم منه فقد كان السيد جمال ينهض في السحر ويبدأ بالصلاة والعبادة حتى الفجر، لذلك صارح هذا الشيخ السيد جمال وطلب منه أحد أمرين، أما أن يترك التعبد في السحر، وأما أن يجد له محلاً آخر، لأن قيامه لصلاة الليل والتعبد وقراءة الأدعية - وإن كانت بصوت خافت - مما تقلق راحته وتذهب عن عقله النوم ولا سيما وهو يقضي الشطر الأول من الليل بالمطالعة، ثم أن عليه أن يجلس في الفجر أو قبل شروق الشمس بقليل ليصلي ويذهب لزيارة ضريح الإمام ومن هنا يمضي إلى شيخه (أستاذه) - وكانوا يسمون الأستاذ بالشيخ - لينضم إلى الحلقة التي تتلقى دروسها على ذلك الشيخ.

وأعطى السيد جمال الحق لصاحب الغرفة، ولما كان لا يستطيع أن يترك التعبد والصلاة في السحر طلب من صاحبه أن يمهله أياماً لعله يجد له مأوى يأوي إليه وراح يستنجد بزملائه لعلهم يدلونه إلى مأوى يأوي إليه، وفكروا معه طويلاً، وأخيراً اتصل الخبر (بشيخهم) واستنجد هذا الشيخ بشيخه الذي يدرس عليه، لأن لكل شيخاً ولا ينقطع هذا إلى أن يبلغ الطالب مرحلة (الاحتياط) و(الاجتهاد) حيث يكون بمكنته أن يستنبط

الأحكام وأن يفتي الناس، وهي مرحلة ليس بوسع كل أحد أن يبلغها عند الشيعة لأن مقدماتها من العلوم العربية، والمنطقية وعلم الكلام (الفلسفة) والحديث، والتفسير، وعلم الرجال والوقوف على تراجمهم طويلة وعويصة جداً وقد لا تكون لها نهاية!!

وكان لشيخ الشيخ هذا ـ ولم أعرف اسمه ـ شأن ومكانة استطاع بهما أن يحمل خادم المدرسة على أن يخلي له المخزن المجاور لغرفته والذي لم تزد مساحته على أربعة أمتار أو خمسة، كان يخزن فيها الخادم بعض حاجاته من الفحم، والتمر، والبصل وما كان لديه من بساط ممزق، وما كان يحصل عليه من طلاب المدرسة، من الأحذية، والأباريق العتيقة، وغير ذلك، وهي غرفة مظلمة ليس فيها كوة يدخل منها الضياء والهواء ولا بد وأن يكون هذا الشيخ قد منح الخادم بعض النقود فضلاً عن استعماله جاهه عند وكيل المدرسة.

والحصول على مثل هذه الغرفة لواحد مثل السيد جمال يعتبر فوزاً كبيراً في تلك الأيام التي كانت النجف تموج بطلاب العلم الغرباء ولا سيما في عهد الشيخ الأنصاري ومابعده، حتى لقد قدر الناس عدد طلاب العلم في أيام الشيخ (الأخوند) في العقد الأول من القرن العشرين بعشرة آلاف طالب في حين لم يزد عدد سكان النجف من أهلها على ثلاثين أو خمسة وثلاثين ألف نسمة حينذاك، وقيل أن عدد الذين يلتفون حول منبر (الأخوند) في كل يوم لاستماع محاضراته لم يقلوا عن ألف طالب، وكل هؤلاء من المرشحين للاجتهاد في يوم ما، وكان من أشهرهم السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني، والميرزا حسين النائيني، والشيخ ضياء العراقي، وغيرهم، وقد صاروا من المراجع الكبرى فيما بعد، لذلك كان الحصول على غرفة مثل هذه لواحد مثل السيد جمال نعمة كبرى في ذلك الوقت.

وما أسرع ما عُرف السيد جمال بين أقرانه بالجد والانكباب على المطالعة وبالقدسية التي كان من علاماتها كثرة صلاته، وصيامه، وانقطاعه إلى الله، وقناعته بالكسرة من الخبز، ولم يزل حتى بلغ المرحلة التي تمكنه من حضور دروس (الأخوند الشيخ ملا كاظم الخراساني) الذي سمي بالأخوند وهي تعني (المعلم) وصارت للسيد جمال حلقات للدرس، وانتقل بمحض إرادة تلاميذه وزملائه واهتمام (الأخوند) به وليس بمحض إرادته هو وذلك لزهده ونسكه وقناعته، لقد انتقل إلى بيت مستقل وتزوج.

وكان من أفضال الله عليه أن تزوج امرأة صالحة مؤمنة، لم تقنع بفقره فحسب وإنما راحت تستعين بالمغزل فتغزل الصوف وتبيعه، وتخيط الثياب بالأجرة، وتقيت مما تحصل عليه من كد يدها زوجها وأولادها، وقد ضربت أروع الأمثال للمرأة المخلصة الوفية

الصالحة.

وكان السيد جمال يحضر دروس الميرزا النائيني بعد وفاة (الأخوند) في حين كان هو والنائيني من تلاميذ الأخوند، وقد كان النائيني يقدر منه هذا التواضع، ويطلق عليه اسم (الآغا) وهو السيد والوجيه ويقوم له إن حضر دروسه وهو ما لا يفعله مع غيره، ولقد سمعت بأذني من بعض الناس ملامة السيد جمال على اندماجه بين طلاب الميرزا (النائيني) مع بلوغه درجة الاجتهاد، وعدم احتياجه إلى مثل هذه المحاضرات، ولكن الانصاف عملياً على أن نقول بأن النائيني كان منفرداً في وقته بعلم الأصول، وأن السيد جمال وإن كان قد بلغ غاية التواضع فإن حضوره دروس النائيني لم يكن إلا للإفادة ثم هو بعد ذلك لا يهمه أن يكون مجتهداً أو يكون مرجعاً من المراجع الدينية، وكل همه الركض وراء الشريعة وبلوغ أغوار النصوص وفلسفتها، وكان يلذه أن يحرم نفسه من ملذات الحياة في سبيل الوصول إلى الحقيقة.

ووعيت أنا، وبيت السيد جمال يبعد عن بيتنا ببيتين فقط، وابنه الكبير السيد محمد الذي صار بعد ذلك يسمى بالسيد محمد جمال الهاشمي باعتباره علوياً هاشمياً وإن لم يسم أبوه بهذا الاسم، وقد كان السيد محمد صبياً يلعب مع الصبيان في الطريق، وكنت أراه في أغلب الأوقات وحين خروجي من البيت أراه أكثر مما كنت أرى أباه السيد جمال وقد رأيت أمه غير مرة في بيتنا، وعلمت أن صلاتها ببعض الأسر كانت صلات مودة واحترام، وعلى الأخص مع بيت (الرفيعي) وهذا البيت مشهور بطبخ حلاوة، وهي حلاوة اختصت بها النجف دون جميع مدن العراق، وعرف بصنعها آل الرفيعي أكثر مما عرفت بصنعها البيوت الأخرى وزعموا أن بيتنا نحن مما يجيدها هو الآخر، وإذا صح هذا فالفضل يعود إلى أم السيد محمد جمال الهاشمي لأنني أعتقد أن هذه السيدة تحسنها أكثر من بيت الرفيعي أنفسهم، ولا بد أنها هي التي علمتنا صنع هذه الحلاوة، والحق أنهاكانت امرأة متفننة في كل ما ينبغي أن تتفنن به ربة البيت العبقرية، فهي التي كانت تشتري لزوجها وأولادها البستهم المناسبة، وهي التي كانت تخيطها لهم وهي هي التي تشتري لهم الأحذية، ولعل من العجيب أن نعرف أنها هي التي تشتري القماش والقطن فتنفش القطن وتصنع منه اللحاف والمتكأ، والفرش الذي ينام عليه الأطفال.

وتوفي الميرزا النائيني، ويتوفى السيد أبو الحسن ويصبح السيد جمال من المراجع الدينية الكبرى، ويقبل عليه المقتدون (المقلدون) بكسر اللام من كثير الجهات، ويزيد الوثوق به كون أن الأوقاف الدينية في مدينة (قم) التي يجب أن يتولاها أشهر المجتهدين وأعلمهم قد عهد أمرها إليه بتاييد من السيد البروجردي الذي كان يعتبر يومذاك بمثابة أكبر المراجع الدينية.

ويشتري بعض مقلديه للسيد جمال بيتاً في محلة الحويش ويقدمونه هدية له فينتقل إليه ويختار منه لنفسه أحط غرفة وأضيقها في البيت ويترك الغرف الوارفة لأولاده، فكأنه بذلك يريد أن لا تغيب عنه ذكرى تلك الغرفة الصغيرة المسخمة بالفحم في المدرسة وهكذا عاش بها بقية أيامه.

ويأتيه من يطلب بركته فلا يدري كيف يكون منح البركة فيعهد بذلك إلى زوجته، وهي تعرف بماذا تكرم هؤلاء؟ وماذا تهدي لكل منهم وأذكر أني جئته عائداً له في إحدى نوبات مرضه، وقد تفضل فسمح لي بالدخول عليه في حين اعتذر أولاده للزائرين الذين كانوا يملأون الديوان، لأغراض شتى، ومنهم من كان يحمل مبلغاً من (الحقوق) لتسليمها له وقد اعتذر أولاده لهم بالوعكة كنوبة قلبية أو روماتيزم في رجليه قد حلت عليه وتمنيت له الصحة والعافية، وحين كنت أصدر جريدة (الهاتف) كان مكتب الهاتف في مدخل الشارع الذي سمي ـ ولا يزال ـ باسم شارع (الهاتف) وكانت إحدى مقابرنا قريبة من دار الهاتف، وهي غير المقبرة المتصلة بمدرسة الخليلي الكبرى في وسط المدينة، وقد بنيت المقبرة التي بالقرب من دار الهاتف على طراز مقابر القاهرة، أي أنها كانت أشبه بالبيت ذي الغرف المتعددة، وكان البعض ممن يظنون أن بعض الاستثابة حاصلة في زيارة قبر جدي، وكنت أرى عصر بعض الأيام وأنا داخل مكتبي أو أنا خارج منه السيد جمال وهو قابع بعمامته يمر من أمام مكتب الهاتف، كشخص مجهول لا يدع أحداً يحتفي به ويمشي خلفه، فيدخل الى مقبرتنا ليقرأ الفاتحة لجدي لأبي، ثم علمت بعد ذلك أنه كان يفعل هذا في عصر كل خميس، ولم ينقطع عن هذه الزيارة إلا في أيام مرضه، وحين بلغ المرجعية، كان يجهر بأنه لا يريد أن يصحبه أحد إلى قبر الشيخ، فإن في هذه الصحبة شيئاً من الفخفخة والأبهة وهو يريد أن يزور هذا القبر كدرويش فقير ويصلي عند مدفنه بخشوع.

والدفن في هذه المقبرة مقتصر على بعض الأسرة الخليلية كما أن الدفن في المقبرة الواقعة بجنب مدرسة آل الخليلي الكبرى مقتصرة على فئة أخرى من أسرتنا، وقد جاء في وصيتي أن أدفن أنا في جهة عينتها من مقبرة جدي، وأوصيت بأن يكتب على قبري ما يلي:

هنا يرقد جعفر الخليلي رقدته الأخيرة...
ولد سنة ١٩٠٤ ومات سنة كذا ...
جاء إلى الدنيا وهو لا يدري لماذا جاء...
وخرج من الدنيا وهو لا يدري لماذا خرج...

لقد كبر السيد محمد جمال الهاشمي واعتمر العمامة السوداء، كما يفعل أمثاله، أو كما فعل أبوه، وانكب على الدروس الدينية، وكان لا بد له ـ كما ذكرت ذلك في غير هذا المكان من كتابي ـ أن يمر على العلوم العربية وقواعدها وحتى علم المنطق، والحساب، لكي يجهز نفسه للدخول في ميدان دروس الفقه والأصول، والحديث، وعلم الكلام، وشرع السيد محمد جمال الهاشمي يدرس العربية، واكتشف هنا أن له ملكة شعرية فنية زادت من إقباله على قراءة الشعر في مختلف مراحله، وما لبث أن راح يجرب نظم الشعر، وينضم إلى فئة الشعراء والأدباء كعضو منتسب إلى (جمعية الرابطة الأدبية) في النجف إلى جانب انضمامه الى الفئة العلمية المنكبة على مواصلة الدروس الدينية.

وصار يشارك في الحفلات التي تقيمها جمعية (الرابطة الأدبية) في بعض المناسبات، ولا أذكر كيف اتصل بي لأول مرة، ولعل ذلك جرى عن طريق ابراهيم الوائلي الذي كان يعمل معي في جريدة الراعي، وجريدة (الهاتف) والأستاذ بكلية الآداب ببغداد اليوم.

فقد كان الهاشمي صديقاً حميماً للوائلي وكان كلاهما في المرحلة الأولى من مزاولة النظم، وقول الشعر، إلا أن شعر الوائلي كان أصح من حيث اللغة والقواعد العربية، وكان الهاشمي يعرض علي بعض قصائده بقصد نشرها في جريدتي ولم أكتمه رأيي فيما كان يؤخذ عليه، وكان من حسناته بعده عن الغرور فيتقبل النقد، ويحذف بعض الأبيات، ويبدل بعض الكلمات، أو يصرف النظر كلية عن القصيدة، ولم يلبث حتى أن صار لشعره نغمة، وحلاوة بل صار له قراء وأصدقاء يكاتبونه، ويتبارون وإياه وفي مقدمة أولئك كان الشيخ محمد حسن حيدر نائب سوق الشيوخ في البرلمان.

وامتاز الهاشمي على كثير من الشعراء بحسن الإنشاد، فقد كان لإنشاده الشعر في المحافل وقع غير قليل في النفوس لعله كان عاملاً آخر في تجليه شعره وتزويقه، وله ميزة أخرى قلما رأيت أحداً امتاز بها مثله ومثل السيد أحمد الرضوي الهندي ابن الشاعر الكبير السيد رضا الهندي، وهي سرعة البديهة في نظم الشعر، فهو قادر على أن ينظم القصيدة العامرة في ساعتين بل وأقل من ذلك، وقد يأتي بالمعاني البكر وجميل الصياغة، ولكن مثل هذه السرعة قد تفقد شعره أحياناً الجودة التي عرفت بها قصائده الأخرى، لذلك لا يخلو هذا الشعر بسبب السرعة من الركاكة حيناً وإن جود فيه أحياناً كثيرة.

وما لبث الهاشمي حتى أن صار في المقدمة من صفوة اخوان (الهاتف) فلا يمر عصر يوم دون أن يكون السيد الهاشمي في مقدمة زوار (الهاتف) ونظراً لما كان السيد الهاشمي معروفاً به من طهارة النفس، والطيبة، الظرف وحتى السذاجة التي ترافق أهل القلوب النقية كان السيد الهاشمي محور الحديث من مجالس (الهاتف)، سواء من حيث الظرف

والطيبة، ومن حيث الشعر والأدب، إذ كثيراً ما يتحرش به الأدباء ويمازحونه فأشاركه أنا في الرد عليهم فيصول بانتصاري له ويجول، حتى لقد بلغ به إلى أن يكون هو البادي بالتحرش فيخسر الجولة أحياناً ويربحها أحياناً أخر، وأذكر أنه تحرش مرة بالسيد عبد الحسين الحجار، والحجار هذا خطيب نجفي من خطباء المنابر الحسينية المعروفين بالظرف وسرعة البديهة، فقد جاء ذكر البديع ومروا في هذا الذكر على (الهجاء في معرض المدح) و(المدح في معرض الهجاء) ورويت لهم أنا بيتين كنت قد ترجمتهما من الفارسية في هجاء مشايخ الدين مما يدخل في ضمن (الهجاء في معرض المدح) وهما:

نبتت وردة مكان الفقيد ... أن يمت من مشايخ الدين شيخ
تغد ايران جنة من ورود ... وقياساً فإن يموتوا جميعاً

فتوجه الهاشمي إلى (الحجار) وقال له وأنا الآن قادر على أن أهجوك فتأخذ هذا الهجاء بمثابة المدح إذا كنت مؤمناً ـ ولا شك عندي في إيمانك ما دمت خطيباً يرد على لسانك في خطبة مدح الرسول وآل بيته ورثاء سبطه الإمام الحسين كأن أقول لك ـ

أنت الحمار حمار سبط (الهادي) ... أنت النعال نعال بنت المصطفى

فتتقبل قولي هذا ولا تستطيع أن ترد عليه، بل إن إيمانك سيحملك على الرضا بأن تكون نعالاً لفاطمة الزهراء وحماراً للإمام الحسين .

فقال السيد الحجار، لقد صدقت، وأنا الآخر استطيع أن أفعل مثل ما فعلت معي فأتيك بالمدح في معرض الهجاء وأقول:

أنت جُحر لناقة السجاد ... أنت (بوتين) خاتم الرسل طه

والبوتين هو حذاء من طراز خاص تغوص فيه القدم ويغوص معها قسم من الساق وقال الحجار، وأحسب أنك ستفاخر على مضض منك بأن تكون جحراً تروث منه الناقة التي حملت زين العابدين (السجاد) أسيراً.

واتسعت آفاق الهاشمي الشعرية، وصار يطرق مختلف المواضيع بشعره، وكان له في كل عنق من أعناق محبيه وأصدقائه دين، فلا أذكر أن مناسبة من المناسبات التي تخص أخوانه ومحبيه دون أن يكون لها مكان من شعره لذلك كان من أكثر الشعراء نظماً في باب (الأخوانيات) ومن أكثرهم في نسج عواطفه وأحاسيسه التي يهيجها وفاؤه بالشعر.

وحين ولد ابنه (حسن) همّ الكثير من أصحابه أن يردوا له بعض الفضل فأقاموا له ندوات عشاء عديدة واسمعوه الكثير من تهانيهم الشعرية وأرّخوا ولادة ابنه بالشعر، وكان أهم تلك التواريخ بيان للشيخ محمد رضا المظفر تضمن بيت منها تاريخ ميلاد (حسن) باليوم، والشهر والسنة، ومن المؤسف أنني نسيت هذا البيت الذي نشر في (الهاتف) كما نشر تأريخ للشيخ محمد جواد الشيخ راضي بالفارسية تضمن دعابة طريفة ظل يتحدث بها الجميع وقد جاء التأريخ على هذا النحو، وقد نسيت أوله وختم التاريخ بقوله:

(بر جمال محمد صلوات بفرس)

ومضمون هذا القول هو أنه لا ينبغي أن تنسى الصلاة على جمال محمد، وإذا حسبت الحروف بحساب الجمل حصلت على التاريخ المذكور، ويغلب على ظني أنني أوردت ذكر التاريخ في جزء آخر من (هكذا عرفتهم).

وحين انتقل السيد محمود الحبوبي، وصالح الجعفري الى بغداد احتل السيد محمد الهاشمي المقام المرموق الأول في عالم الشعر في النجف، وفي النجف عشرات من الشعراء المجودين، ولكن لم يبق في تلك الأيام من هو أكثر من (الهاشمي) نظماً للشعر وأكثر إجادة بالنسبة لكثرة شعره، ولو أتيح لشعره أن يجمع وينشر لألف ديواناً لا أحسبه يقل عن بضعة أجزاء من الشعر السلس الرقيق الجيد وفي هذا الديوان جمع صوراً جلية، لمجتمع النجف الأدبي، وتاريخاً حافلاً لمجالسها، وما كانت تنعم به النجف وتشقى، فقد حكاها الهاشمي في مختلف المناسبات، من مباريات ومساجلات شعرية، وتهانٍ بأعراس ومواليد، وتعازٍ بوفيات ودواهٍ، وأحاسيس بما كانت تختلج به نفوس الناس في كل طارىء من الطوارىء العامة، وتصوير لحياة الناس، في أعمالهم، ومجالسهم وأنسهم، ومرحهم، وألوان من دعاباتهم، ومراثيهم وأحزانهم، وكل هذا مصور في شعر (الهاشمي) أصدق تصوير ولا سيما إذا عرف القارىء المناسبة التي حملت الهاشمي على نظم تلك القصيدة، على غرار ما فعل سعيد العريان في (حياة الرافعي) وما فعل مصطفى علي في شرح (ديوان الرصافي).

ومعظم شعر الهاشمي منشور في جريدة (الهاتف) وكان يعد نفسه ويعده القراء من تلاميذ (الهاتف) ومن الذين تأثروا به وأن الكثير من شعره ليتضمن هذا بل ويفاخر به، فقد كان ملازماً للهاتف ملازمة الظل كما ذكرت ولم ينقطع عن حضور مجلسه، وكثيراً ما جمعته مجالس الأصدقاء بي وعلى الأخص مجلس الشيخ قاسم محي الدين في أغلب الليالي، وقد رويت قصة سرقتنا خروفه وكيفية ذبحه وأنا أعرض لجانب من حياة الشيخ قاسم محي الدين في الجزء الأول من (هكذا عرفتهم) وكثيراً ما تعرضت للسيد محمد جمال الهاشمي في الهاتف جاداً أو هازلاً وحين حج بيت الله حجته الأولى في الطريق البري

تصورته فوق جمل من هذه الجمال التي تنوء بثقله فقد كان بديناً يزن ما فوق المائة كيلو يومذاك، وحين تقدمت به السن زاد وزنه أكثر.

وسعيت إلى أن أتقمص روحه فوصفت شعوره، وأحاسيسه والجمل ينوء به فيتمايل إلى الأمام والى الخلف، والعمامة السوداء الكبيرة كانت فوق رأسه كالعلم علامة لقطار الابل، وقافلة الحجاج الذين يأتمون به فيتابعونه وتصورت ما كان يجري على لسانه من أشعار الجاهلية، وهو في تلك الفيافي والصحاري، ونشرت ذلك في إحدى افتتاحيات الهاتف، فكان لهذه المقالة صدى في الأوساط الأدبية في النجف، ومن المؤسف أن تباع (الهاتف) بسنينها العشرين على جامعة (شيكاغو) فلا تصل يدي إليها لأنقل ذلك المقال الذي نشرته فيها هنا، ولكني أستطيع أن أنقل شيئاً من أرجوزته التي بلغت ألف بيت من رحلة الحجاز الثالثة أو الرابعة فقد حج الهاشمي عدة مرات، ولم تكن هذه الأرجوزة هي الأرجوزة الوحيدة وإنما كانت له أراجيز جمة وفي مواضيع مختلفة حتى في الفلسفة، وعلم الأخلاق إلى جانب أشعاره وقصائده التي تعد بالمئات، وفي رحلة الحج هذه التي استقل فيها الطائرة يقول الهاشمي في بعض ما يقول:

سارت على اسم الخالق المعبود	قافلة الإيمان والتوحيد
سارت تحج الكعبة الغراء	بحب آل أحمد تلوب

وقد جاء في وصف الطائرة ما يلي:

تحركت كأنها الشاهين	ومن حراكها لنا سكون
دارت في ساحة المطار	كالليث إذ يصول في تزآر
ثم اعتلت للجو وهي تزأر	كأنها العقاب حين يذعر

إلى أن يقول

وكانت الطيارة الجبارة	تصعد بي طاقة قهاره
فالجو في الستين تحت الصفر	وهو خيال لم يذقه فكري
لكن وضع الجو فيها ما اختلف	فكل شيء في نظامه وقف
لا الضغط في دمي ولا الرجفة في	جسمي ولا الحياة في تعسف
كنت بها كأنني على الثرى	لا أشتكي ضيقاً ولا تذمرا
طبيعتي طبيعتي الأصيلة	آفاقها رائعة جميلة

إلى أن يقول

حتى قصدنا مكة المكرمة	في موكب شاراته محتشمة
وحينما لاحت حدود الحرم	واستيقظت منها قلوب النوم

فبادر الركب إليه مسرعاً   وكل فرد فيه من شوق دعا:
(لبيك أن الحمد والنعمة لك   لبيك أن المجد والرحمة لك)
نخلع عن أجسامنا الثيابا   إذ لم تزل لوعينا حجابا
هي القشور ضحت اللبابا   هيا امط عن وعيك النقابا
لتظهر الحقيقة الخفية   وتلمس الماهية النورية
تبعدنا مظاهر الحياة   في زيفها عن الجمال الذاتي
ما أننا في الحياة إلا بشر   لكل ما أحيى به مفتقر
عبد فلا أملك رجلي ويدي   بل كل ما عندي ملك سيدي
فكل آثاري إليه تنسب   في بعثها عني هو المسبب
ما كنت إلا عدما لولاه   أوجدني بأمره الإله
شغلني عن وعيها التشاغل   بعالم لذاته حبائل
تصدني في وصفها عن واقعي   وتستزيد نحوها مطامعي
رباه يا رباه إني بشر   عن وعي واقع الأمور نقتصر
تجذبنا الظواهر المزبرجة   عن واقع نيرانه مؤججه
وحينما أيقظنا الايمان   جئنا وكل ما بنا لسان:
(لبيك لبيك فلا شريك لك   لبيك لبيك فلا مليك لك)
أحرمت عن ما ثمن تجرداً   وصرت عبداً مذ رأيت السيدا
وهكذا تجرد الإنسان   لما طمى في وعيه الايمان... الخ

هذا بعض ما اجتزأته من هذه الأرجوزة التي يتناول فيها الهاشمي وصف مناسك الحج، وتأثيرها في النفوس الواعية، وهي وإن لم تصلح لأن تكون من نماذج شعره، إذ أن له شعراً رصيناً يتصف الكثير منه بالعذوبة والرقة، ولكن هذه الأرجوزة تصلح أن تصور جانباً من إيمانه، والتجائه الى الله تعالى.

وبالإجمال: فقد كانت علاقة الهاشمي (بالهاتف) وصاحبه علاقة وطيدة يرجع تاريخها الأول إلى أول مزاولته الشعر، وإلى أول استعانته بي فيما ينبغي أن يثبت من القصيدة وما ينبغي أن يحذف، وأن تهذيبي لشعره، ونقده لما يستوجب النقد من حيث اللغة والسبك لا يعني أنني كنت أشعر منه وأقدر على نسج القصيدة، إذ أن هذا شيء آخر ليس له دخل في النظم.

أما رؤيتي للهاشمي وهو يلعب مع الصبيان بالقرب من بيتنا فلا يحسب لها حساب، ولا تعد تاريخاً لمعرفتي به.

والذين يحملون اسم محمد الهاشمي من أهل العلم والأدب عرفت ثلاثة منهم في العراق، كان منهم محمد الهاشمي الحاكم بمحاكم العراق وصاحب مجلة (اليقين) والشاعر الذي قام بترجمة رباعيات الخيام الى العربية بالشعر وعرفت محمد الهاشمي الدكتور المتخصص بالتاريخ، والأستاذ بكلية الآدب من جامعة بغداد وهو يقربني بقرابة غير بعيدة، ثم أن السيد محمد جمال الهاشمي الشاعر والعالم الروحاني، والغريب أن هؤلاء المحمدين الثلاثة لم يجمع بينهم العلم والفضل والأدب وحسب، وإنما تجمع بينهم النسب فهم سادة علويون هاشميون ومن نسل الإمام الحسين .

وللهاشمي مجاميع من الشعر المخطوط اختار منها أجود ما قرأ من عصر الجاهلية إلى القرن العشرين واحتفظ بها في أجزاء متعددة فيها أخبار الخيار مما قرأ، فلو تهيأ لها أن تطبع لكانت أهم مصدر يعتمده القارىء فضلاً عن الشاعر للمنتجات الشعرية في مختلف العصور والميادين، ولا سيما أن الجامع لهذه المنتجات شاعر من ألمع الشعراء في الرقة، والانسجام وجودة الصياغة، بالرغم من ولعه بالفلسفة فقد أتقن رسائل الفيلسوف (الملا صدر) وولع بقراءة الفلسفة الحديثة، وقلما سلم، شعر الشعراء المولعين بالفلسفة من التعقيد، والعبارات المبهمة، ومن هذا القليل كان السيد محمد الهاشمي، الذي يفيض شعره رقة وعذوبة، وسلاسة.

والمعروف أن الفلسفة قد تترك في نفس متتبعها وقارئها في الغالب شيئاً من الضيق أو الانقباض، والابتعاد عن الناس، وقلة الكلام ولكن الهاشمي كان على النقيض تماماً، فقد كان كثير الكلام، وكثير المزاح والدعابة وكثير الاختلاط بالناس حتى لقد كان يتقبل أن يكون موضوعاً للنكتة وإن كانت جارحة، ثم أنه من صفاء النفس وطهارة القلب، أن باطنه كظاهره فهو لا يحتفظ السر وإن كان في ذلك ما فيه من الضرر له أو لغيره، وهو والشيخ قاسم محي الدين على نسق واحد وصفة واحدة، وقد شبها بالقمع إذا سكبت السائل في فمه خرج بكامله من الطرف الثاني ولا يُبقي شيئاً في صدره.

لذلك كنت أفرغ نصيحتي له إذا جاء يستنصحني في أمر يخصه ويخص أصحابه في عبارة وقول لا أندم إذا ذاع واشتهر، وإني لأذكر أنه كان يلاقي من زملائه أعضاء (الرابطة الأدبية) ما يخزه، وما يجرح شعوره بالرغم من سعة صدره وحلمه، وكان ينقل لي ذلك فلم أصارحه بوجوب استقالته، والتحرر من هذا القيد، وإنما كنت أضرب له المثل بالحكايات التي يؤول مغزاها إلى أن البت في مثل هذه الأمور إنما يعود له وحده، وهو قادر على أن يعرف ما ينبغي له أن يفعل دون الحاجة لنصيحة ناصح، وهكذا كنت أفعل في كل أمر طارىء معه ومع الشيخ قاسم محي الدين، وأحاذر كل الحذر من أن أنقل لهما

خبراً يخص شخصاً من أصحابنا، فإذا وقع شيء ما أو فلت اللسان أمام أحدهما بشيء اعتذر لكل منهما عما وقع، ويمتاز اعتذار الهاشمي باعتراف ممزوج بالخجل وطلب المغفرة عما صدر منه بدون دراية ومن غير قصد، وهو صادق نظراً لصفاء نفسه وطهارة قلبه.

وتزوج الهاشمي من كد أمه وابرتها وغزلها، ولكن زواجه ما لبث أن أخفق بسبب فقدان الانسجام بين الزوجين وبين الأم والكنة، فزوجته الأم مرة أخرى بهذه الزوجة المثالية التي أنجبت له أولاده من البنين والبنات وبقيت على وفائها له إلى أن مات.

وكان الهاشمي قد تقدم في العلوم الدينية وتفرغ لها أكثر من السابق بعد زواجه، وأصبح له مريدون، ومتعلقون بإيمانه، وقد سافر إلى إيران غير مرة، وأفاد بعض الإفادة ممن كان يعرف له إيمان وتقواه وطهارة نفسه، وكل هذا جرى قبل أن تؤول الزعامة الدينية إلى أبيه، واستطاع أن يكون في حاشية المرجع الروحاني الأعلى السيد أبي الحسن الموسوي الأصفهاني، وخصه العالم السيد ميرزا حسن البجنوردي ببعض الرعاية، وكذلك رعاه الحاج آغا حسين ابن السيد أبي الحسن بمحبته، فأفاد من تلك الرعاية ما مكنه من أن يستأجر له بيتاً في (عقد الخمايسي) ثم انتقل إلى محلة الحويش.

وكانت للهاشمي مكتبة عامرة أنفق عليها كل ما كان يحصل عليه من الحقوق الشرعية التي يمنحه إياها السيد أبو الحسن، وما يمده به الآخرون من هذه الحقوق فباع هذه المكتبة، واستعان بما استطاع أن يحصل عليه، وببعض الديون فاشترى له بيتاً متواضعاً (بعقد السلام) وهنا آلت المرجعية إلى أبيه، وأصبح في طليعة المجتهدين والمراجع الدينية المرموقين، فقل نظم السيد محمد للشعر حتى كاد يصفي إلا من خطرات تدعوه إليها عاطفته، وهنا بدا يتعين مصيره كروحاني منصرف إلى التعمق في الفقه والأصول، وصار له طلاب يدرسون عليه، وحلقة خاصة به، وعلى أنه لم ينقطع عن (الهاتف) وزيارته فقد قل نشر شعره حتى لقد سأل عنه كثير من القراء في المدن العراقية، وعن أسباب انصراف (الهاتف) عن نشرشعره بعد أن نضج وأصبح من أبرز شعراء النجف، ولم يدروا أن الذين ينتهجون نهج العلماء الروحانيين تفرض عليهم المقتضيات وأعراف الناس أن ينصرفوا كلية إلى العلوم الدينية، وإلى الصلاة بالناس، وما هذا الشعر الذي يروونه لبعض العلماء أمثال الإمام كاشف الغطاء وأمثال الشيخ محمد رضا المظفر إلا ألواح من عهد الشباب.

وللسيد محمد الهاشمي مزية كبيرة وهي أنه قلما صدر كتاب من العلوم الإنسانية الحديثة إلا اقتناه ووعاه لذلك كان لهذه الكتب أثرها ليس في شعره فحسب وإنما في سيرته

ولا سيما أن ميوله الإصلاحية ودعوته للإصلاح واعتناقه لمبدأ التجديد كان يجاري به دعاة الإصلاح في ذلك الوقت، فقد قام في النجف أعلام لم يكتفوا بالتبشير للإصلاح الديني وبث الروح الإسلامية وإنما قاموا بعمل الجبابرة في وسط كانت تسوده الرجعية والعقول المتحجرة الجامدة وكان في طليعة أولئك الشيخ محمد رضا المظفر، ومحمد الشريعة ابن شيخ الشريعة الذي تولى زعامة الثورةالعراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ بعد وفاة مفجرها الميرزا محمد تقي الشيرازي اللذان قاما بتأسيس جمعية (منتدى النشر) في النجف وتأسيس المدرسة التعليمية التي أصبحت اليوم من الكليات المشهورة في العراق باسم (كلية الفقه) وكان السيد محمد الهاشمي من أعضاء هذه الجمعية وممن مارسوا التدريس بمدرستها.

وكان السيد محمد جمال الهاشمي يربطه بالشيخ محمد الشريعة المعتمد الروحاني الكبير في الباكستان، وبالشيخ محمد رضا المظفر في النهضة الإصلاحية في التدريس والوعي والتوجيه، فظهر أثر هذا الوعي الروحاني والإصلاح العملي الذي قام به هؤلاء الأعلام الثلاثة: الشريعة، والمظفر والعسكري في زمن واحد أقول لقد ظهر أثر هذا الوعي والاتجاه في أفكار (الهاشمي) الذي كان يحمل العقيدة نفسها ويساعد على بثها، وطفح بها شعره، ودعوته وطريقة تدريسه لتلامذته، فقد كان متصلاً بهؤلاء العمداء الثلاثة سنين طويلة، ومتأثراً بهم، وعاملاً معهم.

وصلى الهاشمي بالناس، ولم يكن المؤتمرون به بادىء الأمر إلا القليل من النكرات من الرجال والنساء ثم كثر المؤتمرون به بعد وفاة أبيه، وكنت هنا قد انتقلت إلى بغداد، وقد أحس الهاشمي بفراغ كبير في حياته كما يستبان ذلك من رسائله التي لم تنقطع عني، وقد دعاني غير مرة لزيارة النجف والنزول ضيفاً عليه ولا سيما بعد أن باع بيته في (عقد السلام) واشترى بيت (آل شعبان) بالقرب من بيوت آل الحلو بمحلة العمارة، وشغلني العمل في (الهاتف) عن أداء كثير من الواجبات في بغداد بعد أن أصبح الهاتف جريدة سياسية يومية مع المحافظة على اعداده الأدبية الأسبوعية، ولكن انشغالي هذا لم يحل بيني وبين إرسال الهاتف له وإرسال ما كان يصدر لي من كتب جديدة ببغداد فيبعث لي هو بما يعن له من تعليقات نثرية وشعرية، وقد تلقيت منه ذات يوم رسالة يعتب فيها على إبطائي في رد الجواب على رسالته وتعذر تلبيتي لدعوته وفي ضمنها مقطوعة شعرية يقول في الرسالة.

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، طالت أيام البعاد، فمنذ سنين وأنا لم أزود من محضرك الشهير، وإن كنت لم ابتعد عنك بأحاسيسي ومشاعري التي ما زالت تمون حياتي بالحيوية والنشاط، وكنت أنتظر تشريفك منزلي، وتزويد عواطفي بمجلسك الذي لا ينسى، ولكنك ـ ولك العذر فيما تفعل ـ لم تتنازل للسؤال عمن يستلذ بذكرك في كل

الأوقات، وقد تذكرتك وأنا أطالعك الغالي (كيف عرفتهم) فانتقلت من عالمي الضيق المرهق الى عوالمك التي لا تتناهى آماد لذتها، وحدود إمتاعها وألطافها، الأمر الذي جعلني استخف بمتاعبي فأخف إلى إرسال هذه السطور، وتلك الأبيات مخففاً بها عن آلام نفسي، سائلاً من الله أن يحرسك من الحوادث، ويرعى ذويك بعنايته، إنه ولي العباد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد جمال الهاشمي

اما المقطوعة الشعرية المرفقة برسالته فهذه هي:ـ

يعيش على ذكراك قلبي فيغتذي	**حياة بها أنس الحياة وما فيها**
فذكراك لي روح توجه موكبي	**إلى غاية تحتج روحاً وتوجيها**
وفي ذكرياتي للأحبة سلوة	**لقلب له لم يلق سلوى وترفيها**
أخي آه ما أحلاك للنفس غنوة	**إذا ما انتشت بالحب نفسي أغنيها**
أناجيك والنجوى انطلاق مشاعر	**مغللة، ذكر الأحبة يشجيها**
أناجيك والنجوى عواطف شاعر	**تقومها ذكرى هواك فتغليها**
تناجيك نفسي وهي تحسب نفسها	**بأنك رغم البعد عنها تناجيها**
تناجيك والآلام تلجمها فلم	**تفهْ، ولجام الرعب يربط في فيها**
ولكنها ذكراك بثت بروحها	**نشاطاً فراحت تستعيد أغانيها**
فعش للإخا، والحب، والفضل، والعلا،	**ودم لي دنيا، لا تحد معانيها**

وفي كتابي (هكذا عرفتهم) الذي يشير إليه الهاشمي في رسالته ذكريات عن أيام النجف ومجالسها، وبعض الأعلام الذين كانوا يحكون جانباً من حياة هذه المدينة، وقد قال لي غير واحد من غير النجفيين بأنه لم يقرأ جزءاً من هذا الكتاب إلا وتراءى له أنه يعرف هذا البلد ويعرف هؤلاء الذين يعرض هذا الكتاب لجانب من حياتهم فيبكي، ولا أعرف مدى حقيقة هذا القول ولكنني سمعته من كثير ممن لا يعرف النجف ولا يعرف أولئك الأعلام الذين ورد ذكرهم في الكتاب فكيف إذا كان القارىء نجفياً، وشاعراً مرهف الحس كالسيد محمد جمال الهاشمي.

ولم يكتف الهاشمي بالإشارة الواردة في رسالته عن هذا الكتاب بل أرسل لي بهذه الأرجوزة التي يعبر فيها عن أحاسيسه بعد أن قرأ الجزء الأول من (هكذا عرفتهم) يقول فيها:

«تحية أخوية ـ هذه تعليقة عابرة علقها قلمي على كتابك الرائع (هكذا عرفتهم) أهديها لذوقك، فتقبلها من أخيك الهاشمي»

إن كنت (هكذا عرفتهم) فما ... عرفت إلا الذوق في الصحب نما
أخوة الذوق لها الفضاء ... تندك في آماده الآراء
عرجت في سمائه الوسيعة ... تلقط منها صور الطبيعة
تدرس منها لغة النفوس ... فتعرف المجهول بالمحسوس
دراسة الأديب للأفكار ... دراسة الحكيم للأسرار
ينظر منها ما على العين اختبا ... ليلمس القارىء منها السببا
فربما يبتسم الكئيب ... وربما ينحسر الأديب
لكل مظهر من الأوضاع ... فلسفة رائعة الإبداع
فمظهر الإنسان عن مخبره ... يحكي، يراه العقل في مجهره
فهذه الظرافة المحببة ... تخبر عن نفسية مكتئبة
يحاول الإنسان تخفيف الألم ... عن نفسه في حركات تنتظم
وربما بنسى عن ارتياح ... فاض به تفتح الأرواح
فالقصص التي رويتها لنا ... مظاهر على معان تبتني
لهؤلاء السادة الأفاضل ... (مشاكل) مكنونة في الداخل
تظهرها مجالس المسامرة ... في نكتة أو ضحكة أو بادرة
يقرأ منها العارف المستبصر ... فصلاً من الحياة لا يُحبَّرُ
أحسنت في تسجيلها كثيراً ... خدمت فيها الأدب المهجورا
والعبقري يقرأ المطموسا ... فأنت تحكي فيه جالينوسا

ولربما حملت هذه الأرجوزة بعض الأخوان على أن يعلقوا على (هكذا عرفتهم) بالشعر حين وجدوا هذه الأرجوزة منشورة في إحدى الصحف اليومية ببغداد، فقد جاءني من غير واحد مثل هذه التعليقة، ومنهم المحامي الصحافي والأديب القصاص أنور شاوول فقد نشرت له إحدى الصحف هذه الأبيات يقول فيها (إلى... جعفر الخليلي، بمناسبة صدور كتابه الأخير «هكذا عرفتهم») ويعنون أبياته بهذا العنوان:

هكذا عرفتك

ويقول

كم من يد أسديتها يا جعفر ... بالأدب الحي الذي تسطر
بالقصص الرائع، بالشعر زها ... كأنه زهر الربى، بل أنضر
بالخلق الرضي تضفيه على ... من يشكو الفضل ومن لا يشكر
فكر وشعر، وحديث شائق ... وحكمة رائعة تدخر
تلك أضاميم هدى قد أرجت ... تزكو بها الروح وتسمو الفكر

ويتحسس القارىء بالفراغ الذي بدا يحس به الهاشمي بعد انتقالي من النجف إلى بغداد بهذا المقطع من إحدى رسائله التي يقول فيها:

«اسأل الله ان يرعاك بعنايته اينما كنت، وان يفيض عليك لطفه اينما حللت، لقد انقطعت اخبارك عني وكأني اعيش في دنيا غير دنياك، مع ان عواطفي ومشاعري تلتهب بذكرياتك، ومذكراتك، فكل شيء جميل يذكرني بك، وكل طريفة في الحياة التي اعيشها تشير اليك وكأنك الانموذج الجمالي الملذ لهذه الحياة المليئة بالمشجيات».

ولما كان قد بلغ مكانة مرموقة بين العلماء الروحانيين، وكان من أئمة الصلاة المعروفين بالتقوى، والايمان، كتب إلي مرة في ختام احدى رسائله ما يلي:
« ... وانا لا انساك من دعائي، وهو كل ما حصلت عليه في حياتي، كما لا ينساك قلبي وحبي».

ولعل الهاشمي من اكثر المتتبعين ان لم يكن اكثرهم لما كنت اكتب من مقالات واصدر من كتب او القي من محاضرات في بعض المناسبات ولعله يقرأ ويستعيد ما اكتب. ولما كنت في النجف كان يعبر لي بلسانه عما كان يحس به من اثر، وحين انتقلت إلى بغداد صار يبعث لي بآرائه في رسائل متتابعة، وكم كان يرسل لي برأيه منظوما ولا يكلفه النظم وقد سبق لي ان اشرت إلى ذلك الا شيئاً قليلا من الوقت ولذلك كان شعره بسبب هذه السرعة غير مطبوع بطابع واحد، ولون ثابت، فكما ان له من الشعر اجوده بكل معنى الكلمة فإن قسماً من شعره إذا لم يكن من الشعر الاعتيادي فهو دون شعره الذي حلق واشتهر باجتذاب القلوب، وهو حين اتم قراءة (اولاد الخليلي) والكتاب مجموعة قصص سميتها باولادي من باب المجاز كتب إلي الهاشمي الرسالة التالية:

« ... الآن فرغت من اعادة قراءة كتابك الجليل (اولاد الخليلي) هذا الكتاب الذي يجب ان يقرأه كل انسان، لأنه كتاب لتوجيه قوى الانسان إلى اهدافه التي تتوخاها انسانيته، ومن المؤسف ان تكون طباعته رديئة في حين نعيش نحن في عصر تقدمت بل حلقت فيه وسائل الطباعة إلى ابعد الحدود».

ان مؤلفاتك كلها نماذج انسانية يعتز بها العقل والتفكير، كما ترحب بها العاطفة والشاعرية، وكم كنت افيض بهجة وانشراحا بمطالعة مقالة، او نقد، او قصة لك، وها انا ذا بعد اربعين سنة اعود الى ما قرأته قبل نصف قرن، وإذا به يؤثر في نفسي كما كان يؤثر فيها منذ نصف قرن.

ان رسائل العظماء متوجة بالعظمة في كل عصر، وما زال سقراط، وابن سينا، والجاحظ، والغزالي، والسيد الرضي، وصدر الدين الشيرازي، والبهائي والداماد، والشيخ الانصاري، هؤلاء الاعلام وامثالهم لهم مكانتهم العلمية، والادبية تخشع لها العقول والأفكار، وان لمؤلفاتك الادبية الاجتماعية على اختلاف عنواناتها، حرمتها ومكانتها».

وكثيرة هي شواهد تعلق (الهاشمي) بي بانت في رسائله وشعره وما كان يغدقه علي من محبته، ومغالاته في مغالاة لا اجدني اهلا لها فقد جاء في احدى رسائله قوله:

«كنت ولا ازال اعتقد انكم الفرد المنتخب في الصدق والصفاء والوفاء وقد صاحبت كل طائفة من طوائف المجتمع، واتخذت لي اصدقاء من سائر طبقاته، فما رأيتهم الا ابناء النفع الذاتي، لا يعيرون الصالح العام ولا صالح الصديق المخلص اي اهتمام الا بمقدار ما تقتضيه المنفعة الشخصية».

ولم يزل الرجل يذكرني في كل مناسبة، ويغدق علي معروفه، ويذكر ايام النجف بشيء كثير من التجلة، ويحن الى الأدب بالرغم من انقطاعه عنه وانصرافه الى العلوم الدينية والسير في طريق الاجتهاد، وقد نشرت ذات يوم جريدة (الاخبار) البغدادية بمناسبة احد الاعياد قصيدة يهنئني فيها السيد محمد جمال الهاشمي وقدمت الاخبار لها هذه المقدمة.

«تلقى جعفر الخليلي بمناسبة العيد طائفة من المعلومات الاخوانية وفي ضمنها عدد مضمخ بالنفحات الادبية كان من بينها هذه القصيدة الفياضة بالعاطفة التي جادت بها قريحة سماحة الاستاذ السيد محمد جمال الهاشمي، وسماحة السيد الهاشمي هذا من العلماء المرموقين ومن رجال الفقه المعروفين، والى جانب ذلك فهو شاعر ومن كبار شعراء العربية، وقد آثرنا نشر قصيدته هذه كنفحة من نفحات العيد الادبية».

«اخي... جعفر الخليلي دام سعيداً»
يسرني ان اقدم لك في هذه الايام الهنيئة العواطف الأخوية آملاً ان تتقبلها عيدية.

تهـــدي لجعفـــرهـــا التحيـــة	روح تـــذوب مـــع الهـــديـــه
روح نمـــــت في ظلـــــه	ولهـــى بـــدنيـــاه النقيـــه
دنيـــا العـــواطـــف واللطـــائـــف	والهـــــوى والاريحيـــــه
مـــا زلـــت في ذكـــرى مفـــاتنهـــا	اغـــذي الشـــاعـــريـــه
ذاب الشبـــاب بهـــا ليصبـــح	شمعـــة الفـــن المضيـــه
ذاب الشبـــاب بهـــا ليخلـــد	في جنـــائنهـــا الزكيـــه

شعـــــر ارق مــــــن الحيـــــاة ومـــن مبـــاهجهـــا النـــديـــه
انــــي رأيـــت الروض يبســــم في معــــانيهــــا الشـــذيـــه
وسمعــت مـــوسيقـــى النبـــوغ بهـــا ولحـــن العبقـــريـــه

****

يـــا ذكـــريـــات صبـــاي يـــا حلمــــي ودنيـــاي الشهيـــه
مهمـــا نسيـــت فلســـت انسى فيـــك ايـــامـــي الرضيـــه
ايـــام كنـــت بهـــا احلـــق في السمـــاوات العليـــه
يقتـــاد مـــوكبـــي الشبـــاب إلى مقـــاصـــده الهنيـــه
دنيـــاي اضـــواء تـــرف هـــوى، وانغـــام سخيـــه
ومجـــالس فيهـــا الحيـــاة تمـــوج بـــالطـــرف الثـــريـــه
وحيـــاة (جعفـــر) وهـــي طـــاقـــات الحيـــاة المعنـــويـــه
منهـــا اكتسبـــت الفـــن تنبـــض روحـــه بـــالألمعيـــه
روحـــي ومـــا زالت على رغـــم السنيـــن بهـــا فتيـــه

****

أأخـــي، عيـــدك بـــاركتـــه البشريـــات العـــاطفيـــه
يهنـــى بـــه وبكـــل عمـــرك طـــال عمـــرك يـــا اخـــيَّ
واقبـــل تحيـــة مخلـــص لـــك ذاب شـــوقـــاً في التحيـــه

النجف الاشرف

محمد جمال الهاشمي

ومن هذا الكثير الذي يغدقه علي من عواطف بعد ان انقطع واصبح غير مستباح له في عرف الناس ما دام قد هيأ نفسه لشغل المكانة الروحانية قصيدة يثني فيها الامه واحزانه. وما سبب هذه الآلام والأحزان إلا لأنه أصبح مقيداً بالقيود التي يفرضها عليه المجتمع فلم تعد له صلة بأولئك الذين كانت تأنس بهم روحه، وينشرح بمجالسهم صدره، ويعود فيغالي فيّ انا ويلبسني اللباس الذي لا استحقه، وينسب لي بث تلك الروح الأدبية في نفسه فيقول في احدى قصائده التي بعث بها إلي وانا ببغداد:

قطـــرات مـــن دمـــوع الحـــب ســـالـــت في كتـــابـــي
عبـــرت عـــن مـــوج الامـــي وطغيـــان عـــذابـــي
خـــامـــرتهـــا صبـــوات مـــن شجـــونـــي واكتئـــابـــي
كنـــت ارجـــو حينمـــا تقـــرأهـــا تلمس مـــا بـــي
وتـــرانـــي رغـــم بعـــدي فـــابتعـــادي كـــاقتـــرابـــي

انا قد اخلصت في حبك من عهد شبابي
وعلى أفقك آمالي شعت ورغابي
وبه قاومت اعصار جنوني وانقلابي
هادىء لم يطوني اللج بساحضان العباب
لي من الحب قوى تصرع خوفي وارتيابي
تحسب اليقظة طيفا فشرابي كسرابي
انثر الورد وللاشواك وخز في ترابي
اقبس النور ولو ضم بمليون حجاب
اطرد الياس ولو اقفل دونسي كل باب
انا انسان إلى الحب انتمائي وانتسابي
وبعطر الحب اغرقت سهولي وهضابي
فلذا واجهت من اخشاه من دون نقاب
لي من الحب سلاح لم يخن فيه ضرابي
يصدع الحقد ولو لاذ باذيال السحاب

****

(يا خليلي) ان تكن اغضيت عن رد جوابي
فلك العذر وحسبي ان في الحب حسابي

محمد جمال الهاشمي

وانه والله كما قال، كان ابعد ما يكون عن الختل والدجل والرياء، وكانت المحبة محبة الانسان لأخيه الانسان تغمر قلبه، وكان كريم النفس وقد رأى ذات يوم زميلا له من الطلاب الغرباء يلبس قباء صيفياً في الشتاء، ولم يكن الهاشمي باسعد حالا منه يومذاك ولكن شتاءه من حيث الملبس كان اجود من ذلك الزميل، فنزع الهاشمي في البيت قباءه الشتوي، ولما لم يكن له بديل شتوي عنه لبس هو الآخر قباء صيفيا وجاء بالقباء الشتوي الى زميله الطالب ومن حسن الحظ كان الحجم يلائم هذا الطالب ولم يحس بتغيير لباسه أحد، فقد كان الهاشمي كريم النفس يسره كثيرا ان يتناول احد عنده العشاء او الغداء وكان بعض الاخوان يستغلون هذا الكرم منه فيدعون انفسهم عنده، فيسعى جهد طاقته ان يوفر لهم ما يشتهون يوم كان في حال لا يحسد عليها فكان مدينا للبقالين، والبزازين، وباعة السكر والشاي الذين يسمونهم بالعطارين وحين شمله الرخاء بعض الشيء بفضل ما كانت تمده به المراجع الروحانية العليا وبما يصل إليه من مريديه من الحقوق الشرعية، صار كرمه لم يقتصر على دعوة الاصدقاء او دعوتهم انفسهم عنده بل صار يهب ما كان يصل إليه من الهدايا.

ومن الغريب انه كان هو واخوانه اقل انتفاعا من ابيهم يوم كانت تصل إليه وهو مرجع اعلى الحقوق الشرعية الوافرة، فقد كان الاب السيد جمال الدين حريصا كل الحرص على ان يخص الذين يعتقد عوزهم بالانفاق عليهم من طلاب العلم وغيرهم من المعوزين من صفاته انه كان لا يدخر شيئا مما تصل اليه يده وكان يعتقد ان العيش الكافي موفور لأولاده فلماذا يفضلهم على غيرهم، وحين توفي خلف ديوناً عليه دفعها مقلدوه واتباعه من التجار الايرانيين في ايران.

****

والذين جاءتهم الشهرة كتاباً، وشعراء، وقصاصين، عن طريق جريدة (الهاتف) ومعظمهم ينسب نشأته الأدبية (للهاتف) وقد يفاخر بها، ولكن (الهاشمي) كان اكثر اولئك تفاخراً وتباهياً، وهو يعلن ذلك في كل مناسبة ويتجاوز حدود المبالغة والمغالاة في ذكر صاحب (الهاتف) مستمدا كل ذلك من الوفاء الذين جبل عليه، وهو وفاء قل نظيره بين محبي الهاتف وصاحبه.

ولم يسعني تلبية طلبه المكرر في زيارة النجف على رغم كثرة مواعيدي له ولغيره كما لم تستدعه الحاجة لزيارة بغداد لذلك لم اعرف شيئا عنه اكثر من انه مشغول بطلابه ومحاضراته، وما تقتضيه الأحوال إماماً لجماعته، ومجتهداً وقبل وفاته ببضعة اشهر جاء من يخبرني بأن السيد محمد جمال الهاشمي في مستشفى الجيبجي في الحارثية، وانه دخل المستشفى منذ يومين، فخففت إليه وانا في شبه وجل، وكم سرني ان وجدته في تمام الصحة والعافية، وقد قام من سريره واحتضنني واشبعني قبلا ولم تكن شكواه الا من وجع في ساقيه كان من الصعب عليه السير ماشيا الى الصلاة، او حضور مجلس تأبين، وتعزية، وما شاكل ولما يئس من جدوى المعالجة في النجف جاء الى بغداد للافادة من الأطباء الاختصاصيين، وقد دهشت حين وجدته مفرطا في البدانة والسمنة، ثم دهشت لما الفت حوله من طلاب العلم والمشايخ الذين يعنون به، وهي علامة للعالم الروحاني الجليل، وهنا تواضع فعرفني لحاشيته بأنني ملهمه الادب، والباعث في نفسه هذه الروح الوثابة في دنيا الشعر يوم كان ينظم الشعر، واستعرضنا في هذه ذكريات الماضي، وحن كلانا إلى تلك الأيام التي كان (الهاتف) يجمعنا ليلا ونهاراً، وقال انه يتتبع اخباري اينما سرت وسألني عما إذا كنت قد رأيت الشيخ محمد الشريعة في اثناء دعوتي إلى الباكستان في خريف ١٩٧٥ بمناسبة مرور سبعماية سنة على وفاة الشاعر الاسلامي الخالد اميرخسرو، فاجبت بالايجاب وحدثته بما عرفت عنه، وقلت له انه كان كما نعرفه لم يتبدل ولم يتغير، فهو على انه المرجع الديني الافضل للشيعة في الباكستان فلا يزال بتلك الروح من اللطف والظرف والبشاشة، والبعد عن الدجل والرياء، وذكرت له انني كنت في مجلسه حين جاءه

رجل من الباكستان وقد الف كتابا عن (الاعور الدجال) يثبت فيه بموجب مائة وعشرين حديثاً وسنداً خروج الدجال من اصفهان وهو راكب حماراً يبول حليباً ويروث تمراً والناس يركضون وراء حماره مؤمنين به، وقد صدَّر كتابه هذا عشرات المؤيدين من رجال الدين في الباكستان كتصديق خبر ظهور الدجال، وهو اي المؤلف يرجو من الشيخ محمد الشريعة ان يسجل تأييده كما فعل العلماء الآخرون، فقال له (الشريعة) ان وصفك لحمار الدجال هو الذي يكذب الخبر، فلو صحت الرواية بأن يكون هناك دجال اعور سيظهر ذات يوم من اصفهان له حمار اقول لو صحت الرواية يقول (الشريعة) لراث هذا الحمار قطعا من (منّ السماء) وهي الحلاوة التي عرفت بها اصفهان اما التمر فيجب ان تروثه حمير البصرة، والحلة وضحكت انا وضحك من كان في مجلس الشريعة، «بكراتشي» وخرج هذا المؤلف من عنده شاعراً بسخرية الشيخ منه، وقد بانت علامات الخجل على وجهه.

وجرنا الحديث الى الباكستان والهند، وقال (الهاشمي) غفر الله (لانديرا غاندي) فقد غيرت رأيي في رقة المرأة وعاطفتها، وما عرفت به من صفاء النفس والمحبة، حين شنت حملتها على الباكستان، فقتلت النفوس، وهدمت البيوت وشردت الآمنين الساكنين، ويتمت الأطفال، وأحرقت الحرث والنسل متباهية بأن لديها من القوة ما تستطيع بها ان تغير معالم الأرض، وكان الاجدر بها ان توجه هذه القوة إلى مكافحة ملايين الملايين من الجرذان التي تأكل حاصلات الهند الزراعية، التي تحرم التعاليم الدينية الهندية قتلها، والاجدر بها ان توجه هذه القوة لتبيد بها الحشرات التي تنقل الجراثيم وتنشر الأمراض في الهند مما لا تبيح لها ديانتها قتلها في حين تبيح لها قتل الناس، وتشريدهم، وتهديم بيوتهم باكثر مما تفعل الزلازل والبراكين.

قال ولقد هاجني اعتداء (انديرا غاندي) هذه التي لا تجيز لنفسها قتل الحشرات في حين تجيز قتل الانسان فنظمت قصيدة لكي أهديها لك، ولكني لم اتمها بعد، وعند رجوعي إلى النجف سأبحث عما نظمت وأتمه وأبعث به اليك، ولعله نسي ذلك ونسيت أنا أن اذكره بالقصيدة حين عاد الى النجف.

وزرته في المستشفى غير مرة وقل وجع رجليه بفضل المعالجة، اما الدكتور كاظم شبر الجراح الاختصاصي فقد زاد على آراء الأطباء الذين عالجوه بأن اوصاه بوجوب اتباع نظام خاص يضمن له نزول وزنه العشرات من الكيلوات خلال السنتين المقبلتين، فقال الهاشمي، انه لا يقدر على هذا، فقال الطبيب اذن فالمسألة خطيرة ليس على ساقيك وانما على قلبك في الدرجة الأولى.

كان هذا قبل وفاته ببضعة اشهر، وفي ذات ليلة من اوائل شهر آذار ١٩٧٧ اتصل بي العالم محمد جواد السهلاني واخبرني بأن الهاشمي توفي بالسكتة القلبية وهو في طريقه إلى

الصلاة بالناس، كان ذلك في الليل وفي الوقت الذي دعيت فيه للعشاء فاعتذرت عن تناول العشاء ودخلت غرفة منامي ولكن لا لاقرأ وانام كالعادة، وانما لاذوب في ذكرى تلك الايام التي مرت كما تمر الأحلام ولانعم النظر اكثر واتعمق في ماهية هذه النفس الطاهرة، وما جلبت عليه من الطيبة، ثم بكيت ما شاء الله ان ابكي، ثم انتبهت لنفسي، ورحت افكر مرة اخرى في عوالم ابعد واعمق، ثم عدت إلى البكاء، وقضيت معظم ليلتي على هذه الصورة...

كيف عرفت
جورج صيدح
١٨٩٣ ـ ١٩٧٨

في ربيع سنة ١٩٥٧ كنت ببيروت اشرف على طبع (اسبوع الاعمار) وهو رسالة مجملة تلخص ما تقوم به (وزارة الاعمار) في كل سنة من المشاريع، وما هو تحت النظر، وقد كلفتني وزارة الاعمار بجمع هذه الانجازات وتأليفها في كل سنة والاشراف على طبعها ببيروت لكي توزع على المدعوين لزيارة العراق في الاسبوع الذي خصص باسم (اسبوع الاعمار) وقد تم طبع ثلاث مجاميع في ثلاث سنوات ثم قامت ثورة ١٩٥٨ وتغير موضوع (وزارة الاعمار) وقامت بهذه المهمة (وزارة التخطيط).

وكنت انزل فندق (نيورويال) في الزيتونة على البحر، وهو الفندق الذي اعتدت النزول به إذا ما جئت بيروت في غير فصل الصيف، وفي صباح يوم وانا اتناول الفطور دخل عليّ الصديق الاديب القصاص (رشاد دار غوث) وكان يومها رئيساً لقسم الصحافة في القصر الجمهوري، وهو اليوم الدكتور رشاد دار غوث[1] الأستاذ بالجامعة اللبنانية ببيروت لقد دخل علي ومعه شخص قدمه إلي باسم (جورج صيدح)، ولم يكن هذا الاسم غريباً علي فقد كنت اقرأ له شعراً في بعض صحف المهجر، ثم كنت اقرأ له احيانا بعض الشعر والنثر مما قد يقع مصادفة بين يدي من جريدة بيروتية عرفت فيما بعد ان صاحبها صهره، وان هذه المصاهرة قد وقعت على غير رضى من صيدح ولكنها من قبيل النزول على ارادة ابنته وقد انتهى بعد ذلك بعدة سنين بالطلاق بعد ان خلفت منه ولدين، وقد كتب لي حين

(١) انتقل إلى رحمة الله

باركت له طلاقها من صهره وابديت له رأيي كتب إلي يقول «اما آراؤك بشأن ابنتي فكلها صواب، فما كان الطلاق الا تصحيحا لخطأ شنيع ارتكبته ابنتي قبلما ترشد!!»

ولقد رويت عن صهر صيدح روايات لا تتناسب سمعتها ـ ان صحت ـ مع السمعة الحسنة التي كان يتمتع بها جورج صيدح، وكان آخرها سبائك الذهب المحظورة التي وجدها موظفو كمرك الهند في الحقائب قبل ان يعرفوا ان صاحبها هو من اعضاء وفد الصحافة اللبنانية المدعو الى الهند فلم يعد في كلفة الحكومة الهندية ان تتجاهل اتخاذ المراسيم المفروضة في مثل هذه الحالة، ولكن المساعي التي بذلتها الحكومة اكراما لجورج صيدح لدى السلطات الهندية قد سوت الامر بشكل من الاشكال بعد ان انتشر خبرها في الصحف فضيحة من الفضائح المعيبة.

وبعد ان تم التعارف بيني وبين صيدح كتب إلي في سنة ١٩٥٨ يقول «ان حادثة الصهر هذا قد هدمت اعصابي، وصدمت نفسيتي صدمة عنيفة مفاجئة، حتى كاد ايماني بصلاح البشر يتزعزع وينهار».

اقول ومن فندق (نيورويال) وزيارة صيدح لي فيه تم التعارف عن كثب وبدأ الاتصال بصيدح يقوى شيئا بعد شيء والفضل يعود إلى الدكتور رشاد دار غوث الذي كان دليله اليّ، وبدأت المراسلة ومواصلة قراءة الجريدة التي كان يبعث بها إليّ والتي لم تخل يومذاك من بعض شعره، وشيء من تعليقاته، وما كان يمر من حوادث الغربة وأدباء المهجر، ولكن ذلك لم يكف ليؤلف جانبا من حياته وادبه، فهو شيء مقتضب وغير كاف لمن يريد ان يعرف صيدح ما لم يدر بوجهه إلى الخلف ليتم التعرف به ويكتشف موهبته وأحاسيسه في حياته الخاصة والعامة وهو بمصر، ثم وهو في فنزويلا بأميركا الجنوبية واميركا الشمالية مقيما وسائحا، وهو بسورية ولبنان عائداً، والى باريس في النهاية سكنا، وهذا ما يحتاج إلى كتاب خاص يتصدى لاخراجه الواقف على ترجمته وقوفا كاملا، والمؤهل لمثل هذه المهمة، اما انا فليس له مني غير ما قد عرفته عنه وهو يعنيني انا اكثر مما يعنيه فلعل الله يهيء له من يصوره بحقيقته ليفيد بذلك الادب العربي، والانسانية التي عرفها الناس فيه، رحمه الله وطاب ثراه.

ولد جورج صيدح في دمشق سنة ١٨٩٣ من ابوين فاضلين وكان ابوه من حكام العدل (القضاة) بدمشق، والذي يستعرض تاريخ هذه الاسرة يجد عدداً لا بأس به من المعمرين وكان منهم جده الذي تجاوز عمره المئة، فقد مات وهو ابن ١٠٤ سنوات والغريب انه كان حتى آخر ايامه من رواة الادب، والنكت، والفكاهة وكان شاعراً من كبار شعراء العامية في سوريا، وفوق ذلك كان رخيم الصوت عذبه، وبلغ من امره انه كان يتبرع

بالآذان للمسلمين من فوق منارة محلة (الخراب) في اغلب اوقات الصلاة!! فيطربون لصوته، ويتباهون بان يتصدى مسيحي ليؤذن للمسلمين من فوق منائرهم!!.

وحين شب جورج دخل كلية الآباء اللعازريين (بعينطورة) بلبنان، وفي هذه الكلية اكتشف في نفسه الموهبة الادبية والميول التي تحبب له تتبع الكتب التي تعنى بالادب في هذه الكلية، وقد عثر ذات يوم في خارج الكلية طبعاً على عدد من صحيفة (البرق) لبشارة الخوري فوجد فيه ما يلذه من الشعر والنثر والموضوعات التي تحوم حول جذور الادب والشعر العصري الرائع، ولكن (البرق) كانت من الصحف غير المسموح بدخولها إلى كلية (عنطورة) إذ كان بشارة الخوري في نظر تلك الكلية والمصبوغة بصبغة الدين كان من الكفرة المتمردين ويكفي دليلا على ذلك قول بشارة إذا لم تخني الذاكرة في درج النص الكامل فإنها لم تخني فيما جاء به من المعنى الكامل اذ قال:

قـــد رق طبعـــي ورق حـــالي ورق دينـــي ورق مـــالي

وغير ذلك مما لا استحضره الآن، وقد آل الامر بصيدح ان يشارك في (البرق) ويرشو القائم بتسلم بريد الكلية بأن يخفي له ما يصل من اعداد البرق ويوصله اليه تحت الستار ومن (البرق) تعرف صيدح بالكثير من اسماء الشعراء وقراءة اشعارهم.

ويقول جورج صيدح انه سعى مرة لزيارة بشارة الخوري (الاخطل الصغير) وهو بمكتبه المطل على (البرج) فوجد شابا انيقا يجلس على كرسي هزاز فسأله عن بشارة فقال له الشاب انه خارج المكتب فما الذي تبغي منه لكي اقوم به لك؟ فاعطاه صيدح قطعتين الشعر ربما كان من اول ما نظم جورج صيدح وقال له انهما من نظم احد زملائه بعينطورة اسمه جورج صيدح وقد ارسلها معي لاسلمهما للاخطل الصغير وهو (بشارة) فتسلمهما بشارة منه، وعندها قال له انه هو نفسه بشارة، ثم قال ولعلك انت جورج صيدح الطالب بعينطورة؟

وفي كلية الآباء اللعازاريين (بعينطورة) مكتبة فخمة كبيرة ربما حوت حتى المخطوطات النادرة، وليست هذه الكلية المسيحية وحدها التي كان لها الفضل الأكبر في حفظ التراث العربي وانما هناك اديرة منتشرة في الاقطار العربية يعود لها الفضل الكبير في جمع الكتب العربية النادرة التي ظلت تكنزها في مكتباتها، ولسنا بناكرين فضلها حين نذكر المؤسسات او الجامعات التي لولاها لضاعت العلوم العربية والتاريخ الاسلامي، مثل جامعة (الزيتونة) بتونس، وجامعة (القرويين) بالمغرب وجامع الازهر بمصر، ومدينة النجف الاشرف في العراق، وكل هذه الجامعات والمؤسسات قد تأسست وانشئت في عصر متقارب باستثناء الديارات التي كانت قد قامت قبل هذه الجامعات بقرون طويلة،

فالديارات اول الجامعات التي كان لها الفضل الاكبر في حفظ التراث العلمي والادبي الاسلامي والعربي، بسبب مكتباتها الغنية بالمخطوطات وتدارسها العميق للتراث العربي.

وقد وجد صيدح في نفسه اقبالا عظيماً على الافادة من مكتبة هذه الكلية، حتى لقد استظهر من القرآن الكريم الكثير من الآيات وتعلقت نفسه بالنبي محمد (ﷺ) وجاء ذكر النبي في مناسبات كثيرة على لسانه وشعره كقوله على سبيل المثال في عيد مولد النبي محمد (ﷺ):

زهـــت العـــــروبـــــة وابتنــــت ... للمجـــد مـــا لـــم يبـــن بـــان
تغـــزو ولكـــن حـــربهـــا بـــاســـم ... ابـــــن (امنــــة) امـــــان
العـــــدل حـــــائـــــط ملكهـــــا ... وأســـاسهـــا تقـــوى الجنـــان

إلى ان يقول:

هـــذا كيـــان العـــرب هـــل ... في الغـــرب يفضلـــه كيـــان؟
يـــا صـــاحبـــي بـــأي آلاء ... الرســـول تكـــذبـــان؟

والذي اعلمه انه كان يستظهر الكثير من نصوص نهج البلاغة وكان شديد التعلق بالامام علي (ع) ولم يكن جورج صيدح المسيحي الوحيد الذي يحفظ الجانب الكبير من القرآن الكريم، ويحفظ الكثير من (نهج البلاغة) عن ظهر خاطر، وانما قد قيل هذا عن جبران خليل جبران، وبشارة الخوري (الاخطل الصغير) وبولس سلامه، وجورج جرداق، وسليمان كتاني.

اما الملمون بالنهج الملم البحاثين العلماء من امثال الدكتور فؤاد افرام البستاني الذين ادركنا بعضهم من اخواننا المسيحيين فهم يتجاوزون حدود الحصر.

اقول فليس من المستغرب ان يقبل المسيحيون ومنهم من شيوخ الادب وجهابذة العلم، ممن خدم الاسلام والعرب وشاركوا في حفظ التراث الاسلامي والحفاظ على نصوصه، وهم مفخرة الاجيال فيما تركوه لنا من الآثار اللغوية، والقواعد التي تضبط نسق الشعر والنثر واصول البحث، ولا ننسى انهم اول من وضعوا فهرسا لمضامين القرآن الكريم وكلماته فسهل الاهتداء الى الآيات الكريمة ومواضعها من السور، بل هم اول من طبع القرآن المجيد بالحروف.

يقول الدكتور صبحي الصالح استاذ الاسلاميات وفقه اللغة بالجامعة اللبنانية في مقدمته لشرح (نهج البلاغة) «منذ تصدي الشريف الرضي لجمع ما نعرف من كلام امير المؤمنين علي عليه السلام ووسمه بنهج البلاغة اقبل العلماء والادباء على ذلك الكتاب

النفيس بين ناسخ له يحفظ نصه في لوح صدره، وشارح له بنسخ الناس عنه تفسيراته وتعليقاته، ولا يحصي الا الله عدد حفاظ (النهج) ونساخه، اما شراحه في القديم والحديث فقد اربوا على الخمسين».

ويضيف الدكتور صبحي إلى ما تقدم نقلا عن (ما هو نهج البلاغة؟ ص٨-١٠) للسيد هبة الله الشهرستاني «ان من هؤلاء الشراح - شراح النهج - القدامى ابو الحسين البيهقي، والامام فخر الدين الرازي، والقطب الراوندي، وكمال الدين محمد ميثم البحراني، وعز الدين بن ابي الحديد المدائني، وهذا الأخير هو اشهرهم جميعاً، ويعد شرحه افضل الشروح واطولها».

ولهذا تصدى العلماء والادباء إلى استظهار النهج فتعلموا عليه الادب، والحكمة ومبادىء الانسانية والمثل العليا.

وصيدح كالياس فرحات تولد لكليهما من قراءة الشعر ومن التولع بالقرآن الكريم، ونهج البلاغة شوق عارم لمدينة النجف - مدفن الامام علي - إذ يقول صيدح عن النجف:

«والنجف الاشرف الصحراوية هي في نظر العرب برج من الابراج السماوية وعندي ان كل من يحب الشعر العربي الاصيل يحب التعرف بالنجف تاريخا ماضيا ونشاطا حاضراً».

ومن اقواله في الشعر عن النجف يقول صيدح:

طال شوقي إلى النجف كعبة الشعر والشرف
يا رعى الله اهلها خلفاً عز السلف

ويبدو انه من التأثر بالامام علي سيرته وخطبه انه كان يتتبع اثاره واخباره في كل مكان وحيثما وجد وهو يقول ان هذا كان ديدنه منذ عهد الصبا، اذ يقول:

«يكفي ان تتضمن دراساتي اشياء عن سيرة الامام علي حتى تسحرني وتجذبني فلو قرأت مائة صفحة ووجدت فيها سطراً واحداً عن هذا الامام لما ندمت على القراءة، وقد تأصل هذا الشغف في نفسي منذ صباي، ونما معي عبر السنين، وقد عرفت به بين اصحابي، فلما كان جورج جرداق يؤلف وينشر كتباً عن الامام، كان يحمل إلي اولى النسخ التي تخرج من المطبعة، فاطلعت على سلسلة الكتب قبل الجميع، وكان يثير اهتمامي كل ما له صلة (بالامام) من قريب او من بعيد، فسبحان من جمع في هذا الرجل الفذ، وحيد كل العصور، كل مكارم الاخلاق وكل المواهب العقلية، وكل اسرار البلاغة البيانية، وعندي ان سيرته هي تجسيد للمثالية الانسانية، وان شخصيته هي اصفى وجه، واكمل صورة

للكمالات البشرية) فإن وجد في كلامي هذا شيء من المبالغة فلن ألام عليه لأن ذلك منسوب إلى الحب القديم الراسخ».

وصح ما يقول صيدح عن تتبعه بسيرة الامام علي (ع) اينما وجدت، وقد كتب لي مرة يقول هل قرأت ارجوزة امير الشعراء احمد شوقي عن الامام فإذا لم تقرأها فانا استظهرها عن ظهر قلب وارددها على نفسي إذ يقول شوقي عن علي:

العمـــران يـــأخـــذان عنـــه والقمـــران نسختـــان منـــه
اصـل النبـي المصطفـى وفـرعـه ودينـــه مـــن بعـــده وشرعـــه
يـا جبلاً تـأبـى الجبـال مـا حمـل مـاذا رمـت عليـك ربـة الجمـل
مـالـك والنـاس؟ أبـا تـراب ليس الذئـاب لـك بـالاتـراب

ثم يختم صيدح هذه الابيات بقوله (صدق الشاعر العظيم).

هذا بعض ما اكتسبه من مطالعاته في مكتبة الآباء اللعازاريين، ولما كان موهوباً بالفطرة فقد صقل موهبته بالعكوف على القرآن الكريم، وقراءة نهج البلاغة للامام، وحفظه وما تيسر له من قراءة الشعر القديم والحديث، والوقوف على تاريخ الادب وهو لا يزال طالبا بكلية (عينطورة) حتى إذا اتم تعليمه وتخرج في هذه الكلية سنة ١٩١١ كان له ما يؤهله لأن يكون شاعراً ملما بفنون الشعر، ومحيطا بقواعد اللغة على اكبر قدر بالنسبة لامثاله، واراني هنا قد اطلت الكلام في هذا المقام ولكن ما ذنبي وان جورج صيدح هو الذي كان يطيل الكلام في هذا الموضوع بشعره ونثره.

ويعود صيدح الى دمشق ليعمل مع اسرته في التجارة، ولكن اسرته كانت قد انتقلت إلى القاهرة فترك دمشق في سنة ١٩١٢ اي بعد تخرجه في الكلية بسنة واحدة ملتحقا باسرته ليعمل هناك في تجارة القماش (بزازاً) ويودع دمشق بقصيدة تعبر عن مبلغ تعلقه بدمشق ويقول فيها:

وداعاً دمشق الشام، لـو تـرفـق النـوى لأورق عـودي فيـك وانعقـد الزهـر
وانـي لطيـر مـن طيـورك لـم تـزل تجـاذبنـي تلـك الحـدائـق والنهـر

ويوفق في عمله التجاري في القاهرة، ويمتلىء شبابه بالمغامرات الغرامية حتى لقد كانت له قصيدة رائعة من ادب الجنس المكشوف لم تنشر من قبل ولا يمكن ان تنشر اليوم بالرغم من وجود الفارق العظيم بين الامس واليوم من حيث الحرية والصراحة.

وكان صيدح انيقاً في شبابه يعطي نفسه لذائذها من المأكول والملبوس والعيشة الرفيهة، وكانت له يومذاك سيارة خضراء اللون في وقت لم يكن بوسع كل احد ان يملك

سيارة خاصة، وقد ظل هيكلها قائماً في طريق الهرم حتى السنين الأخيرة بعد ان تحطمت، ثم اصيب بخسارة فادحة ربما كان سببها كثرة انفاقه على نفسه وعلى هواياته الجنسية وعلى الغير من الناس، اقول على غيره لأنه كان كريم النفس، سخياً، لا يمنعه مانع من ان يجود بكل ما هو تحت يده، وقد قال عن مصر وهو في مثل هذه الحال من تغير الاحوال:

فما انا راض عنك ان حفني الغنى ولا انا ماض عنك ان عضني الفقر

ومع ذلك فقد مضى عنها واضطر في سنة ١٩٢٥ إلى الهجرة إلى اوروبا، وله قصيدة عنوانها (بالتاجر الخاسر) يلمس فيها القارىء العامل الكبير في خسارته وهو سخاؤه وكرمه اذ يقول فيها:

دونكم ماله فلا تذكروا عرضه بذم
ان تظنوه مذنباً فاجعلوا ذنبه الكرم
ان حبست الدموع كبرا بكى القلب والقلم

وحين فارق مصر إلى اوربا ضاقت الدنيا في عينيه ولم ينجح في مسعاه التجاري وظل يذكر مصر في كل مناسبة فيقول مثلا:

اوبعد مصر يطيب لي عيش ويصفو مشرب؟
هيهات ان يستعذب اللذات من يتعذب

ويقول منها:

ثقلت على نفسي الحياة وضاق فيها المذهب
لا مال، لا آمال، لا هدف يلوح فاطلب

ومع ذلك فقد كانت له مغامرات غرامية بباريس بعد انتقاله اليها من (نيس) تركت اثرها في شعره في الثمانينات، حين عاد إلى باريس بعد فراق دام نحو اربعين سنة ليتخذها مسكناً لشيخوخته وبقية عمره وكان يشعر بالغربة ويحن إلى سورية ولبنان، وفي ذلك الوقت اي في سنة ١٩٧٠ كان وديع فلسطين ولم يزل حتى مات صيدح الصديق الاحب إلى صيدح من جميع الاصدقاء، اقول كان وديع يعمل في احدى شركات النفط بليبيا ولم يكن يقل شعوره بالغربة والحنين إلى مصر من صيدح، وكان من جراء هذا الشعور، شعور صيدح ووديع ظهور قصيدة عامرة سماها صيدح (ببنت باريس) واهداها إلى وديع (امام الكاتبين) وعبر في هذه القصيدة عن احاسيسه وذكريات شبابه، ومغامراته الغرامية يوم كان شابا بباريس خير تعبير وقد خاطب فيها وديعا في بعض ما خاطب قائلا:

انا في بلدة وانت باخرى تتحرى في الكون ما أتحرى

وكلانا يعود بالكف صفرا خائبا يقتدي (بابوب) صبرا
ويحنا لم ننل على الصبر اجرا كان فرضاً نزوحنا، كان جبرا

إلى ان يقول:

غير انني اشتمُ في الجو عطرا عطر باريس ان في فيه سحرا
يوقظ الجوع، يقذف الدم جمرا كل عهر وشى به ليس عهرا
انه من لبانة العمر ذكرى في لياليه كان نجمي بدرا
كم تبذلت ـ والصبا كان عذرا وتدفقت (من جيوبي) نهرا
ارشق الحسن بالنضار فيعرى ثم اسطو على الحمائم صقرا
عائثا في الوكور وكراً فوكرا كم تشبهت بالنواسيّ فجرا
فتركت الحياء والدين (برا) وتهالكت في المواخير سكرا

ثم يقول:

بنت باريس، انت بالحب ادرى حاذري الشيخ ان تأبط شرا
شعري، ابيض ونفسي خضرا رغم انني أجر ساقي جرا

ويبدو ان نفسه كانت خضراء حقيقة وليس من باب الشعر والخيال فقد بعث لي وهو في الثمانين بمقطوعة الشاعرة المبدعة (علية الجعار) التي نشرتها في مجلة (شعر) التي تصدر في القاهرة بعدد اكتوبر من سنة ١٩٧٦ التي تقول فيها:

والله احبك لا تقلق دع شيبك يسفر يتألق
حبي شلال جبار في عمق شعوري يتدفق
لا يوقفه عمر بجري او فجر في شعرك اشرق
اهواك وحبي يتسامى عن كل غرام... يتفوق
لن تعرف اخلص من قلبي في حبك ما عشت، واصدق
ملكتكَ روحي وحياتي فلغيرك وحدك لم اخلق

وكتب لي تحت المقطوعة كلمة يقول فيها عن علية «يسلم فمك فما اخف دمك يا علية».

ولقيت قصيدة صيدح (بنت باريس) اعجاباً كبيرا من جميع الشعراء، وفي مقدمتهم نزار القباني الذي هو اعرف من غيره بقيمة هذا اللون من الشعر، واحدثت بين صيدح وصديقه الحميم الدكتور سليمان داود فجوة عميقة وجفوة كبيرة، ادت إلى ان ينسى الدكتور سليمان تلك الصداقة ويهاجم صيدح، ويحاول استعداء البعض على صيدح لا لشيء

الا لأن صيدح عبر عن إحساسه وشعوره (ببنت باريس!؟) ولقد حاول الدكتور سليمان ان يجرني الى جانبه فرآني من المعجبين بهذه القصيدة فتركني...»

ويقول صيدح عن غضبة الدكتور سليمان داود:

«... ان الضرر الوحيد الذي لحقني من هذه القصيدة هو خسران ولاء الدكتور سليمان داود الذي غضب علي غضبة عنترية، وحذرني من العودة الى هذه الموبقة، وهذا الخرف المعيب!! وقد صدق بأنه شاعر، وبأنه عميد، لأني مع امثالي وامثالك من الادباء الافاضل احبوه، ووجدوا في استحسان شعره وسيلة لادخال المسرة إلى قلبه فكانت النتيجة غروراً جامحاً لا يكتفي بالاعتداد بالنفس بل يستحق التطاول على الغير هداه الله». وفي قول صيدح هذا شيء كثير من الحق.

وفي سنة ١٩٢٧ وهو بباريس تعرف صيدح بفتاة فرنسية وتزوج بها وهي ام ابنته الوحيدة وكانت اية في الاخلاص والوفاء.

ومن باريس انتقل بزوجته إلى اميركا الجنوبية واختار (كراكاس) عاصمة فنزويلا محلا لتجارته، ولم يلبث قليلا حتى عرف في الاوساط التجارية كتاجر مرموق وهو وان غرق في البيع والشراء حتى شحمة أذنه فانه لم ينس وجوب اشباع هوايته الادبية من شعر ونثر، فنظم كثيراً هناك ونشرت له الصحف العربية في المهجر ولا سيما في (سانباولو) في البرازيل، و(بونس آيرس) في الارجنتين قصائد لفتت اليه الانظار، وانشأ هو في فنزويلا مجلة باسم (الارزة) كما انشأ فيما بعد جريدة في الارجنتين باسم (الرابطة الادبية) واسم (الرابطة) هذا قد اقتبسته جميعات عربية في معظم الاقطار العربية، ولا يزال هذا الاسم مقتبساً من (الرابطة القلمية) التي اسسها جبران خليل جبران ورهطه بنيويورك، وصار لجورج صيدح شأن كبير في الاوساط التجارية والادبية في (كراكاس) بل صار عميداً للجالية السورية واللبنانية خاصة بل وكل المهاجرين العرب عامة، ونقل لي رامز مكارم الذي التقيته بسوق الغرب وهو ابن شقيق الشيخ نسيب مكارم الذي يقيم في فنزويلا اليوم، وكان من اعز اصدقاء صيدح لقد نقل لي (رامز) انه ما من مشكلة تحدث لأحد من الجوالي العربية في فنزويلا الا وكان حلها على يد صيدح، وكانت لصيدح لدى السلطات الفنزويلية مكانة محترمة طالما خلص بسببها الكثير من العرب المهاجرين من سجن التوقيف، بل كثيراً ما دفع من كيسه الغارمة ليخلص الغريم من غرمائه، وهو حين دخل كراكاس في سنة ١٩٢٧، لأول مرة بهره منظر البلد واستبشر خيراً وكان ان قال في بعض ما قال:

وكان الصباح، وكان الاقاح ... يزين البطاح بعقيانه
وكان النسيم نديا رخيم ... يرف النعيم بأردانه

ثم اثرى ثراء كبيراً، وبدأت تظهر مزايا صيدح الانسانية، وما جبل عليه من سخاء، وما كان ينفق في مساعدة الذين هاجروا ولم يوفقوا في اعمالهم، وكثيرا ما كان يعالج المرضى على حسابه، وكثيرا ما كان ينفق على دراسة المحتاجين، وكان هذا ديدنه النسبي حتى مات بباريس.

وكان المال يفيض بين يديه يومذاك فيضاً حتى لقد قيل انه امتلك بئر نفط او انه امتلك حصصاً في احدى شركات النفط، وقد اشرت ذات مرة في احدى كتاباتي عنه إلى ذلك فكتب لي ينفي ما يشاع عنه ويقول:

«... واني كسائر المهاجرين العرب، تجار، وعيال على ارباب النفط، نعيش دوماً، ونثرى احيانا بما يفيض علينا من آبارهم نقاطا، وانا في احسن حالاتي كنت في اسفل درجات السلم بين الاغنياء في عهدي، وحين نكبت في آخر عام من تجارتي هبطت من صف الاغنياء الى صف المكتفين، المستورين، املك ما يضمن كرامتي، ويحقق امنيتي من عمل المعروف في حدود طاقتي، فان حسبني البعض حاتم زمانه فسر ذلك ان عنايتي توجهت شطر الادباء والصحافيين الذين يفتقرون الى مؤسسات لتأويهم وتسعفهم بما يصون ماء وجوههم فقاسمتهم امكاناتي الضئيلة، فصوروها للناس جزيلة جليلة، هذه هي الحقيقة والله على ذلك شهيد».

ويتسنى له وهو في فنزويلا ان يقوم برحلات واسعة استجابة لدعوات متعددة طالما وجهها له معارفه من الادباء والوجهاء بالاضافة إلى رغبته الذاتية في القيام بمثل هذه الرحلات لزيارة رهط من الادباء والشعراء والتجول بين الجوالي العربية الذين تضمنت طائفة من أشعاره جانبا من ذكرياتهم، وكان ان بدأ هذه الرحلات برحلة إلى الولايات المتحدة تلبية لدعوة تلقاها لزيارة (معرض دنيا الغد) بنيويورك، فوجد من الجوالي العربية هناك ترحيبا حارا، ونشر في (السمير) جريدة ايليا ابي ماضي قصيدة رائعة، وكتب عليه (ابو ماضي) كلمة في السمير قال فيها:

«اخذت بابل الجديدة، بعد ان لبست حلاها وجواهرها بل حلي العقل البشري الجبار (بالمعرض) الذي قام فيها - تجتذب إليها الناس من كل قطر حتى الشعراء الذين يهربون من المدائن ليكونوا مع انفسهم، ومع ربة الالهام، فقد جاء إلى (نيويورك) من (كاراكاس) - فنزويلا - صديقنا الشاعر الملهم صاحب القصائد الرائعة جورج صيدح مع قرينته المهذبة (انطوانيت) وطفلتهما الجميلة (جاكلين) التي نشرنا له فيها قصيدة من اجمل الشعر - وهو يشير إلى قصيدة صيدح في عيد ميلاد ابنته التي يقول فيها:

أتـــراهـــا خيـــرت في خلقهـــا فـــأتـــت كـــاملـــة الحســـن المبيـــن
ام بـــراهـــا اللـــه مـــن ذوب السنـــا وبنـــات النـــاس مـــن مـــاء وطيـــن؟

ويذهب (ابو ماضي) في كلمته فيقول:

«وهذا البلبل (الصيدح) من أكابر شعراء العربية في المهجر على قلة نظمه - وكان صيدح يومذاك قد شغلته التجارة من كثرة النظم التي عرف بها فيما بعد وحين تفرغ واعتزل العمل - فإن له قصائد خالدة، اشهرها قصيدة في غابة بولونيا، وعلى رغم الهجر والترك فإن شاعريته لم تفقد لمعانها».

ويستمر (ابو ماضي) ويقول:
«واشد ما كان ابتهاجنا عندما دخل صيدح إلى ادارة (السمير) فجأة فرأيناه لا يزال في ثوب الشباب والقوة، وقد عرفنا منه انه سيلبث في نيويورك مع اسرته شهراً ثم يسافر إلى باريس للسياحة والنزهة، وسيقرأ الناس له قصيدة في (السمير) في وصف نيويورك وايامه فيها منذ عشرة سنوات ثم في حياة المهاجر القائمة على الكفاح والتناحر، فنرحب بالشاعر الملهم الصديق المحبوب».

واقيمت لصيدح حفلة تكريم بنيويورك من لدن الجامعة العربية والقى صيدح فيها قصيدة عامرة عبر فيها عن خوالجه الصادقة بحب العروبة ونزعاته الخفاقة بالاشواق فقال يخاطب المكرمين له من الادباء:

كـم زرتكـم فكـرة والنفس في شغـف الى التعـــارف والاشـــواق تصبيهـــا
حتـى ظفـرت بـايـديكـم تصـافحنـي وتنثنـــي وفـــؤادي في مثـــانيهـــا
هـي العـروبـة في انقـى مظـاهـرهـا هـي المروءة في ارقـى مجـاليهـا

ويقلع من نيويورك إلى باريس، ويودع نيويورك او قل يودع الشعراء الذين أغنوا الشعر العربي بالجديد من الافكار والمعاني ويخص منهم (ابا ماضي) و(رشيد ايوب) بقصيدة ينظمها في الباخرة، ثم يعود من باريس إلى فنزويلا.

وتتوسع في هذه المرة تجارته اكثر واكثر، ويشتهر باحسانه الى جانب شاعريته الفياضة، ويلمع نجمه، ويتردد اسمه بين جميع الجوالي كصانع معروف، وكشاعر وطني مخلص للعروبة، وتعبر شهرته هذه إلى جميع البلدان العربية، وان شخصيته تبلغ مثل هذا المقام في عالم الشهرة من حيث المعنى، والسخاء، والادب لا بد وان تخلق لها منافسين، وحاسدين، وكائدين، لا سيما إذا اصطدمت هذه الشخصية بمصالحهم الخاصة، وهذا ما حصل فعلا، وكان على صيدح ان يتخذ الحيطة لنفسه من خصوم كانت نفوس بعضهم

تموج بالشر، وتغلي بالحقد، ولكن صيدح لم يفعل ذلك، وكان ان اكتوى بنار الخيانة والفتن، واتسع الخرق وانقسمت الجالية الى احزاب، وعملت الوشايات في نفس الحكومة (الفنزويلية) عملها ضده، وهو متكل في كل ذلك على الصفاء الذي عرف به، واشتدت الازمة بسبب ائتمار خصومه به وحلت به كارثة ذهبت بالقسم الاوفر من ماله، ونكدت له عيشه، وضيقت عليه حريته حتى اضطرته إلى ان يصفي اعماله التجارية بعد قضاء عشرين سنة من العمل المضني، المتواصل ويغادر (كراكاس) مصوراً ما حل به في قصيدة باسم (المحنة) نشرتها له جريدة (السمير) في سنة ١٩٤٣ جاء فيها:

ان رأيــــت الحـــق يخشى بـــاطلا وسمعـــت الحمـــد للجـــور المشيـــن
فـــاهجــــر الدار وجـــانـــب اهلهـــا لا يقيـم الحـــرُ بيـــن الخـــانعيـــن

ويعلق ابو ماضي على هذه القصيدة ويقول:

«هذه القصيدة المحرقة الكاوية التي جاءت مجردة من كل تعليق أو اشارة أو تفسير، وهي التي اشرنا إليها امس، هذه ليست قصيدة ولكنها حكاية مأساة هائلة فظيعة نزلت بالشاعر، فإن من قرأ شيئا من قبل لناظمها الشاعر المبدع جورج صيدح او عاشره ولو قليلا يعرف ان الشكوى ليست من طبعه، وان اجفانه ابخل ما تكون بالدمع، ولكنه في هذه القصيدة يشكو شكوى مريرة هي اشبه بصراخ اسد طعين، او نسر جريح، هو صراخ الكريم غدر به لئيم، وشكوى محسن قوبل على جميله بالعقوق والاساءة، وهي كذلك شكوى نفس رفيعة راقية مشى إليها اللؤماء بالنكاية، وداروا حولها بالوشاية فكدروا مشربها، ونغصوا عيشها، وكم اتت الاساءة من اللؤماء، وكان ضحاياها الابرياء، ويسوء (السمير) التي كانت تعلل النفس بالحصول على قصيدة ضاحكة راقصة من هذا الشاعر الفذ ان تحمل اليوم الى قرائها هذه القصيدة المتجهمة الشاكية التي تكاد قوافيها تتطاير شواظاً يحرق اهل الظلم والبغي، ويكاد القارىء يلمس وراء كل حرف صورة مأساة وجيعة دامية، فيا دمعة الشاعر ما اغلاك، ويا نفس الشاعر ما اطهرك، ويا ايها الجانون على هذا الشاعر ما احقركم في عين السماء؟ وما ابغضكم إلى الارض التي تمشون فوقها؟! كشف الله عن الشاعر هذه الغمة، واخرجه من ليلها كالبدر سنياً مشرقاً، ولعلنا لا نلبث ان نسمع ان المكر السيء قد حاق باهله، ونجا هذا البلبل الصداح من محنته، وعاد إلى الغناء طروباً».

وابو ماضي، كما يعرف اهل المعرفة قد اغنى الشعر العربي في عصره بالصور الشعرية، والافكار المبتكرة، لذلك يعد رأيه في صيدح من حيث الشاعرية ذا اهمية جد كبيرة.

وصيدح الى جانب كونه صناجة العرب في شعره، فهو نقادة بارع يعرف كيف يغربل الشعر وينخله، ويعزل الزوان من القمح ويعين موطن البركة في الحبة وتظهر ملكته هذه في الرسالة التي كتبها للدكتور عبدالله الجبوري ونشرتها مجلة «الكتاب» تعليقاً على ما جمع وحقق الدكتور عبدالله الجبوري من اشعار ابي الشيص الخزاعي الشاعر البارع الموصوف في براعة التصوير والابتكار، والمجهول نسبياً في بعض التراجم فاضاف «الجبوري» حسنة أخرى إلى حسناته الجمة بتصديه لجمع شعر ابي الشيص وتحقيقه اذ يقول صيدح فيه:

«فأقول انك أفدتني كثيراً (افادك الله اكثر) بأن عرفتني بشاعر عظيم اردد شعره وأجهل اسمه وشخصيته وسيرته، فكم تغنيت بابيات من الدعدية وبمقطوعة (وقف الهوى بي حيث انت) وبنكاتٍ كالتي اوردتها في صفحة/ ٣٦ وصفحة/ ١٠٧ دون ان اعرف اسم الشاعر الذي نظمها.

الآن صرت ملماً بعظمة شاعريته واصالة موهبته ومجالات عبقريته، اتمثله أمامي وأنا أقرأ قصائده كأني عاصرته وعاشرته، وما ذلك الا بفضل تحقيقك الدقيق واصرارك على تتبع آثاره وضبط أشعاره عبر مختلف الروايات وفوضى الاسانيد، كأنك آليت أن تنصفه وهو رميم فتعطيه الشهرة الواسعة التي لم ينلها في حياته وهو بها جدير، ومن حسن حظه (المتأخر) ان يقع بعد قرون في يد كريمة كيدك، وفي وجدان أديب منصف حساس كوجدانك فينبه ذكره ويعلو قدره بعد مئات السنين في القرن العشرين.

مجهودك الكبير في هذا الكتاب لا يعلق عليه الا بالثناء والاعجاب دون دراسة أو تحليل، اذ انك في سعيك الحثيث وراء الشواهد والشوارد خلال العشرات من المراجع لم تترك قولا لقائل ولا زيادة لمزيد واني لأقف مذهولا أمام (جريدة المصادر والمراجع) التي درستها واستغرقت لائحتها ١٤ صفحة في آخر الكتاب، أنا لم أقرأ كتاباً واحداً من التي ذكرتها، وتراني الآن حزيناً على جهلي الفاضح لتاريخ لغتي وآدابها، (ورغم ذلك تحتج أنت على مؤلف يغفل ذكري بين أدباء العصر)[1].

اذن، فكلمتي الوحيدة هي الشكر على هديتك والتهنئة بنجاح عملك، كما اني اهنيء المطبعة على اتقان الاخراج، لا على التصحيح الذي فرضته عليك المعالجة الاخطاء المطبعية انها كثيرة، وأنت تنبهت إليها جميعا ما عدا شطر واحد في صفحة/ ١١٠ السطر ١٤ (إذا ما مات بعضك فابك بعضا) واني أتساءل لماذا يتهافت شعراء العراق على مطابع

---

(١) إشارة إلى اغفال الدكتور شوقي ضيف للشاعر صيدح، في كتابه: دراسات في الشعر العربي المعاصر.

بيروت لنشر دواوينهم وعندهم هذه المطبعة وهذه الامكانيات؟..

ولماذا اخونا جعفر الخليلي يتكلف مشقة السفر إلى بيروت والاقامة الطويلة فيها للاشراف على طبع سلسلة العتبات المقدسة ما دامت مطبعة البيان في بغداد مؤهلة لهذه المهمة؟ اما ما آخذه عليك فهو ترتيب القصائد حسب أحرف الروي وليس حسب موضوع الشعر الذي هو الأهم، ترى هل الكتاب مرشح للتدريس في المعاهد حتى انك تدل القارىء على بحر كل قصيدة؟

وقبل ان اختتم الرسالة دعني، أدلي برأيي بالشاعر المدروس.

انه شاعر من طبقة عالية، طبقة أصحاب المعلقات، وقد يمتاز عليهم بدقة الوصف، ولكنه يقصر عنهم في الانفعالات العاطفية، فلا نتأثر بشعره ونتجاوب معه كما نتأثر ونتجاوب بمقاطع من شعر امرىء القيس وعنتره وعمرو بن كلثوم، شيء من الجفاف يبعدنا عنه، ويبقى رغم ذلك الشاعر الوصاف الأول جولة سريعة في قصائده تدلك على مواضيع اعجابي بهذا الشاعر القديم الجديد:

دمـــوع العـــاشقيـــن إذا تلاقـــوا   بظهـــر الغيـــب السنـــة القلـــوب

(صفحة/ ٢٥)

عجيب ان يرق هذا الشاعر الخشن إلى حد قلما بلغه شاعر معاصر.

(صفحه/ ٤٢). القصيدة الدعدية او اليتيمة، يندر بين حافظيها من يعلم انها لابي الشيص الخزاعي، انها على لسان كل مراهق من طلبة العلم على مقاعد المدارس، أما النزاع الدائم حولها، فلأن بيئة الشاعر استكثرتها عليه في زمانه، وعلينا نحن في زماننا ان لا نستكثرها عليه وأنا بعد التروي في أساليب هذه القصيدة المتنوعة، أؤمن بأن معظمها من نظم أبي الشيص وكل من ادعاها بعده اضاف اليها أبياتاً من عنده، فأصبح الرداء الواحد نابيا لاختلاف الألوان في الرقع اللاصقة به.

بداهة ان الشاعر الذي قال:

لهفـــي على دعـــد ومـــا خلقـــت   الا لطـــول بليتـــي دعـــد

هو غير القائل: ولها

فـــاذا طعنـــت طعنـــت في لبـــد   واذا انسللـــت يكـــاد ينســـد

وغيرهما هو القائل:

متجلبـــب ثـــوب العفـــاف وقـــد   غفـــل الرقيـــب وأمكـــن الورد

هذا الاقحام يذكرني ببيت ورد في معلقة عمرو بن كلثوم:

ملأنـــا البـــر حتـــى ضـــاق عنـــا   وظهـــر البحـــر نملـــؤه سفينـــا

ولا يعقل ان هذا الشاعر الصحراوي المغوار (كما هو في صدر البيت) يتحول الى خوآر (كما هو في عجزه) فيدعي السيادة على الابحار، ولما يعرف في دنياه سوى الآبار، أو على أبعد تقدير، الغدران والانهار، فالشاعر الذي غطى وجه البحر بأساطيله هو فنان غير: ابن كلثوم تقمص روح نابليون ونيلسون معا، وهام في عالم الرؤى والاحلام ومثله فعل الشعراء الدخلاء على دعدية ابي الشيص..

وبعد تقليب صفحات قليلة أجد أبا الشيص في ميدان جديد يطرق بسذاجة الطفل وحنان الام، هو ميدان الاخوانيات، حيث التعاطف في ابسط وأصدق تعابيره فيقول (صفحة/ ٥٣):

نفسي فـــداء لـــك مـــن زائـــر ما حـل حتـى قيـل قـد سـارا
مـــر ببـــاب الدار فـــاجتـــازهـــا مـــا ضره لـــو دخـــل الدارا؟

وأجده بعد صفحات في مجال الغزل متأنقا متفننا حين يصف أرق العاشق الولهان. (صفحة/ ٦٨):

وللهـــوى جـــرس ينفـــي الرقـــاد بـــه فكلمـا كـدت أغفـي حـرك الجـرسـا

أنها لصورة مبتكرة، يخيل إلي أنه لم يسبق إليها، ومثلها صورة الركب الذي قطع المهامه منهوك القوى سعياً إلى باب ممدوحه (صفحة/ ٧٣).

اكـل الوجيـف لحـومهـا ولحـومهـم فـــأتـــوك انقـــاضـــا على أنقـــاض

وفي (صفحة/ ٨٧) تجد شاعر الفكرة في مقطوعة الغراب الذي يفرق الاحباب كما شاع وذاع بل يقول:

مـــا فـــرق الاحبـــاب بعـــد اللـــــه الا الأبـــــل

ويبلغ ذروة الابداع في صورة دقيقة تمثل مشهدا من مشاهد الحياة الواقعية بخطوط فنية: (صفحة/ ٩١):

ونظـــرة عيـــن تعللتهـــا حـــذارا كمـــا نظـــر الأحـــول
تقسمتهـــا بيـــن وجـــه الحبيـــب وطـــرف الرقيـــب متـــى يغفـــل

لله دره من رسام ماهر، ان ابن الرومي وأبا نواس يحسدانه على هذه النظرة الماكرة، وفي (صفحة/ ٩٥) اقرأ قوله:

كم مـن سريـرة حـب قـد خلـوت بهـا ودمعـة تملأ القـرطـاس والقلمـا

فتشجيني دمعته الأبية المستترة كدمعة ابي فراس وانقض ما قلته عن (الجفاف) في شعره وفي طبعه في مطلع الحديث، وكما ذكرني بابي فراس هنا، ذكرني بعمر ابن ابي

ربيعة، حين قال (صفحة/ ٩٠):
إذا جئت يرقعن الكوى بالأعين النجل

معنى أخذه عن عمر، زير النساء ومعشوق الغواني ما أظنه يصدق على ابي الشيص، الذي لم يشتهر شهرة عمر في الحسن والفروسية والمغامرات الغرامية، على ان التشبه بالكرام ليس جريرة يؤاخذ عليها، فنحن لا نؤاخذ حافظ ابراهيم الذي تشبه بابي الشيص.

وبعد، فقد قمت بهذه الجولة على غير هدى ولا نظام في (اشعار أبي الشيص) فطالعتني فنون متنوعة من جمالات الشعر الجزل الرصين، وتعددت أمامي مناحي الابداع فلم أدر بأيها أميزه وانعته، وفي أي مرتبة أضعه وهنا الذوق يلعب دوره وتختلف احكامه، وحسب كل قارىء أن يستلم الى تأثير الشعر في شعوره، كما فعلت فيوقن بأن أبا الشيص شاعر من أقوى الشعراء بيانا وأرقهم جنانا، وبأن شعره من التراث العربي الغالي الثمين...!.

باريس
جورج صيدح

ومنذ سنة ١٩٤٥ طلق صيدح العمل في التجارة بعد جهود استمرت عشرين سنة متواصلة في فنزويلا، تلك السنين التي كثيراً ما حالت دون ما كان يريد من انطلاق الفكر وتدفق الشعر، وفي هذه السنين العشرين يقول صيدح:
عشرون عاماً ليتنني ما عشتها كيلا تعدّ علي في الاحقاب

وخرج مستجيبا للدعوات الكثيرة التي تلقاها من مختلف الجهات، وقام بزيارة نيويورك مرة أخرى، ولبى دعوة وجهت إليه في الارجنتين، واحتفي به هناك، وكثرت المآدب التي اقيمت على شرفه كما كثر الشعر الذي قيل فيه، وراقه جو الارجنتين الادبي فحط رحاله في (بيونس ايرس) واتخذ له منها مسكناً واصدر هناك جريدة باسم (الرابطة الادبية) كما مر.

وهنا بدأت الدعوات تلح عليه بالعودة الى (كراكاس) حتى من لدن الذين خاصموه ونصبوا له الشباك ليوقعوه في المشكلات، وكثر هذا الاصرار والالحاح للتكفير عن ذنوبهم حتى اضطر إلى ان يعود إلى فنزويلا ولكن للتوديع وليس للاقامة، وبالغت الجالية العربية في تكريمه بعد ان غاب عنها خمس سنوات، وفي حفلة تكريمه الكبرى بكراكاس انشد قصيدته التي يصف فيها عودته ويقول...:
عاد وفي عينيه طيف الذهاب وفي يديه الكأس شهد وصاب

عـــاد ومـــا غيـــر طـــول النـــوى ممـــا عـــرفتـم فيـه غيـر الثيـــاب
صـــب مـــديـــن لكـــم دائـــن في هـــذه الليلـة صفـــى الحســـاب

وعبثاً كان اصرار الجالية العربية على بقائه في (كراكاس) فقد كان قد صفى حسابه مع الجميع كما قال، وخرج مودعاً بالاعتذار من خصومه الذين حاربوه.

وفي (سانباولو) بالبرازيل كان لصيدح شأن كبير في نفوس تلك الجمهرة التي خص صيدح فيما بعد معظم محاضرته التي القاها بمصر عن ادب المهجر بهم، هذه الجمهرة التي مثلتها العصبة الاندلسية في البرازيل مثلما مثلت (الرابطة القلمية) في نيويورك اولئك الجهابذة الذين لم يبق منهم اليوم غير ميخائيل نعيمة بارك الله في عمره.

****

وفي سنة ١٩٥١ اوفد (الجنرال بيرون) رئيس جمهورية الارجنتين حينذاك مندوبا فوق العادة في مهمة خاصة إلى رئيس الجمهورية السورية فقد كانت هناك روابط جد متينة بين الارجنتين وسورية وقد عززتها الجالية السورية التي كانت تقيم في الارجنتين وقد وفق الكثير في عمله التجاري منهم، ولا تزال هذه الجالية بخير هناك، وقد ارتؤي ان يوفد مع المندوب جورج صيدح تعزيزاً لهذا الايفاد، فكان ان ترك صيدح المهجر نهائياً بعد ان امتدت غربته ٤٠ سنة وقد أم دمشق بعد تلك الغيبة الطويلة واحتفي به في دمشق احتفاء كبيراً، واقيمت له حفلات تكريم متعددة كان من بينها حفلة (النادي العربي) التي انشد فيها صيدح قصيدته المشهورة والمعنونة (بأم النسور) كناية عن دمشق وافتتح هذه القصيدة بقوله:

ام النســـــور تفـــــرسي وتـــــأملي أعـــرفـــت وجـــه القـــادم المتهلـــل

وبعد ان اقام مدة بدمشق غادرها إلى بيروت ليقيم فيها وكان ذلك في سنة ١٩٥٢، وكثر شعره الذي خص به سورية، ولبنان، وفلسطين بصورة أخص، واتسعت شهرته، وعرفه عن كثب من كان لم يعرفه الا بالاسم (وصدق الخبر الخبرا).

وفي سنة ١٩٥٦ دعي صيدح لمصر لالقاء محاضرة وافية عن أدباء المهجر بصفته اخبر الواقفين على شعر المهجر وسيـرة شعـرائـه، وبكـونـه أفهـم الشعـراء بمغـازي اشعـارهـم واغراضها، فكان ان القى هذه المحاضرة التي تألف منها فيما بعد كتابه الفخم الجليل باسم (ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية) الذي اصبح المرجع المهم لدراسة هذا الادب العامر بالصور الشعرية، وقد اعيد طبعه اربع مرات ولسنا نبخس كتاب محمد عبدالغني حسن، ولا كتاب الدكتور عيسى الناعوري حقهما فلكل منهما شأن كبير في هذا الميدان، ومن

قبلهما كانت محاولات مقتضبة ظهرت آثارها في كتاب (بلاغة العرب في القرن العشرين) وفي كتاب (ما وراء البحار) وغير ذلك من الرسائل والمقالات، الا ان كتاب (صيدح) كان اوسع كتاب كتب على ادب المهجر.

وأحدثت محاضرة صيدح عن (أدبنا وأدبائنا في المهاجر الاميركية) ضجة كبرى في المحافل وفي الصحف، وكان ان قام عزيز اباظة بحملة شديدة على أدب المهجر ناسيا هذه الأفكار الجديدة التي طعّم بها أدباء المهجر الشعر العربي، والصور التي ابدع في تصويرها جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وابو ماضي خاصة وغيرهم في اميركا الشمالية، والافكار التي نسجها الياس فرحات، ورشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) وآل معلوف وغيرهم في اميركا الجنوبية، وان ما جاء في حملة عزيز اباظة من حق لم يكن كافياً ليغطي هذه الفضائل التي تجلت في شعر شعراء المهجر.

ولست ادري كيف يستطيع القارىء ان ينسى الموجة التي جاءت تتهادى موجة بعد موجة في (ماذا تقول الساقية) لجبران خليل جبران؟ وان ينسى خشوع الشاعر المبتهل في (ابتهالات) ميخائيل نعيمة؟ و(قطرة الطل) و(الطلاسم) لايليا ابي ماضي؟ وهيكل الحب في (خصلة الشعر) عند الياس فرحات؟ والشعور المهيض الجناح (بين البشر والبقر) عند الشاعر القروي؟ وينسى ما ابدع العشرات من ادباء المهجر في قصائدهم التي تفوح بالعطور والاريج الذي لم تعهد هذه المشام من قبل إلا نادراً وبين فترات من السنين.

صحيح انه قد كان في كل قطر عربي شعراء عباقرة، وكتاب نبغاء لهم قيمهم ومكانتهم في عالم التجديد في الادب من حيث الافكار، ولكن الادب العربي من وجهته العامة كان لا يزال ادباً كلاسيكيا في طريقة التصوير والكلام وما يتعلق به من الجناس، والاستعارة، والوصف، فلم يعهد الادب العربي باستثناء العباقرة النبغاء، مجموعة كاملة تنحو نحو التجديد كهذه المجموعة التي تحدث عن بعضها جورج صيدح في كتابه (ادبنا وادباؤنا).

ووديع فلسطين مثلي يحب الشعر المهجري وعلى الاخص شعر فرحات، والقروي وشفيق معلوف، ولدى جورج صيدح مجموعة وافية من الرسائل التي كان هؤلاء الشعراء وامثالهم من شعراء المهجر يراسلون بها صيدح، وقد جمعها صيدح كلها وارسلها الى وديع فلسطين، وان لدى وديع فلسطين الآن كنزاً جد ثمين من هذه الرسائل التي تتضمن مختلف الآراء والافكار والعواطف.

وقسا المرحوم عزيز اباظة في حملته على شعر المهجر وايده عدد كبير معظمهم من ادباء مصر، ومن اشهرهم كان العوضي الوكيل الذي خاطب جورج صيدح بقوله:

احببت فيك الشعر صافي الجوهر وكرهت فيك تعصبا للمهجر
دافعت عمن شعرهم ذو لكنة والسالكين سوى الطريق الايسر
والناطقين بغير منطق يعرب وبغير ذوق يعربي أطهر

ومن اشهر من دافع عن شعر المهجر كان (نظير زيتون) وقد كنت انا من بعض هؤلاء الذابين في مقال نشرته في جريدة (البلد) البغدادية لصاحبها عبدالقادر البراك، فكتب صيدح يخاطبني ويقول:

«... ان الصرخة التي اطلقتها في العراق على صفحات (البلد) بمناسبةمقالي عن آثار المهاجرين قد اختلجت لها جوانحي، فهناك الغيرة على الادب العربي، وهناك يد الشهامة والمروءة تمتد عبر البحار إلى الاخوان المغتربين الذين نسيهم وطنهم، واهملهم اهلهم وهناك الدعوة إلى الانصافِ مع السبيل إلى الانقاذ مرسوماً في الكلمة الرائعة التي قدمت بها لمقالي، عسى ان يكون لها الصدى الذي نتوقعه فلا يذهب جهدك سدى...».

وقبيل الطبعة الثالثة لكتابه، عاد يكتب لي صيدح ويقول:

«كنت قد دفعت للمطبعة نصوصاً جديدة لكتابي المهجري، وفي مقدمة هذه الطبعة ذكرت (دون ان استأذنك) بأن للمهاجرين في العراق محاميا متطوعا للدفاع عنهم، امينا على صداقتهم هو: جعفر الخليلي».

ومات جميع قادة ادب المهجر ولم يبق منهم في قيد الحياة اليوم غير الاديب العبقري النابغة ميخائيل نعيمة، والشاعر المبدع الكبير رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) اطال الله عمريهما، ولم يعد لمثل ذلك الادب الذي تحدث صيدح عن بعضه صدى او بعض صدى اليوم.

ويؤخذ على صيدح امور في تأليف هذا الكتاب منها انه جمع فيه القمح والزوان، وخلط بين الغث والسمين، لا لجهل فيه وعدم خبرة، وانما اراد ان يدخل الرضا في نفوس الجميع فيذكرهم هنا ولو على سبيل الاستشهاد، ولو قصر كتابه هذا على النوابغ والافذاذ لكان نفعنا به اكثر واكثر، هذا اضافة إلى العجلة التي سادت تأليفه فجعلته يهفو في مواقع سببت له أذى ممضاً فيما بعد ومن هذا الاذى كان ما وقع له مع صديقه الحميم الياس فرحات من جفوة تجاوزت الحدود، وقد لاحظت انا ما كتبه صيدح في كتبه ما يمكن ان يفهم القارىء منه ان فرحات دون منزلة الشاعر القروي وان لم يوجد في الكتاب تصريح كامل بهذا المضمون، ولكن مثل هذا غير خفي على القارىء النبيه، وقد سبب هذا القطيعة بين صيدح وفرحات لا سيما وقد وردت ابيات لفرحات في كتاب صيدح تنافي الاصل في القافية والمضمون، فعد فرحات ذلك عن تعمد وسوء قصد من (صيدح) وما هو الا سهو

وقع فيه صيدح فانقطعت رسائل فرحات عن صيدح وكان بين هذين الشاعرين من الصداقة والمحبة ما هو بين الأخوين الشقيقين واكثر، وحين زرت كفر شيما وكتبت عليها كلمتي[1] كتب لي صيدح بشأنها يقول:

«اكرمتني برسالتك (١٩٦٥/١٠/٧) التي تقاطعت في الجو مع رسالتي اليك واطربتني بمقالك عن شاعر كفر شيما - يريد به فرحات - فهو شعر منثور، كيف بذلك الشاعر المشهور، ويذكرني (مقالك) بمقال فكاهي داعبت به فرحات ساعة عودتنا من زيارة بلده، ومنزله، واهله في (كفر شيما)، وليس في يدي نسخة من المقال لأن اوراقي القديمة بقيت في بيروت، فسل عنه فرحات اذ انه احتفظ بقصاصة جريدة (الديار) يومئذ، وسوف ارسل مقالك للنشر في الجريدة السورية اللبنانية في (بونس ايرس)[2].

هذا واني اخشع امام خصب قريحتك، وسماحة قلمك، في اية ناحية من مناحي الادب، قصة، وتاريخ، ونقد، وتحليل، حتى الشعر والفلسفة، كان الخالق الوهاب جمع فيك مواهب عشرة ادباء، وحباك نشاطا فريدا لاستغلالها، دامت لك هذه النعم، ودامت لك هذه النفثات عزيزي».

باريس في ١٩٦٥/١٠/١٨
جورج صيدح

واني لاعتذر من تسجيلي لهذا الاطراء الذي لا اراني اهلا له، ولو لم تكن الغاية تسجيل مشاعر الأدباء وتصوير افكارهم حقا كان ام باطلا لضربت صفحاً عن ذكر شيء من هذا القبيل وطالما فعلت ذلك فيما لا يخص تصوير الشعور المقتصر على الاطراء من دون سبب يضطر الكاتب للاتيان به.

اقول لقد كان بين فرحات وصيدح من المحبة اكثر مما يكون بين الشقيقين ثم وقع بينهم ما يشبه (سوء التفاهم) وادى ذلك الى الكره والخصام ولم يزل الا في آخر ايامهما من الدنيا.

ولما كنت انا صديق الطرفين يكاتبانني واكاتبهما على الدوام فقد كتب لي صيدح في مبتدأ وقوع سوء التفاهم وذلك في سنة ١٩٦٥ يقول:

---

(١) يراجع بشأنها (كيف عرفت فرحات) في الجزء الخامس لمن يهمه الأمر.
(٢) وكان في هذا المقال شيء كثير عن (فرحات) وحياته.

«لاخبر عندي من فرحات، ولن اندهش ان كان غير راض عن كتابي، فله مزاجه الخاص، وقد سمعت احتجاجات من سواه، اما هو فيحتج صامتاً».

ويكرر صيدح قوله في كتاب آخر ويقول:

Elias Farhat à l'honneur

Un grand poète arabe, Elias Farhat, établi au Brésil, vient de séjourner plusieurs semaines au Liban, sa mère-patrie, qu'il avait quitté très jeune sous le régime ottoman, et qu'il a retrouvé indépendant et souverain. Farhat a quitté hier, jeudi, Beyrouth pour la province égyptienne d'où il regagnera le Brésil.

Avant son départ, le ministre de l'Information, M. Ali Bazzi, lui a décerné l'ordre du Cèdre en hommage à son œuvre poétique. La distinction lui a été remise au cours d'une cérémonie qui a groupé plusieurs hommes de lettres et amis.

Sur notre cliché, de droite à gauche, MM. Kamel Mrowa, Mohamed Kara Ali, Georges Saïdah, Akram Zouaïter, Elias Farhat, Badawi El Jabal et Toufic Youssef Awad.

في بيروت، وبعد ان منحت وزارة المعارف الشاعر الياس فرحات الوسام اللبناني، الكبير اخذ «صيدح» يدغدغ الوسام المعلق على صدر فرحات متمسحاً متبركاً فيضحك الحاضرون وهم: من اليمين كامل مروة ـ محمد قرة علي ـ جورج صيدح ـ اكرم زعيتر ـ الياس فرحات ـ بدوي الجبل ـ توفيق يوسف عواد.

تذكار حفلة تكريم الشاعر الكبير (فرحات)

«... ولعله - اي فرحات - غير راض من كتابي الذي يذكر احبابه كما يذكر اخصامه، وقد شعرت بذلك فجاملته قدر المستطاع في فصل شكر الله الجر».

والحقيقة ان فرحات لم يقطع رسائله عن صيدح الا لما قد خلف كتاب صيدح عن فرحات من شعور القارىء بما قد ينزل من قدر فرحات عن قدر الشاعر القروي، او ما كان يتضمن الشعر الذي اورده صيدح لفرحات من انطباع يدل على ضعف في الشاعرية استنتجته انا من قراءتي الكتاب ولكن صيدح لم يعترف به حتى وقعت الواقعة.

وقد مررت انا على هذه الواقعة في الفصل الذي كتبته على فرحات، ولا بأس ان الخصها هنا، فاذكر ان صالح جودت كان قد اهدى الى فرحات الطبعة الثانية من (بلابل من الشرق) فكتب اليه فرحات رسالة عن طريق المطبعة التي طبعت (بلابل من الشرق) دون ان يعلم بأن لصالح جودت علاقة بالصحافة وانه يشرف على اصدار مجلة (الهلال) وما الضائر حتى وان علم فرحات بان لصالح جودت مثل هذه العلاقة، فالرسالة كانت رسالة خاصة كتبها فرحات الى جودت، ولا احسب ان نشرها كان جائزا في العرف وقد حوت كلمة لفرحات كان يذب بها عن نفسه وما قد جاء عنه في كتاب (ادبنا وادبائنا) ويقول: «ان توفيق ضعون يكذب، وان جورج صيدح اكذب منه» ولكن صالح جودت تغلبت عليه طبيعة الصحافة فلم يراع حرمة الأسرار، والخصوصيات، وعمد إلى رسالة فرحات الخاصة ونشرها في الهلال»!!

وصيدح مرهف الحس، قليل الحلم فيما يمس شخصيته، سريع الغضب على من يتهمه بما ليس فيه، فعز عليه ان ينسب له الكذب وهو غير كاذب، وثار، وكانت الثورة مقالا شحنه بكل ما كان مرتسماً في ذهنه عن فرحات مما يسوء فرحات وبعث لي بنسخة من هذا المقال، وقال لي انه سينشره في جريدة (حمص).

ثم عدل عن نشره في جريدة (حمص) وكتب إلي يقول:

«مقالي عن فرحات ستقرأه في مجلة (المراحل) لا في جريدة (حمص) وستقول معي (جنت على نفسها براقش) فلقد افترى علي دون اي حق او شبه حق وكان لئيما مثلما كان صنوه (القروي) سخيفاً، شهاب الدين واخوه...».

وهو في عرض قضيته مع فرحات يلقي الضوء على جانب من سيرته الادبية ويستعرض بعض الجحود الذي مني به فيقول:

«... القضية مهمة تخرج عن المشكلة الشخصية إلى معضلة اجتماعية في المغتربات حيث التحاسد، والمكايد، والنفاق على اشده، وهو يفسد المساعي والاعمال، والمشاريع

الوطنية العمومية، ويقصر عمر اللغة والآداب العربية في تلك المهاجر، وكنت انا فيها متبرعاً بما لي وبقلمي، وبوقتي، بعد ان صفيت تجارتي، وقنعت من حطام الدنيا بما قسمه الله لي، لكنني لم اتلق كلمة اطراء الا قابلتها دسيسة شحناء، وكلما اتسعت شهرتي وارتفعت حيثيتي الادبية ازدادت حبكة المؤامرات ضدي، كأني جئت امراً فريا، حتى بعد صدور كتابي المهجري، الذي لم تبع منه نسخة واحدة في المهاجر، في حين تقدر المبيعات بعشرين الف نسخة في العالم العربي، وبعد نزوحي من اميركا، وعودتي الى اوربا تلقيت من (سانبا ولو) ثلاث صدعات: الاولى من (صاحبة المراحل)، والثانية من (الشاعر القروي) والثالثة من (فرحات) الآن.

اليس حراماً عليهم ان يقلقوا راحتي في آخر ايامي فاضيع اوقاتي بالرد على هذا وذاك؟ وان عالمنا الأدبي العربي ضلّ وفسد، وانا متشبث بعاطفتي نحوه، ويكفي ان يكون فيه جعفر الخليلي العراقي، ووديع فلسطين المصري، وعجاج نويهض اللبناني لكي اغفر له خطاياه، ولا اذكر الا مزاياه».

وانا الا احتفظ بمسودات لما يصدر مني من الرسائل فالرسالة مني هي المبيضة والمسودة معاً في الغالب وكم وددت لو كانت لدي صورة مما كتبت له بوجوب نسيان القضية والاسراع بسحب المقال من مجلة (المراحل) ليرى القارىء كم بذلت من المسعى وكم ضربت له من الامثال بنفسي حين كنت انشر في جريدتي (الهاتف) الشتائم الموجهة الي، والنقد غير الموضوعي الذي يقصد به التنديد دون ان اعلق عليه حتى ولا بكلمة، ويغلب على ظني أنني لم اكتف بهذه الرسالة بل ارد فيها برسالة أخرى، بمثل هذا المضمون ورجوت من صيدح الاسراع بسحب المقال برقيا، من مجلة (المراحل)، والذي كنت ـ وقد مرت الاشارة اليه في رسالة صيدح ـ اعرفه ان صاحبة (المراحل) ماريانا لم تكن على صفاء مع صيدح من قبل، فكيف زال ما كان في نفسيهما؟ لست ادري...!!

ولم يكن التماسي منه نسيان ما حدث او تناسيه من اجل (فرحات) وانما كان من اجل صيدح نفسه الذي اردت له ان يكون اكبر من ان تهزه كلمة قيلت عفواً وبدون حق فيه، ويبدو انه تأثر برسالتي فكتب لي يقول:

«وغداة وصول رسالتك كتبت فوراً إلى صاحبة (المراحل) راجياً منها ان تهمل مقالتي عن (فرحات) وإذا كانت قد تصدت وطبعت المقال فاني اطلب نزع الاوراق من العدد واعادة ترتيب مواده، واني مستعد لدفع التعويض على هذه العملية لقاء العطل والضرر بتحويل ارسله فور وصول جوابها».

وقد تلقى من صاحبة المراحل ما يفيد بأن المقالة كانت قد نشرت واحدثت ضجة في الجالية، وهياجاً عند فرحات.

ويكتب لي صيدح «... لقد سبق السيف العذل، ولا مرد لما حصل وان فرحات هو الجاني على نفسه، وعلى راحتي (ومن الطيش ما قتل...) وانا نسيت وجود فرحات مكتفيا بشعره الذي لم يتغير رأيي فيه، فالرجل حقير، والشاعر كبير».

وحين تلقى اعداداً من (المراحل) ووجد مقاله منشوراً فيه كتب لي يقول:

«... قضى الامر، وصدر مقالي المزلزل رداً على فرحات، فرحت اقرأه متوجعاً كأني اطعن نفسي بيدي، ولكني بعد التفكير وجدت ان (فرحات) يستحق هذا العقاب لسفالة خلقه، وان شعر رأسي ليقف حين اتصور شدة حقده عليّ يوم كان يغازلني ويتحبب إلي، وفي ذات الوقت يبحث عن مقتل في ظهري ليطعنني، ولما لم يجد سبباً للطعن اخترعه من خياله، وقال (ان صيدح كذاب منافق) ولسوء حظه لم يجد شيئا آخر، واليوم انفض يدي، واسد اذني عن كل ما يقال عني».

ولكن صيدح لم يسد اذنه حتى عن كلمة قالها الدكتور عيسى الناعوري بان شعره القديم احسن من شعره المتأخر الملىء بالعنتريات، فقد هاجه ذلك ودفع به إلى ان يستنصر الاصدقاء عليه كما ستأتي الاشارة إليه.

يقول صيدح انه لن يقول شيئاً في المعرضين به، ولكن شعره لم يخل من هذا التعريض، وفي القصيدة التي اهداها إلى صديقه الشاعر سعيد العيسى المعنونة (بوداع النهر المحتضر) الشيء الكثير من الاشارة إلى الذين عرضوا به حسداً له وحقداً عليه ـ واشهد انهم قد فعلوا ذلك ظلماً وعدواناً ـ ولكن المقتضى كان يدعوه إلى اهمالهم والصفح عنهم فلم يفعل:

وفي بعض شعره عن حاسديه يقول:

ذهب الألى صاحبتهم ... وبقيت مثل السيف فردا
ما بال حاسده تنكر ... بعدما اثنى واسدى
مجدته فأبى سوى التفرير ... والتشهير مجدا

ولا يترك مناسبة دون ان يشير إلى الذين تعرضوا له، ومن ذلك انه حين صدر الجزء الخاص بحرف (الجيم) من (الموسوعة الموجزة) لحساب الكاتب وكان لجورج صيدح، ولي انا ذكر فيها كتب لي يقول:

«... لقد شرفني ان يلتقي اسمك واسمي في كتاب (الموسوعة الموجزة) في حرف الجيم فكان جعفر وجورج، جارين بين الادباء المسجلين، حمانا الله من حرف الفاء - اي فرحات - ومن حرف القاف - اي القروي - آمين....».

واشهد ان صيدح امام النقد الموضوعي، والمآخذ المنطقية، من ارحب من عرفت صدرا، وأوسع بالا، يقبل حتى النكتة اللاذعة على نفسه، وقصة (الجعل) مشهورة معروفة، والجعل من فصيلة الخنافس يعيش بين روث الحيوانات وقد زعموا ان الجعل لو دخل خميلة من الورود او موضعا معطرا لمات في حينه، ويقول المحامي البحاثة عبود الشالجي في موسوعة الكتابات العامية البغدادية «ان من السقطات التي انتقدها الناس على الشاعر المعروف (جورج صيدح) انه لما اجتمع جمع من الادباء والشعراء في احتفال من أجل تكريمه، القى صيدح قصيدة يشكر فيها المجتمعين لهذا التكريم وكان مطلعها كما يلي:

ردوا جميل ثنائكم عن بابي   خطر علي تدفق الاطياب

فقال الناس: ان تدفق الأطياب لا يكون خطرا الا على الجعل».

وانا اجزم لو ان جورج صيدح قد عرف من اول من التفت الى هذا المعنى لما اكتفى بحذف هذا البيت قبل القائه وانما لكافاه على هذه الالتفاتة، وكثيراً ما كان يكافىء بالمال الكثير.

وصدر من فرحات رد على مقال صيدح في (المراحل)، وبين رد فرحات ورد صيدح فرق كبير لأن فرحات في نثره غيره في شعره، وان لصيدح قلماً سيالا وديباجة مشرقة يتجلى في نثره بأروع ما يكون التجلي، الا ان مقالا نشرته جريدة (النفير العربي) بالبرازيل كدفاع عن فرحات كان مليئاً بالوقاحة والبذاءة، قد نغص لصيدح عيشه، وعانى بسببه ازمات روحية قاسية دخل على اثرها المستشفى وكانت ماريانا صاحبة (المراحل) تكتب لصيدح بان المقال المنشور في (النفير العربي) انما هو برأي من فرحات، وقد ازلت انا هذا الرأي من ذهن صيدح لأن فرحات اكد لي - وفرحات كصيدح لا يكذب ولا ينافق - انه لا يعرف شيئاً من امر هذا المقال ولا شيئا عن كاتبه وهو غير راضٍ بما جاء فيه ومستنكر له.

ولا اعرف شيئاً عن سوابق (الشاعر القروي) في الهجوم على (صيدح) ولكنني اعرف ان صيدح في كتابه (ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية) قد نوه بذكر القروي بما لم ينوه بمثله بذكر احد، وقد اعطاه حقه من الثناء على شعره، والحق ان شعر الشاعر القروي كان يستحق هذا الثناء ولكن القروي قد جازاه بما جوزي به سنمار وهذا ما استبنته من

رسائل صيدح، والغريب في الامر ان القروي قد تناول كتاب (ادبنا وادباؤنا) بالنقد بعد صدور الكتاب باكثر من عشر سنوات!! ونقده نقدا فيه شيء غير قليل من التنديد، والتقصي عن العيوب ونشر مقالاته المتسلسلة في مجلة (العرفان) فاين كان القروي عن هذا الكتاب طوال هذه المدة؟ وبعد ان كان الكتاب قد اعيد طبعه اربع مرات!! وهذا ما قاله فرحات عن القروي وهو - اي فرحات - في اقصى درجات سوء التفاهم مع صيدح.

وكان ان رد صيدح على (القروي) بقصيدة عامرة تفيض بالعاطفة وهو يخاطب بها قلمه السيال ويعذره إذا لم يخرج على المروءة، وليته فعل ذلك مع فرحات، لأن فرحات ذو طبع رقيق وعواطف جياشة، وانا واثق لو ان هذه القصيدة كان قد رد بها صيدح على قول فرحات المرسل على سجيته الذي اتهم فيه صيدح بالكذب لسمع صيدح من فرحات نشيجه، واستغفاره، واعتذاره، ولكن (القروي) لم يرد على قصيدة صيدح حتى ولا بكلمة.

يقول صيدح في صدر قصيدته التي سماها (بمأساة القلم المداد) التي نشرتها مجلة (العرفان): «مهداة الى الخل الوفي، الشاعر القروي، تعليقا على ما نشره في (العرفان) وفيما خاطب به صيدح قلمه يقول:

ملأت حشا قلمي بالمداد ... وسامرته في ليالي السهاد
فهم بفيض فقلت اتئد ... الى ان يفيض عليك الفؤاد
ركزتك في (صدرتي) فاتكأت ... على مهجتي واستطبت الوساد
حسيباً على نبضات الحنين ... رقيباً على نزوات التناد

الى ان يقول:

ايا قلمي يا لسان ضميري ... ويا شاهدي في احترام الوداد
اردتك واسفي ان تجود ... فاصبحت مثلي عقيماً جواد
علام ارتجفت ولطخت كفي ... اتخشى اسومك رد انتقاد
وعندي من الحلم طود تغاضي ... عن اللوم يزحف في بطن واد..الخ

وكتب لي صيدح ذات مرة يقول:

«وجدت في حمص جريدة صغيرة تملأ صفحاتها باخبار المهاجرين واثارهم فطلبت من ادارتها ارسالها اليك لتجد فيها اشياء عني وعن (القروي) الدجال».

****

ولصيدح رد نقيض رده على (القروي) فقد شحنه بالهجاء المر الموجه إلى الدكتور عيسى الناعوري، وانا اسف كل الاسف لأنني كنت السبب في غضبة صيدح غير اللائقة دون قصد ودون علم بنتيجة ما فعلت.

وتتلخص الحكاية في اني تلقيت من صيدح رسالة مضمونها ان كتاب عيسى الناعوري عن شعراء المهجر قد طبع للمرة الثانية بمصر، ويقول صيدح انه كتب لمن يعرف بالحصول على نسخة من هذا الكتاب فلم يظفر بها، وانه يهمه الاطلاع على كل ما يخص ادب المهاجر العربي، وانا اعلم كم بين المؤلف (عيسى الناعوري) وصيدح من المودة فعجبت من تأخر اهداء هذا الكتاب لصيدح الصديق، فقد كانت للناعوري صلة صداقة بصيدح يعود تاريخها الى سنة ١٩٥٥ اي قبل ان أتعرف انا بصيدح، حتى لقد كتب إلي صيدح يثني على مروءة الناعوري وشهامته ويشكره على اهتمامه (بوجيه الخوري) المفؤود الذي لم يجد من يعنى به فنقله الناعوري من دمشق الى عمان، وحمل الحكومة الاردنية على ان تتبرع بمعالجته الباهظة النفقات فاستبدل الجراحون له صمامات القلب واعاده الناعوري الى دمشق.

وغير هذا مما يدل على اعتزاز صيدح بصداقة (الناعوري) ولم ادر كيف تأخر الناعوري عن اهداء الطبعة الثانية من كتابه إلى صيدح وحين يئست انا من وجود الكتاب في مكتبات بغداد، كتب إلى الناعوري، مذكرا بوجوب ارسال نسخة الى صيدح ـ وليتني لم افعل ـ وكان ان تفضل الناعوري بارسال نسخة من كتابه لصيدح واخرى لي انا دون ان اطلب منه ذلك.

واول شيء فعلته هو اني قرأت ما يخص جورج صيدح في هذا الكتاب، واحسست بأن الناعوري قد شطح به القلم، وكان بامكانه ان يقول الذي يريد ان يقوله بعبارة أخرى فقد جاء في كتابه بعد الثناء على صيدح ما يلي:

«كان مورداً عذباً ـ يعني جورج صيدح ـ فنضب منذ عشرين عاماً!! واصبح لا يستطيع ان يقدم معنى جديدا، ولا شعراً نابضاً، لا سيما في وصفياته التي تغلب عليها الخطابية والعنترية مع النثر والركاكة كما تراها في مجموعته (شظايا حزيران) ففيها النثر الركيك، ومن العنتريات شيء كثير يدل على ان عهد الشعر الجيد عند صيدح قد ذبل وانتهى امره!!».

والحق ان مثل هذا القول لا يعد ان يكون ضربا من ضروب التجني لأن كل الذي قاله الناعوري عن شعر صيدح غير صحيح، وان لصيدح من الشعر في اواخر عمره ما يهز الصخر الصلد واكثر، ولذلك كتبت الى الناعوري بأني اخالفه في رأيه اما صيدح فما كاد يقرأ هذه الفقرة حتى هاج، وماج، ولم يستطع السيطرة على اعصابه، وكتب الي ما يشبه

التعنيف، يقول لي بأن صاحبك ـ يعني الناعوري ـ يكتب عني ما يخالف جميع آراء الذين كتبوا عن شعري، وبينهم من لم اتشرف بمعرفته، وكأن صيدح في رسالته كان يريد ان يقول لي بأنني كنت متفقا مع الناعوري بصفته صديقي فيما ارتأى، وقد كتبت إليه بأن الناعوري كان صديقه قبل ان يكون صديقي، وانني قد خالفته في رأيه قبل ان تصل نسخة كتابه إليك، وقد اقتطعت من الرسالة التي تلقيتها من الناعوري رداً على رسالتي ما يؤيد مخالفتي لرأي الناعوري وبعثت بها إليه.

وثار صيدح ثورة لا تتناسب ومنزلته واستصرخ محبيه، واستنجد بهم لنصرته!! واستعداهم عليه وهجا الناعوري بمقاطيع وقصائد من الشعر غير المستساغ، من الامثال كقوله للناعوري:

الى الناقد الحاقد في عمان

كنت ارعاك وردة في قبائي	فاذا انت شوكة في حذائي

إلى ان يقول:

ليت طرفي اغمضا قبل يوم	فيه بانت عداوة الاصدقاء
قل (لعيسى) القديم اني محب	يتعامى عن (الجديد) المرائي

وفي هذه القصيدة ابيات نابية لست ادري كيف استساغ هذا الرجل الكريم المعطاء ان يسمح لقلمه بأن يخطها على الورق، وان كان محقاً».

ولم يكتف صيدح بهذه القصيدة بل هناك قصائد اخرى اصفح انا عن ذكرها وقد لمته انا على هياجه، وذكرت له انني طالما تلقيت شتما، وسبا، وانا صاحب جريدة فكنت انشر ذلك دون تعليق في حين كنت لم ازل شابا كثير الغرور والاعتزاز بنفسي فما بالك انت وقد ذقت الحلو، والمر في دنياك، وامتلأت تجارب وخبرة، فكيف تضيق ذرعا بكلمة ليس فيها اي شيء يخل مقامك، ومكانتك الشعرية الكبيرة.

وقد رأى صيدح ان يرد للناعوري الكتاب الذي اهداه إليه بعد ان كتب تحت الاهداء هذه الكلمة:

«ارد اليك هديتك حرصاً على نظافة مكتبتي (كذا) وراحة ذاكرتي رعى الله من عرف حده فوقف عنده».

ثم رفق الكتاب بابيات مفزعة، وكتب لي يقول:

«وأخيراً نظمت بعض ابيات ردا عليه، ونسختها على كتابه المردود اليه، مصمما على

ارسال كتابه هذا الصباح، ولكني وفي ساعات الليل ناجيتك، وخففت امتعاضك من عملي هذا دون استشارة مسبقة معك، فلا بد ان اخذ خبرا منك عن هذا الموضوع، ولا بد من التأني قبل الخطوة الحاسمة التي تسد ابواب التفاهم والمصالحة، لذلك ابقيت الكتاب بغلافه المختوم على مكتبي ريثما نتبادل الملاحظات، فهل ارسل اليه كتابه ممهورا بمقطوعتي دليلا على استنكاري لسلوكه الشائن؟ ام تجد انت له عذراً من الاعذار لم يخطر ببالي، واذن سأتريث....».

وكانت هذه الابيات التي ارفقها بالكتاب اقسى من الابيات التي نشرها، وخالفته في رأيه لا دفاعا عن الناعوري، وانما دفاعا عن كرامة صيدح نفسه، فان صدور مثل هذا غير مناسب من رجل يتبوأ هذه المنزلة والمكانة في دنيا الادب والانسانية والمكارم، وكان ان تفضل مشكوراً بالانصراف عن نشر هذه المقطوعة ورده لهدية الدكتور عيسى الناعوري على هذا الوجه.

وكتبت إلى الناعوري ان يكتب لصيدح رسالة اعتذار ويسترضيه على قدر الامكان وقد فعل الناعوري، واحسن...

وجاءني من صيدح ـ وهو لا يدري انني انا الذي حملت الناعوري على الاعتذار منه يقول:

«... وان الجديد في امري هو وصول رسالة اعتذار واستغفار من الدكتور عيسى الناعوري يؤكد عواطفه الاخوية، وأخيراً لا بد لي من الصفح كما تقضي الشهامة، وكان ردي عليه ارسال قصيدتي الهجو اللتين ذاعتا في مصر والشام والمهاجر نزولا عند طلبه، وقد كتبت عليهما كلمة واحدة هي:

حسم الصلح ما اشتهته الاعادي   واذاعته ألسن الحساد»

اما الذي قاد الحملة ضد الناعوري انتصاراً لصيدح في المهجر فكان الصديق عبداللطيف يونس، وفليب لطف الله الذي يخاطب الناعوري قائلا:

تهاجم صيدحاً فتقول كفراً   ومالك مثله قدر وجاه

وكان منهم زكي قنصل، والياس قنصل، ومحمد حامد، ومريانا دعبول صاحبة مجلة (المراحل) التي سبق لها ان اطرت الناعوري واثنت على كتابه!! ولم يتح لي ان اقرأ شيئاً غير ابيات فليب لطف الله، وهناك مقال لوحيد الدين بهاء الدين قيل انه كان شديد اللهجة وهو الآخر لم اطلع عليه، وقد حدثني هو به قبل نشره وكتب لي صيدح عنه يقول: «ان رد وحيد الدين على الناعوري قد أثلج صدري».

ومن رسائل صيدح لي يستشعر القارىء بأنه كان يريد من اصدقائه الزج بهم في هذه المعركة اذ يقول عن وحيد الدين بهاء الدين:

«كنت اعالج الرد المفحم الذي جرى به قلم الصديق (وحيد الدين بهاء الدين) جابر عثرات الكرام ونصيرهم فطابت نفسي لهذه المبادرة الفورية للنجدة الاخوية النادرة المثال في المجالات الادبية والصديق لوقت الضيق كما يقول المثل...».

واحسن عبدالله يوركي الحلاق في تضمين عاطفته بابيات مدح بها جورج دون التعرض للخلاف بينه وبين الناعوري، كما احسن الدكتور عبدالعزيز الدسوقي في طريقة استنكاره للضجة القائمة بمقال نشره في جريدة حمص، اعاب فيه على (مريانا) صاحبة مجلة المراحل بسبب الشتائم التي وجهتها للناعوري، وكان هو المدافع المعتدل الوحيد عن عيسى الناعوري، كذلك كان فوزي عطوي الصديق المقرب لصيدح الذي احسن كثيراً في دفاعه عن الدكتور عيسى الناعوري.

اما الذين لم يحركوا ساكناً من اصدقاء صيدح وكان صيدح غير راض عنهم على ما اعلم، فهم عجاج نويهض، ووديع فلسطين، ومحمد عبدالغني حسن وانا الذي اقتصرت جهودي على اخماد نار الفتنة، وقد يكون هناك من لم اعرف عن استنصار صيدح له ولم ينصره في مثل هذه المعركة غير اللائقة.

وأخيراً يكتب إلي صيدح ويقول:

«اما اليوم وقد تسلمت من الناعوري (معايدة اخوية) بمناسبة رأس السنة - وهي السنة التي توفي في أواخرها صيدح - وتمنيات تنم عن عواطف شريفة، وعن ندامة تؤرقه، ولا يبوح بها فبادرت لتطييب خاطره، وطويت صفحة المحاسبة والمعاتبة لا سيما بعد ان اخذت حقي بما نلت منه، ونشرت عنه، دون قصد او عمد بالتشهير، وان قضيته قد اصبحت في خبر كان، وقد انساها ولكني لن انسى فضلك في تصريفها من الفها إلى يائها، فلولاك لم اقرأ كتابه، ولولاك لم يستح (الدكتور) ويخفف من جبروته وعنفوانه فيأتيني معتذراً طالباً العفو».

****

وانا لا اعرف ما كان بينه وبين (يوسف العيد) مما يدعو إلى ان يهجوه صيدح، ولكني اعلم ان صيدح لا يبدأ احداً بالهجاء، ولا بد انه قد ناله شيء من يوسف العيد حتى قال فيه حين قدم يوسف العيد من المهجر إلى سورية متمنيا ان تطبع له مديرية الثقافة ديوانه فاعتذرت مديرية الثقافة منه بعد الاطلاع على شعره، يقول صيدح عن يوسف العيد:

ان قـال انـي مهجـري كـذبـوا ... مـا قـال واغتـم الذي قـد صـدقـا
نسـب يتيـه بـه ولـم يخلـق لـه ... مهمـا تلصـص حـولـه وتبنـدقـا
ان عـد مـن شعـرائهـم قلـت انتحـر ... يـا شعـرهـم لسـت المرشـح للبقـا

ويوسف العيد هذا كان يريد ان يضع نفسه موضع النوابغ من الشعراء على ما يدعون، اما شعراء المهجر فكانوا يلصقون به صفة الهراء والسخافة على ما يدعون ايضاً، وكان الياس قنصل من المتحرشين به في كل مناسبة، والياس قنصل فضلا عن كونه من الشعراء المعروفين فإنه من الظرفاء الموصوفين بخفة الدم، وقد سبق له ان اصدر بعض الكتب التي تتضمن الشيء الجذاب من السخرية وكان من سخريته مرة ان وضع نصوص معاهدة او مصالحة بينه وبين (يوسف العيد) وقرأها في ندوة ادبية وبمحضر يوسف العيد نفسه في الارجنتين وختم تلك المعاهدة بالشعر قائلا:

قصائد (العيد) هاتوها ليسمعها ... باذنه كعقاب ما له ثاني

وحين بلغ امر هذه المعاهدة مسامع صيدح وقرأ بيت الياس قنصل أجاز هذا البيت ببيت ثان وقال:

وان أبى فابطحوه واحقنوه بها ... حتى يفارق هذا العالم الفاني

وغير هذا ليس هنا لك ما يؤخذ على صيدح في سيرة حياته الادبية.

وصيدح وان كان سريع الغضب حتى لأتفه الامور، وكثير الانزعاج ممن يمسه بسوء ولو بالوهم والخيال، وشديد المؤاخذة لمن يتحداه فإنه قد يتغاضى ويسامح ويكون رده هيناً لينا، فحين وقعت الجفوة بينه وبين صديقه الدكتور سليمان داود بسبب قصيدة (بنت باريس) التي الب الدكتور سليمان داود عليه اصدقاءه وهاجمه بدون سبب غير انه نظم قصيدة كهذه غير مناسبة لصيدح كما مرت الاشارة، كتب إليّ صيدح عليه وقد اكتفى بذلك عن الرد عليه قائلا:

«الدكتور داود لا شيء في دنيا الأدب والشعر، وحرام ان أشهر في وجهه سلاحي، ويكفي ان انساه».

وفي وصف (فرحات) كتب الي بعد ان هدأ روعه يقول:

«قلب طاهر، وعصب ثائر، وشعر كثير، وصبر قليل» والحق ان فرحات كان كذلك.

وعلى ان فرحات كان كذلك سريع الغضب لأتفه الامور، فقد كان سريع الرضا، كثير الصفح في الغالب، وهي صفة الكرماء، ولقد كان صيدح كريما بكل معنى الكلمة، كريما

بنفسه، وماله، وبكل ما يقدر عليه وداخل في حدود امكانه، وعفة لسانه وقلمه في الغالب، وحاشاه ان يبدأ احداً بالاساءة، وقد شمل بكرمه المادي ومساعداته المالية الكثيرة الكثير من معارفه، كما شمل بكرمه المعنوي ومحبته عدداً من الاصدقاء خصهم بمحبته وانا اعرف منهم باعترافه الياس فرحات، قبل حصول سوء التفاهم، وعجاج نويهض، ووديع فلسطين، وانا، وهذه (الانا) كم اكرهها ولكنها تجيء في بعض المناسبات بالرغم مني، وهؤلاء كانوا احب الناس اليه كما عرفت.

وهذا (وديع) حين يرغم على ترك وظيفته في احدى شركات النفط بليبيا بصفته مصرياً، كتب اليه جورج صيدح عما إذا كان بحاجة إلى شيء يبعث به اليه فرد عليه (وديع) بخشونة وعنف كما لو كان صيدح قد جرح له كرامته، وقد نقل لي صيدح رد وديع عليه بنصه إذ يقول له وديع:

«ارجوك مرة أخرى عدم التطفل على خصوصياتي، فهذي همومي وحدي، ولا اقبل ان اشرك احدا فيها ولو كان حميما مثلك، فاتركني بربك ولا تعد الى الموضوع».

ويعلق صيدح على ما كتب وديع ويقول لي: «فتأمل هذه اللهجة العنيفة» ومثل هذا العرض من صيدح قد عرضه علي على اثر قضية علم بضيقي فيها، فقد كتب إلي عما إذا كنت بحاجة إلى شيء ليبعث به إلي؟ والفرق بيني وبين (وديع) انني كتبت لصيدح شاكراً وقلت له انه اخي، وانه غير بعيد عني ولا مجهول لدي، ولكني لست بحاجة إلى شيء والحمد لله، وفي احدى رسائلي لوديع كتبت إليه لائما اياه على عنفه وخشونته مع صيدح وقلت ما ضرك لو انك فعلت مثلي ورددت عرض الرجل بلطف وحسن مجاملة؟

وكان صيدح قد دفع ببعض شعره (لجميل حمودي) الذي كان يومذاك بباريس، ليخرجه له باسم (نبضات) وكان ان دفع له مبلغا لم يرد ان يسميه مساعدة، وانما عده كأجور لاخراج هذه (النبضات) اخراجاً فنياً بصفة جميل حمودي رساما، فكان ان اصيب صيدح بخيبة شكا منها ويبدو انه سجلها في مذكراته التي دفع بها إلى (ياسين رفاعية) الذي استخرج منها بعض المقالات التي نشرها في جريدة (النهار) البيروتية، وكان في احدى هذه المقالات ذكر غير جميل لجميل حمودي الرسام، وقد قرأت انا (النهار) ببغداد، واعجبت بالمقال الذي كتبه ياسين رفاعية عن صيدح، وتلقيت من صيدح رسالة يقول فيها:

«... هناك موضوع قليل الأهمية في حد ذاته ولكنه شاغل فكري، فقد ورد في رسالة تلقيتها من الأخ (وديع فلسطين) قوله «اخونا الخليلي اخبرني انه اطلع على الفصل الأدبي المعقود عليك في باب (الكل) من جريدة (النهار) وانه اعجب به» وهذا الخبر

بوصول عدد النهار الى بغداد ازعجني لأن في المقال تعريضا باديب عراقي انا محتفظ بصداقته وحريص على رضاه هو الاستاذ جميل حمودي، واسوأ ما يسوؤني ان يقرأ (حمودي) المقال ويتأذى منه، او يخيل اليه اني قصدت التبجح بكرمي بمناسبة طبع ديوان عهدت به اليه، واني حاقد عليه للخسارة التي لحقت بي بسبب الطبع، والحقيقة بعيدة عن كل ذلك، فأنا لا احمل حقدا على احد، ولا اعتبر خسارة المال اساءة تذكر ولا أحاسب الناس على سلوكهم معي ان اساءوا، ولا أمنّ على أحد ان أحسنت، وهذا طبعي ومذهبي في الحياة، ولولاه لكنت اليوم وحيدا بلا صديق، ولا مراسل، ولا من القي عليه السلام، لكثرة ما صدمني من الخيبات المريرات، سهاما تكسرت على السهام، وقد نسيتها كلها مع الايام... فان كان (حمودي) قد قرأ المقال، وتكدر خاطره فقد تكدر خاطري ايضا مثله فلا حول ولا...».

اما ان صيدح قد بعث بهذه المذكرات (لرفاعية) بناء على طلبه واصراره وان (رفاعية) هو الذي استخرج منها ما استخرج فهو صحيح ولا غبار عليه، ولكن ما في هذه المذكرات ـ كما يؤكد رفاعية ـ كان الشيء الكثير مما يعبر عن سخط صيدح الذي منح (حمودي) مبلغا على سبيل التشجيع ليخرج له ديوان (النبضات) اخراجا فنيا وجاءت النتيجة غير مرضية، ولكن صيدح لم يكن مستعداً لنشر سخطه والتشهير بحمودي او غير حمودي ولذلك كره نشر رفاعية لهذه القصة.

وكثيرا ما يقصد الادباء (صيدح) ليستدينوا منه مبلغا فيدفعه لهم وهو يعلم ان الاستدانة ليست الا حجة يتذرع بها الطالب ممن عرفهم فالمبلغ الذي يستلفونه منه لن يعيدوه اليه، وهو لا يطالبهم به وقد يراهم فيسألهم عن كل شيء الا عن دينه، وقد جرى له مثل هذا مع الشاعر وليم صعب المعروف بنظم القريض واللغة الدارجة فقد استدان وليم منه (١٥٠٠) ليرة لبنانية وذلك سنة ١٩٥٩ قبيل ازماع صيدح الرحيل إلى فرنسا والسكن فيها، وكعادة صيدح في حسبانه لم يتوقع من وليم صعب ان يعيد له المبلغ، ولكن وليم لم يكن من تلك الفئة، فإذا بصيدح يتلقى من (وليم) وهو بباريس رسالة اعتذار وفي ضمنها حواله بالمبلغ المذكور بعد ان مر على هذه الاستدانة تسع عشرة سنة كان قد نسي فيها (وليم) استدانته او ان حائلا حال بينه وبين التحويل وكان هذا داعياً من بعض دواعي الايمان عند صيدح بان الناس ليسوا كلهم سواء، والغريب ان صيدح تسلم هذه الحوالة قبل وفاته ببضعة اشهر وكان هو نفسه يتنبأ بقرب وفاته فكتب الى (وليم صعب) ابياتاً يقول فيها:

ادبتنـــــي ووعظتنـــــي (وليــــم)   خــدرت روحــي فهــي لا تتــألــم

ويقول:

يا زارع الايمان حول حظيرتي كن زارع الريحان، حان الموسم
يا ليت قلبي زاجل كحمامة طارت وحطت حيث انت مخيم
بيني وبين الله عهد صامت قبل المثول لديه لا اتكلم..الخ

وهناك قصيدة مطولة هي آخر ما نظم صيدح سائبتها في ختام هذا الفصل وقد خص صيدح بعد ان احس بدنو اجله كل صديق بابيات وكان (لوليم صعب) نصيب وافر منها.

ومما اثلج صدر صيدح غير قضية (وليم صعب) هي قضية تخص قرينة الشاعر المهجري المعروف (ميشال مغربي) الذي قدم ديوانه للطبع ومات قبل ان يتم طبع الديوان الذي سماه (بامواج وصخور) واوصى زوجته بان تتم طبعه وترصد ريعه للأعمال الخيرية وتهدي بعض النسخ منه لاصدقاء له سماهم لها بالاسم، كان من بينهم جورج صيدح ولما توفي ميشال قامت الزوجة باتمام طبع الديوان واهدت لصيدح نسخة منه بمقتضى وصية الشاعر، وكعادة صيدح في مثل هذه الاحوال ولا سيما وقد وجد ان ريع هذا الديوان قد خصص للأعمال الخيرية فكان ان حول للزوجة مبلغا قال انه بمثابة مساهمة في الاعمال الخيرية، ولم يحس صيدح الا وقد عادت له الحوالة ومعها رسالة اعتذار من الزوجة بأنها لا تريد ان تخلط بمبرة زوجها مبرة اخرى وهي تشكره على صنيعه وتعتبره مساهما تكفي فيه النية، الم يقولوا ان الاعمال بالنيات!! وقد رثا صيدح ميشال مغربي بقصيدة قال في مطلعها.

راكب (الامواج) عد للمركب قمة المعراج دعها للنبي

وحين عاد صيدح من المهجر اقام ببيروت بضع سنوات تزوجت فيها ابنته جاكلين، نزولا على ارادتها وبقي هو وزوجته وحيدين وقد برم بحياة بيروت رسئم حياة يشوبها الكثير من النفاق والكذب والغش في البيع والشراء عند الناس فاشترى له بيتاً بباريس وهاجر من لبنان ليتخذ من باريس مسكنه الأخير سفيراً للأدب العربي، وداعية من اكبر دعاة الانصاف لفلسطين التي خصها بصفحات واسعة من شعره الذي يفيض بالحماس وكان ذلك في سنة ١٩٥٩ وهو يقول:

«لم اكن بحاجة إلى الدرس لاعلم حدود الادب، وحدود النشر في لبنان ولكني زدت اقتناعاً بانه بلد القصف والبلف، لا بلد الحرف» ومن قوله في لبنان:

ان ارضاً عصت بكل دخيل لا تبالي إذا الاصيل تشرد

وحين نزل بباريس كتب إلي يقول:

«انا مقيم هنا نهائياً دون ان أبارح الأقطار العربية روحاً وفكراً».

ولقد صدق والله صيدح وهذه دواوين شعره تشهد بأنه لم يعش بباريس الا بجسده وان روحه ترفرف على ابعد مواطن العروبة وتطوف حتى في المنام بالربوع العربية وربوع فلسطين بصورة خاصة.

وقد صح قول سعيد العيسى في وطنية صيدح اذ خاطبه بقوله:

دوت باذنيك خلف (السين) زفرتنا ... في القدس في الغور، في الجولان، في سينا
لله انت بعيد الدار مغتربا ... علمتهم كيف يغشون الميادينا
يا رب قافية قد رحت تنشدها ... قد الهبت من بني قومي الملايينا

وينتهز صيدح كل مناسبة فيذكر فلسطين بالدموع الغزيرة، وفي ليلة اول عيد من الميلاد بعد نكبة حزيران من سنة ١٩٦٧ كانت له قصيدة (هائية) القافية يقول في تقديمها:

«الى الذين يعيشون في الاصفاد ويموتون في الاعياد» وقد افتتحها بقوله:

ذكرى فلسطين في الاعياد تزكيها ... ناراً تهب على الاكباد تكويها

إلى ان يقول:

يا سيد الكون يا دهقان امته ... هل الرئيس ام الحاخام واليها
قضت جدودك ان يفنى الهنود كما ... قضت يهودك ان نفنى لنحييها

وكتب إلي في هذا العيد عيد الميلاد الأول بعد النكبة يقول:

«اكفر بالله وبالضمير ان جئت اهنيك بالعام الجديد، فانا لا اتوقع من الاعوام والايام سوى الاحزان والآلام، انما اسأل المولى ان يرفق بك وبي، وبامتنا المنكوبة، وكفانا ان يصدق الوداد ان كذبت الاعياد».

ويقول في عيد الميلاد من سنة ١٩٦٩:

«المعايدة التقليدية بالعام الجديد اعتبرها نابية في هذا العام فاين نحن من السعادة والهناءة، وصفاء البال، كلمات ترتجف يدي ويتعثر قلمي حين اكتبها، فلماذا لا نستبدل بها الكلمات الصادقة الواعية، فنحن فرائس هذا العصر الجامح بقوته، الطامح إلى تعميم سلطته، فلا نطلب منه الآن الا ان يعطينا سلما لأمتنا، وسلامة لاحبتنا بعد الاستئذان من اسرائيل وعزرائيل».

وحتى بالشعر لا ينسى ان يجعل معايدته بعيد السنة زفرة وهو يرثي الشهيد (وائل زعيتر) بعد نكبة ١٩٦٧ وها هي ذي ابيات مقتطفة من هذه القصيدة العامرة التي يقول فيها:

وافى تواكبه المعره ... عام كفانا الله شره

متربص بالآمنين تشد اسرائيل ازره
أولاه مصرع (وائل) في عالم الاجرام شهره

ويعني به (وائل زعيتر) وهو الشهيد الأديب ابن شقيق الاديب الدبلوماسي المعروف (اكرم زعيتر) وقد اغتاله عملاء الارهاب الصهيوني بروما ويستمر صيدح في قصيدته قائلا:

هذا الشهيد نريده لمعاشر الشهداء عبره
لهفي على الغصن النحيل تعمد الجانون هصره
اليوم (وائل) في ضيافة (كامل) يشتف خمره
(غسان) بينهما عظام فريسة وحطام ثوره

ويعني (بكامل) كامل مروة الذي اغتيل وهو وراء مكتبه في جريدة الحياة، ويعني (بغسان) غسان كنفاني الشهيد الذي نسف وهو في سيارته بقنبلة ويختم صيدح قصيدته بهذا البيت:

العام يعذرني اذا استقبلت عودته بزفره

ومن اقواله في فلسطين:

كرم الله بالشهيد الترابا فسقاه الدم الزكي فطابا

ومن بعض اقواله قوله:

واها فلسطين ماذا يجديك دمع تحدر
وان اذوب حنانا وقلب قومي تحجر
واها فلسطين مالي ينام غيري واسهر
حبست في الصدر همي فان نطقت تفجر
أكلما قلت شعرا كنت الروي المكرر
على صليبك قلبي كالناصري تسمر

وقد اصدر عن فلسطين ديوانا خاصا بها من الشعر باسم (شظايا حزيران)

****

ومن صور وطنيته التي يعبر عنها شعره في كل مناسبة قصيرة نظمها بعد غزو الفضاء بطائرات ابولو واهداها إلى الدكتور عبدالله الجبوري ونشرتها مجلة (الضاد) الحلبية يقول فيها:

حذارك من غزو اليهودي يا بدري سياتيك في ثوب (الامركي).. من يدري؟
اتانا بذاك الثوب اثناء نومنا فلم نصح الا والسكاكين في النحر

عرفناه غدارا سبوقا إلى الخنى ... خريجا من (التاميز)، مدرسة الندر
يجلي على استاذه بانتهاكنا ... ويربو على النازي باسلوبه القذر
نصحتك قاطع ارضنا وسماءنا ... وطارد مطايا الغرب حمالة الشر
الست ترى في الشرق اثار زحفها ... وكيف تجازي من يرحب بالنكر
الست تراها في فلسطين نكلت ... بشعب بريء شردته الى القفر،
اتاح لها اكنافه فتمكنت ... واهوت على المضياف بالناب والظفر
فبات كأن الدار ليست بداره ... ولا المسجد الاقصى بمسجده الدهري
وبتنا كأن العز ملّ جباهنا ... ولم يبق غير الذل من دمنا يجري...

....

بربك يا بدر الدجى حكم الحجى ... وكش ذباب الارض عن وجهك الدري!

باريس ١٩٦٩/١١/١٠

جورج صيدح

وشعر صيدح بالغربة عند نزوله بباريس شعورا لم يشعر بمثله اربعين سنة وهو في المهجر لذلك اكثر من هوايته هنا في المراسلة بينه وبين الاصدقاء وممن كان له منه غير اخباره واحدة من الرسائل التي تفيض بالشعر، والادب، والمناجاة، والعواطف وكان وديع فلسطين، كان عجاج نويهض وكنت انا وقد يكون هناك غيرنا من يملك المئات من هذه الرسائل مثلنا ولا علم لي به، وهو يقول عن هذه الهواية ما يأتي:

«... ان سعادة الاديب والشاعر، والعالم هي من نوع خاص غير سعادة بقية البشر انها تنبع من عواطف روحين، وتتألف عن مهجتين، والارواء لعطش النفس الا بها، وانني على رغم تمرسي بلذات الحياة فلا اعرف غيرها متعة لا تعقب ندما، وسكرة لا تورث الما، واليد التي تمتد إلي بكأس من كاساتها الثمها بحنان وشكر».

ولذلك كتب إلي مرة يقول:

«اتناول كل رسالة تأتيني منك ومن الاخ وديع كمن يتناول صدقة من يد سخية تعطي بلا حساب، وبلا امل في الثواب، فاهمس بالدعاء إلى الله ان يرعى كاتبها، ويجازيه عني خيرا واجرا، ويزيد في عمره عمرا».

وفي اوائل سكناه بباريس كان يتمنى ان تحصل لي فرصة ازوره فيها بباريس اذ يقول: «هل لي ان اتوقع زيارة منك لباريس في هذا الصيف» ولكنني لم اسعد بلقائه بعد تلك اللقيا التي تمت عن طريق الدكتور رشاد دار غوث من سنة ١٩٥٧ ببيروت.

وفي غير الرسائل كان يتمتع بزيارة كبار رجال السياسة والادب والمعرفة الذين يمرون بباريس فيقصدونه، كذلك كان يسد حاجة النفس في القيام بالسياحة والتجوال في ربوع اوربا هو زوجته، وكان هو يسوق سيارته بنفسه، وهو سائق ماهر تعلم السياقة منذ سنة ١٩١٢، وساق مرة وهو في احدى سياحاته باوربا نحو (٦٠٠٠) ستة الاف كيلو متر بدون استراحة ولكنه حين عاد الى باريس دخل المستشفى.

وفي السنين الأخيرة احس بالضعف فكان له منتجع صيفي واخر شتوي ثم صار عليه ان يدخل المستشفى في كل سنة مرة لاجراء عملية في مجاري البول، ومنذ هذا الحين تقلصت حركته، وضعف جسمه ولكن روحه ظلت كما هي روح شاب في مقتبل العمر.

قلت ان صيدح كان مرهف الحس سريع الغضب حتى ليحسب الاشارة إليه مهما كانت تافهة ذات اهمية كبرى لذلك عندما وقع بينه، وبين فرحات، والقروي والناعوري، وسليمان داود وغيرهم ممن لا ادريه من الصدمات الروحية التي ازعجته كثيراً، واقلقت راحته، واذ اضفنا الى ذلك عذابه الروحي الآخر الذي سببه افلاس بنك (انترا) السياسي ادركنا كم لاقى هذا الرجل في سنينه الأخيرة من الهم والغم والويل إذ انه كان قد اودع كل ما يملك من نقود في بنك (انترا) ولم يبق له الا بعض الاملاك التي ان باعها فلا يستطيع ان يضمن له عيشا رغيدا ونفقات للمستشفى الذي يدخله في كل سنة، والمنتجعات الصيفية والشتوية في جبال الالب التي كانت تكلفه كثيراً، وكنت انا ببيروت عند اشهار افلاس بنك (انترا) الكاذب، وكانت لي باحد المساهمين الكبار في هذا البنك معرفة فاكد لي ان الامر ليس الا دسيسة. وان جميع المودعين في هذا البنك سيتسلمون مبالغهم بدون اي تأخير وبمجرد ان تنتهي اللجنة التي انيطت بها فحوص حسابات هذا البنك، وقد اخبرت صيدح بذلك وطمأنته إلى ما اعرف من صحة اقوال هذا الصديق، وكان ان اطمأن وحصل على كل ودائعه من النقود فيما بعد.

ومن الصدمات الروحية كانت صدمته بطلاق ابنته لأنها ستكون مطلقة وهي لم تزل شابة وقد اصبح هو شيخاً كبيراً ولم يزل عنه تفكيره هذا الا بعد ان تزوجت ابنته وعادت لتسكن في بيتها الجميل في (الرملة البيضاء) ببيروت، وكانت قد زينت بيتها هذا مجموعة من التحف والعلائق وقد اضطرتها الحوادث هي وزوجها ان تقضي بعض الوقت بباريس ولكنها حين عادت الى بيروت الفت كل ما كان في البيت قد نهب، وليس من شك ان هذا هو الآخر كان من المزعجات لصيدح في باريس، بالاضافة إلى ما كانت تشكو زوجته من امراض تلازمها.

وزادت من صدمته شدة سقوط واصابة رجله بالكسر الذي اضطره لدخول المستشفى

وملازمته السرير اربعة اشهر متواصلة قام بعدها سالما وقد كتب الي بعد تماثله للشفاء يقول:

«الآن أشكر الله الذي لا يشكر على مكروه سواه، واعتبر النجاة دليلا على رضاه، خصوصاً في مثل سني وهزالي، وقد صدق عليّ قول (شوقي) عن نجاة حماره من الغرق حين قال:

سقط الحمار من السفينة في الدجى ... فبكى الرفاق لفقده وترحموا
حتى إذا طلع الصباح اتت به ... نحو السفينة موجة تتقدم
قالت خذوه كما اتاني سالما ... لم ابتلعه لانه لا يهضم»

وليس من شك ان مثل هذا التشبيه لا ينطبق على مثل صيدح، ولكن الظرف الذي عرف به صيدح يجعله يتمثل بمثل هذا البيت.

ومن هذا الظرف الذي جبل عليه صيدح: هو انه وهو في المستشفى يعالج الكسر من رجله كان يسأل عنه الكثير بالرسائل والبرقيات، وكان له صديق ببيروت كان يقوم على ادارة التلفون فكان من الهين له الاتصال بصيدح تلفونيا كل يوم مستفسرا عن صحته، وقد اهدى له صيدح قصيدة تضمنت شرحاً لأحواله يقول فيها:

يا كاسف البال لا تحزن لأحزاني ... باريس مهما قست ليست كلبنان
هنا الجريمة ايا كان فاعلها ... يخزى، وفي ربعكم يجزى بنيشان

ولصيدح صديق ثري وحبيب الى القلب ولكنه بعيد عن الشعر والادب يعيش في المكسيك واسمه الياس عبود وقد عز عليه ان يهدي صيدح لصديقه الذي يسأل عن صحته بالتلفون من بيروت ابياتا ولكن لا يسأل عنه هو الذي يتصل به من المكسيك، وقد عتب على صيدح ولامه على تجاهله شأنه الامر الدي دعا صيدح ان يبعث له بهذه الابيات واصفا بها ما يعرفه عن الياس عبود اذ يقول:

الياس يا ناس كالطائي في الجود ... وكالنواسي زير الكاس والغيد
هذا الذي كان شوكاً حول كرمتكم ... قد صار كرما على درب المناكيد
يبني القصور، ويستهوي البدور ولا ... يعنى بشكواي في ايامي السود
ابقى على عهده ما دام لي رمق ... انا العليل اعاطيه اناشيدي
حنينه كحنيني منذ فارقني ... شبهته بحنين القشر للعود
تهمي رسائله بردا على كبدي ... فاستجيب كاني غير مكبود
الشوق يطلبها والحب يكتبها ... تأتي وتذهب ملأى بالمواعيد

وقد علمت ان الياس عبود قد دفع هذه الابيات لخطاط ماهر وعمل منها لوحة فنية معتزاً بمودة صيدح ومحبته، وقال لي احد عارفيه من اللبنانيين المهاجرين في المكسيك ان هذه اللوحة تزين اليوم صالون الياس عبود في المكسيك!

وصيدح بعد هذا من كبار الشعراء، طرق في شعره مختلف الميادين وابدع في كل ما نظم، وصور مجتمعه اينما حل صادقا لأنه كان ينحت شعره من احساسه وترك في كل موطن من مواطن الحرية، والوطنية، والغيرة على العرب والعروبة والاخوانيات الاثر الذي لن يمحى، والذي لم تبق صحيفة ذات شهرة في العالم العربي وعلى الاخص الصحف العربية في المهجر الا وزينت صفحاتها ببعض قصائده واطرته، واثنت عليه شاعراً فحلاً لا يتجاهل الشعراء منزلته بينهم.

ولصيدح دواوين شعر مطبوعة منها مجموعة باسم (النوافل) وانا لم ارها، وله (نبضات) و(حكاية مغترب) وهو ديوان ضخم كان يجمع طائفة كبيرة من شعره إلى حد يوم صدوره وقد صدر سنة ١٩٦٠، ثم له (شظايا حزيران) الديوان الذي خصه بالنكبة وبمصيبة فلسطين، ثم (شظايا ايلول)، وفي اواخر سني حياته كان يريد ان يصدر الغالب من شعره في اربعة اجزاء من ديوانه وقد تم طبع الجزء الاول والثاني، واضرب عن طبع الجزء الثالث والرابع وسيأتي الحديث عن اضرابه هذا، وله من غير اشعاره كتاب (ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية) وقد مرت الاشارة اليه، وقد طبع اربع مرات، وكان في صدد طبعه للمرة الخامسة.

وجاء ذكر صيدح والالمام بترجمته في كثير من البحوث والكتب ومع ذلك فان نواحي من حياته ولا سيما شعره لم يتطرق اليها بعد باحث او مؤرخ.

وكان الدكتور صفاء خلوصي من المعجبين بشاعرية صيدح، فقد كان من المتتبعين لاشعاره اينما وجدت، وقد دفعه اعجابه إلى ان قام بترشيحه لامارة الشعر، فبعث لصيدح بقصيدة عامرة نشرتها الصحف يرشح فيها صيدح ويقول في مطلعها:

يا بعث (صيدح) للقريض اميرا فاق الفرزدق في العلى وجريرا

ورد عليه صيدح بقصيدة تضمنت الشيء الكثير من التواضع وقال في مطلعها:

جازاك ربي (جنة وحريرا) يا من حباني (نضرة وسرورا)

وما كاد ينشر الدكتور صفاء قصيدته ويبشر بالترشيح حتى تصدى لتأييده عدد غير قليل من حملة الاقلام في كليفورنيا، وفي (سانبالو) وفي (بونس ايرس) وكان في مقدمة الادباء الذين ايدوا هذه الدعوة عبدالمجيد لطفي، وقد بعث لي جورج صيدح بحزمة من

جزازات الصحف التي تناولت بيعة الدكتور صفاء له لتأييد كما طلب مني غير واحد من المعارف والاصدقاء ان اضم صوتي الى اصوات المبايعين شعرا ونثرا، فكتبت لصيدح باني ان فعلت ذلك فبماذا سأجيب من يقول لي كيف خلفت الجواهري، والصافي، وبدوي الجبل، وعمر ابا ريشة، والياس فرحات، والشاعر القروي وانت على علم بمنازل هؤلاء ومكانتهم في دنيا الشعر؟ وانا اعرف ان صيدح شاعر، وشاعر كبير لا يستطيع من يشير الى كبار الشعراء ان يتجاهله ولا يشير اليه، اما امارة الشعر فهي شيء آخر، وان صيدح نفسه ليتنصل منها فحين نشر الدكتور صفاء، وعبدالمجيد لطفي ترشيحهما له بامارة الشعر كتب لي يقول:

«مأثرة الدكتور خلوصي وعمه الفاضل - يريد به عبدالمجيد لطفي - تشرفني بمغزاها العاطفي، وتؤذيني بمفهومها الادبي، لأنها تضعني في غير مقامي، وتعرضني لسهام اندادي واخصامي، ومن مدحك بما ليس فيك فقد ذمك، اما وقد صدرت عن حسن نية، وسلامة طوية فهي مشكورة، مبرورة عاطفيا، مردودة، منقودة منطقيا وموضوعياً. وفي رسالة اخرى يقول:

«اما المطارحة المثلثة مع الدكتور الكريم، والاستاذ العظيم فلا عيب فيها سوى موضوعها - اي الترشيح للامارة - المرفوض اصلا، والمقبول شكلا، ولولا ثقتي بعواطف المادحين لحسبتها ضحكا على ذقني وامتهانا لسني، وتجد انني تنصلت من هذا الشرف الرفيع في جوابي».

ومن قصيدته التي وجهها للدكتور خلوصي وقد مر مطلعها يقول صيدح:

لست الجديـر بـرتبـة بيـن الألى سميتهـم ان كنـت انـت جـديـرا
أأردت تسحـرنـي وتبلـو شيمتـي حيـن اصطنعـت مـن الاجيـر اميـرا

واعتدت انا منذ العشرينات ان اقضي الصيف في ربوع لبنان استجماما للراحة التي يفرضها علي الاطباء تهربا من حر العراق، وكنت استغل هذه الفرصة بطبع ما افضل تقديمه للطبع مما اكتبه في الشتاء، اذ ليس من الميسور لي ماديا وانا اطبع هذه الكتب ان اتقدم بكل ما هو تحت يدي للطبع وان لدي الآن ما يزيد على عشرة كتب تنتظر مني الامكانية بعد ان طبع لي اربعون كتابا في موضوعات متنوعة، وان صيدح يعلم بارتباطي بالمطابع وثقتي بمطابع (دار الكتب) ببيروت خاصة فأراد مني ان استغل له هذه الثقة ليتقدم بطبع الاجزاء الاربعة من ديوانه فكتب إلي بذلك، وشرح لي خيبته في ان يجد من يثق به من اصحاب المطابع، ودور النشر، وسمى لي الاصدقاء، الذين اندبهم للتوسط بينه وبين هذه المطابع ودور النشر فاعتذروا منه جميعاً!! واعتمد علي ليعرف سبب الاعتذار

فقد خضعت لالحاحه واصراره علي في التوسط بطبع ديوانه، والسبب الذي اعرفه، هو ان صيدح كثير التبديل والتغيير فيما ينظم، فهو لا ينظم القصيدة اليوم الا ويد خل عليها تعديلا في الكلمات واضافات وحذف، في اليوم التالي وبعده... وبعده ثم انه كثير الاشمئزاز والبرم والغضب إذا وقعت له غلطة مطبعية في قصيدة ينشرها في احدى الصحف، لذلك حدثت نفسي بالاعتذار اليه من توسطي ولا سيما في ايجاد مصحح ملائكي معصوم لا تفوته النقطة تحت الف التعجب وحتى النقطة الفاصلة بين كلمة واخرى، واعتذرت والله واعتذرت، والح حتى اضطررت الى ان اكلم الصديق الدكتور صلاح الدين المنجد، واستنجد به، وبعد فكر قال انه مستعد ان يقوم بهذه المهمة متبرعا لاجلي والا فان الاشراف على عمل كهذا ليس من شأنه، وقد حملني على ان لا افكر بمطبعة (دار الكتب) التي اعول عليها انا، لا لشيء الا لغلاء اجورها، وقد كان حقا اذ هيأ لهذا الديوان مطبعة صالحة للعمل اعتاد ان يعهد اليها بمؤلفاته فتجري له تخفيضا في اجور الطبع، وكلف هذه المطبعة بأن تطبع ملزمة واحدة بحروفها و(كليشهاتها) وكل ما يقتضي لهذا الشعر من اختلاف في الحروف والشروح ويبعث بها لصيدح على سبيل الانموذج وتعريفه بما تكلف هذه الملزمة ورقا وطبعا، وغلافا فإذا اتفق هذا العمل ورغبته شرعت المطبعة بطبع الملازم الأخرى من الجزء الاول والا فإنه لن يطالب باجور طبع هذه الملزمة وكان هذا من شروط المنجد على المطبعة، وقد فرح صيدح بهذه الملزمة وكتب للدكتور المنجد شاكرا له اياديه وبالخصوص تبرعه بالعمل وسعى المنجد ان يشرف هو وانا على تصحيح المسودات من المطبعة وكان هذا من شروطه علي، ووقعنا فيما كنت اخافه فكانت تصل الينا بعض القصائد من صيدح بتعديل جديد، وتبديل قواف من الشعر، فما كان قد تم طبعه قبل هذا التعديل كنا نهمل تعديله وما لم يكن قد دخل الطبع بعد فكنا نأخذ به ونطبعه، وبالرغم من تأكيدي لصيدح بان مثل هذا التبديل والتغيير لا يصح بعد ان يكون قد دفع بمسودات شعره للطبع نهائيا ولكنه كان لا يستجيب وكان يعيد النظر مرات ومرات وقد كتب لي يقول:

«... انا يا اخي الكريم اشعر بثقالتي على كل من يعاملني في قضايا الطبع والنشر واخجل من السطو على وقت عالم اديب كبير من وزن الدكتور المنجد بطلب تعديلات متوالية في قصائدي، ولكن هذه هي طبيعتي لا استطيع تغييرها».

وقبيل انتهاء طبع الجزء الاول بملزمة واحدة او ملزمتين تلقيت من بغداد برقية بوفاة زوجتي فتركت لبنان ووصلت بعد مراسيم الدفن، واتم بعدي (المنجد) الجزء الأول من الديوان واوارسل لصيدح بأربع نسخ منه بالبريد الجوي المسجل، وكتب لي صيدح الى بغداد يقول:

«ابشرك، ان الجزء الاول ظهر الى الوجود بهياً سنياً وستراه عن قريب ان شاء الله».

وكان صيدح قد بعث لي بمقطوعة شعر مثابة شكر على مسعاي لاخراج ديوانه الى حيز الطبع ورجا مني ان اختم بها الجزء الاول فلم استجب له، واقنعته بانني سافعل ذلك عند الانتهاء من طبع الاجزاء الاربعة، اما الحقيقة فهي اني لم استحسن درج هذه المقطوعة وهي تعنيني انا في حين ان الفضل كله في طبع الديوان يعود الى (المنجد) ولا بأس ان اورد هذه المقطوعة هنا فهي جزء لا ينفصل عن الصلات بيني وبينه وكيفية معرفتي له، يقول فيها:

«هذه آخر قصيدة في فصل الاخوانيات، ومسك الختام هو الشكر الصميم إلى زين الادباء الاصدقاء الاستاذ جعفر الخليلي الذي تطوع حبا وكرامة للاشراف على طبع هذا الديوان» ويقول:

يـا صـاحبـا نفسي بـه عـامـرة	يـا غـائبـا افضـالـه حـاضره
يـا كـاتبـا نـور اذهـانـنـا	بـاللمـع الفكـريـة البـاهـره
مـا ان بـدت للعيـن مسطـورة	حتـى غـدت امثلـة سـائـره
سبحـان مـن سـواك انمـوذجـا	تـدرس فيـه القيـم النـادره
امجـادنـا الحيـة مثلتهـا	مستعـرضـا امجـادنـا الغـابـره
لـولاك لـم يسمـع لشعـري صـدى	في (عتبـات) النجـف الطـاهـره
ولـم تـذع بيـروت اسراره	(رغـم امتعـاض الشـام والقـاهـره)
انـت الذي دللتـه حـاشـدا	لنشره طـاقـاتـك الوافـره
لـو لـم اطـاوعـك على طبعـه	دارت على آثـاري الدائـره
كـانني لـم استبـن شـاعـرا	في بـردتـي او احتضـن شـاعـره
حيرنـي منـك اطـرّاد النـدى	على مـديـن يـده قـاصره
ان سألـونـي عـن دواويـنـي متـى	ادفعهـا ؟ جـاوبتهـم: في الآخـره

****

وجاء دور طبع الجزء الثاني من ديوان صيدح وانا ببغداد، فحول صيدح الاشراف على التصحيح الى (جواد نادر)، ولم يعد للمنجد الا الاشراف على الطبع وملاحقة المطبعة، والمحافظة على الشكل المتفق عليه، ولما كان صيدح يشكو من البطء في الطبع كتب (المنجد) لصيدح هذه الرسالة: «... أما بشأن الجزء الثاني من الديوان فقد أخبرني الأخ (جواد نادر) أنكم تشكون من البطء ـ في الطبع ـ والحق معكم، ولكن ليس بيدي

لأن اصحاب المطابع كلهم كذابون ومنافقون، يعدون ولا يفون، وان مدينة (درعون) التي طبعنا بها ـ الجزء الأول ـ هي قريبة من بيروت، وليست (قرعون) كما قد يخال وانما اخترتها لكم لأن اجرة الطبع فيها اقل من مطابع بيروت، لأن (الخليلي) الح علي ان تكون نفقات الطبع اقل ما تكون، وهكذا فعلنا، فإذا كان صدركم متسعا فبالامكان متابعة طبع الديوان، على ان يصدر كل جزء في اربعة اشهر، ما زلت مستعدا لمساعدتكم في كل ما تطلبون، وقد تطوعت في ذلك مختاراً ولم ارجع، وعذرا إذا كنت لا اكثر من كتابة الرسائل، او الاطالة فيها فتلك عادتي».

د. صلاح الدين المنجد

وهنا تلقيت من صيدح وانا ببغداد رسالة بعد ان تم طبع الجزء الاول من ديوانه جاء فيها.

«عندي قضية ملحة يهمني عرضها عليك، وموضوعها اشراف الدكتور المنجد على طبع ديواني، اذ لا يعقل ان يضحي الرجل بوقته وبجهده لوجه الله او حرصا على مودتك ورضاك على الرغم من انك كتبت الي انه يعمل متبرعا ولا يتقاضى حقوق الاشراف، وقد حاولت الدوران حول المشكلة حينما تم طبع الجزء الاول عرضت عليه قبول هدية الف نسخة من الطبعة فرفض الهدية».

وتسلم (جواد نادر) عمل الاشراف على تصحيح المصحح والحرص على سلامة وضع الصفحات، ولكن (جواد نادر) لم يكن من الحرص على هذه السلامة كما ينبغي او انه لم يكن من قوة الملاحظة بالرغم من تنبيه الدكتور المنجد له بان (صيدح) قد يحدث تبديلا وتغييراً في القصيدة ثانية فيجب عليه الالتفات لئلا يأتي تصحيح صيدح بعد طبع القصيدة فينشر (جواد نادر) القصيدة قصيدة اخرى بعد ان تكون قد نشرت من قبل، ولكن هذا التحذير لم يلاق من جواد نادر اهتماماً فوقع المحظور ونشرت احدى القصائد مرتين، وثارت ثورة (صيدح) وهاج غضبه، وطرق اذن المنجد شيء من هذا الغضب كأنه هو المذنب، واعتبرت انا مثل هذا الغضب على (المنجد) لونا من الوان سواد الوجه، سواد وجهي انا طبعا وكان المنجد يرى ان بالامكان طبع ملزمة بدلا من الملزمة التي تكرر فيها طبع احدى القصائد وينتهي الامر، ولا حاجة للانزعاج، ولكن صيدح كان يصر على ان يحرق الجزء الثاني برمته! اما جواد نادر فقد عاد الى الارجنتين وكان هناك لصيدح مجلة باسم (الحياة الجديدة) وقد جاء الى بيروت ليجد له عملا ولما خاب في سعيه عرض على صيدح ان يساعده ويقوم بنفقاته الى ان يجد له عملا، وكان ان ناط صيدح به الاشراف على التصحيح وخصص له المبلغ المطلوب.

وجئت انا إلى بيروت، وعلى انه قد ساءني استياء (المنجد)، فقد همني رضا صيدح وتهدئة خاطره واعتبرت نفسي مسؤولا عن كل ما وقع، وكتبت الى صيدح باني مستعد لاعادة طبع هذا الجزء من جديد على نفقتي ورجوته ان يبعث لي بالمسودات بشرط ان لا يجري فيها أيّ تبديل وتعديل بعد ارسالها واخبرته باني قد فاوضت مطبعة (دار الكتب) وتم الاتفاق بيني وبينها وان ليس في ذلك اي بأس لأن لي مع هذه المطبعة حساباً جارياً، وطمأنت صيدح بان الجزء الثاني سيخرج ان شاء الله كما يريد هو ان يخرج واكثر واخبرته بان الدكتور المنجد مستاء فبدل ان نبدي له الشكر والامتنان لتبرعه بالاشراف على اخراج هذا الديوان تبرعاً منه اذا به يلام على امر هو من اخطاء (جواد نادر) ولما كنت انا المسؤول الأول والآخر فارجو ان احسن اداء الكفارة عن فعلتي هذه حين اقوم بطبع هذا الجزء على نفقتي فكتب لي صيدح يقول:

«اما اقتراحك باعادة الطبع على نفقتك فإنه يتجاوز حدود المروءة والكرم. ويبقى الموضوع على حاله لأن التقصير لم يكن مالياً بل مهنياً».

واعلمني الدكتور المنجد ان الاستاذ «اكرم زعيتر» وكان يومها سفيراً للاردن ببيروت قد قرأ عليه رسالة جاءته من صيدح وفيها ما يشبه التهكم باستعدادي لطبع ديوانه على نفقتي، ويقول انه ليس بالفقير المحتاج المستجدي ليتبرع احد بطبع ديوانه وانا لا اضبط نص عبارته، ولم يضبطها (المنجد) ولكن مضمونها لا يتعدى هذه الحدود على اغلب الظن.

وانا انسان لي كرامته فلماذا اسمح للصديق ان يغضب ولا اسمح بمثل ذلك لنفسي وكان من اثار غضبي ان قطعت الاتصال بصيدح ولم ارد على رسائله، وكانت لصيدح بقية نقود من حسابه لدى المطبعة قام المنجد بتحويلها لصيدح، وجاءني من (صيدح) ما يدل على الاستغراب والتعجب بان يكون له شيء من الحساب مما لا يعلم به وان هناك من يرد له هذا الحساب، اذ كتب لي يقول:

«سيدي الاخ، لم اعرف بوجود رصيد فائض من حسابي عند الدكتور المنجد الا بتسلم رسالة منه وكنت نسيت هذه الصدمة فجاءت شهامة الدكتور تفتح جراحها عن غير قصد، فشكرته على الامانة، وعذرته على ما سبق، ولكني لم اعذر نفسي على تعذيبه بكتابي، ولا على تسويد وجهك معه باسبابي فانا كما تقول انت: قليل الخبرة في شؤون الطبع....».

وظل صيدح يكتب إلي إلى بغداد وانا لا ارد على رسائله، وقد سأل عني من الاصدقاء مستغربا عدم الرد، وتلقيت ذات يوم رسالة حملت بعض جملها على محمل

الكنايات والتورية التي تتضمن العتاب، وكان من جراء ذلك ان لمت نفسي بل وبختها وذكرتها بان ليس من الهين ان يترك الصديق صديقه ويتناساه او ينساه لامور تافهة، فعدت اكتب اليه وذكرت له اسباب عزوفي وزعلي ولم اسم (اكرم زعيتر) ولا (المنجد) لئلا ادخلهما في ظنون صيدح، وقد كتب إلي يقول:

«... وتعرف يا سيد العارفين ان الكلام بنية المتكلم، ما اصدقها اية، فكل كلمة قلتها عنك بمناسبة تبرعك بنفقات ديواني كانت بنية الاعجاب، والاعتراف بفضل قلّ من يتقدم به مثلك، وقلّ من يناله مثلي، فلماذا التأويل الغريب المريب؟ بدلا من قبول المعنى البدهي القريب، وان رصيد التعاطف والتفاهم بيننا لا يجيز لك الارتياب كما لا يجيز لي الاغتياب، واعتقادي كان ولم يزل ان الجفاء بيننا من المستحيلات مهما وشى الواشون، وسعى الحاسدون، لا عليهم ان اساءوا الظن، ولكني أجلّك من ان تسيئه انت بعد ما كتبت ما كتبت على صيدح، وقدمت ما قدمت اليه من كنوزك، تبقى في نظري المحبوب المغصوب لا تستطيع الانفلات من مودتي الدائمة.. الخ».

وعهد صيدح اخيراً إلى أديب ملحم البستاني بطبع الجزء الثاني من ديوانه وكتب الي حين خرج من الطبع «ان حالته ليست فاخرة، ولا طاهرة، ورغما عن قبوله سعراً مضاعفاً للذي تقاضاه المنجد فقد استعملت المطبعة ورقا ارخص ورواشم اقبح،!! وقال «لقد جاءت الطبعة باشراف الاستاذ البستاني بعيدة عن الكمال وباهظة التكاليف زهدتني بالاستمرار على الطبع والنشر» لذلك لم يطبع من ديوانه الجديد غير جزءين، وبقي جزءان، ولا بد ان يكون ما نظمه بعد ذلك كان يؤلف جزءاً خامساً أو سادساً إذا ما تم ان يطبع كل شعره، فاني اعلم ان مانظمه في بونس ايرس وحدها خلال اربع سنوات كان نحو مئة قصيدة على ما قال لي هو.

وقد تصدى (بشارة نعمة) صاحب المكتبة الشرقية ببيروت ان يعيد طبع كتاب صيدح (ادبنا وادباؤنا) للمرة الرابعة وقد قصده الى باريس واخذ منه المسودات التي كان قد اجرى فيها بعض التعديلات على الطبعة الثالثة التي استعار النسخة الوحيدة منها من وحيد الدين بهاء الدين في العراق وذلك لنفاد نسخها، وعاد بشارة نعمة الى بيروت لكي يوقع له شروط في الطبع والنشر ثم تاخرت اجابته فكتب الي صيدح وانا بلبنان من صيف ١٩٧٥ بمراجعة المكتبة الشرقية وحمل صاحبها التوقيع او ارجاع المسودات، وقد اعتذر الرجل عن الالتزام بالاتفاق بسبب الحوادث واستعدت منه المسودات وكلمت بخصوص طبعها «دار العلم للملايين» التي كانت قد قامت بطبع هذا الكتاب من قبل فلم تتفق بالشكل الذي يلائم مصلحة صيدح، فوضعت المسودات في دار مجلة (السياحة) عند اديب مروة وكان ان مرت به بعد ذلك كريمة صيدح وتسلمت المجموعة منه، وهي المجموعة الوحيدة التي

أجرى عليها صيدح تعديلات وتعليقات وافية عسى ان يكتب لها ولبقية شعره الخروج الى حيز الطبع.

وقلما كان يجري بينه وبين اصدقائه الذين كان يراسلهم ما كان يجري بينه وبيني باستثناء عجاج نويهض ووديع فلسطين على ما اعلم، وقد كان يفيض في رسائله ويحدثني في كل رسالة حديث من يريد ان يفضي بكل ما يخامر نفسه، ويخطر على باله من سؤال وجواب، ومناقشة وابداء رأي حتى ما كان يجد له في دنياه، فضلا عن الشعر، والادب، وله اراء في كل كتاب قرأه من كتبي، وعلى رغم اعتزازي بهذه الآراء فاني ارجح هنا اغفالها ما دام الغرض الاول والآخر منها تقريظي والافراط في مدحي، ومع ذلك فاني مضطر لايراد بعض شعره فيّ كلون من الوان الادب الاخواني، فهو حين قرأ في مجلة (الاديب) قيام بعض الاخوان بتكريمي بمناسبة مرور خمسين سنة على مزاولتي الصحافة والادب باعتبار ذلك يوبيلا ذهبياً، كتب يلومني لعدم اخباره بهذا التكريم كما كتب الي غيره بمثل هذا، ومنهم كان وديع فلسطين، ونشر صيدح في مجلة (الأديب) ابياتاً بهذه المناسبة يقول فيها:

ان هنؤوك بعيدك الذهبي	فانا اهنئ امة العرب
اذ انت جعفرها وقيصرها	وخليلها في دولة الادب
علم على جنباته قلم	متبوء عرشا من الكتب
ومكارم في الطبع اعجبها	تكريمها عضوا بلا عجب
(ان الفتى من يقول ها انذا	ليس الفتى من يقول كان ابي)

لقد اعتدت انا قضاء الصيف (بسوق الغرب) من لبنان، كما قلت ولي في هذا البلد اصدقاء واحباء، وكان (مصباح الفيل) مدير البريد بهذه المدينة الصديق الكريم الذي كان يقف نفسه وسيارته عليّ حيثما ذهبت، وفي زيارة من احدى زياراتي (لعجاج نويهض) برأس المتن قامت السيدة الشاعرة المبدعة ام خلدون حليلة استاذنا (عجاج نويهض) باعداد الشاي لنا فطارت شظية من مصب ابريق الشاي بسببنا فصممت على ان اشتري ابريقا واعوض به ذلك الابريق عند زيارتنا (لرأس المتن) مرة أخرى، ولكن حوادث لبنان في هذه السنة ١٩٧٧ كانت قد اشتدت وقد تأثر بها سوق البضائع فلم يكن من الهين ايجاد ابريق للشاي لائق للاهداء، ومع ذلك فقد وجدت ما يمكن ان يسمى ابريقا، ولكي ابرر تقديم هذا الابريق ارفقته بهذه الارجوزة وعنونتها بهذه الكلمة:

«الى السيدة الاديبة اللامعة، والشاعرة المبدعة البارعة السيدة ام خلدون عقيلة العلامة الجليل، والاستاذ الكبير عجاج نويهض هذه الكفارة التي نكفر بها عن انكسار ابريق الشاي بسببنا وقلت:

سيدتي الفاضلة الاديبة ... ام النهى الشاعره الاريبه
حليلة الفذ ابي خلدون ... وزينة البيت الذي يأويني
اذا اذنت ان تصيخي السمعا ... لاجمع القول اليك جمعا
مما روت شرائع الاديان ... عن الذنوب وعن الغفران
قالت على مرتكبي الاثام ... كفارة تدفع بالتمام
فكل من يكسر عمدا انيه ... عليه ان يجبرها بثانيه
مصحوبة بالاعتذار والخجل ... عن كل ما قد كان منه قد حصل
وقد وقعنا انا والصديق ... في الذنب حين انكسر الابريق
اذ انا و(المصباح) كنا السببا ... لاجل ذا قصاصنا قد وجبا
وحين كان المذنبان اثنين ... فاستوجب التكفير ابريقين
لكننا لم نلق غير واحد ... إذا شئت جئناك بالف شاهد
فاحتسبي الابريق (للصديق) ... ولي انا حسبي غطا الابريق
وحاذري سيدتي ان تكسري ... انية وبالغي في الحذر
فليس كلما من البيت انكسر ... شيء له كفارة على البشر
فقد اتى في ارجح الاقوال ... كما اتى بالنص في الامثال
ان ليس بالمشروط كل مرة ... تحين ان تسلم منك الجره
وان تفوزي بالبديل منا ... او غيرنا وان يكن تجنى
لا سيما ونحن في لبنان ... ضاقت بنا وحشية الانسان
تلك التي عاثت بدنيا الناس ... ودنست لبنان بالارجاس
فلا شهامة ولا مروة ... ولا محبة ولا اخوة
ونهب الاوباش كل حي ... فلم نجد في السوق اي شي
يصلح ان يعوض المكسور ... به وان يحقق المسطور
وان ابيت ان تسامحيني ... طالبة تطبيق فروض الدين
ان شئت هكذا بان تكوني ... احرقت مني مذهبي وديني

وكان قد كتب لي صيدح يسأل عما اذا كنت قد رأيت (عجاج نويهض) منذ وصولي الى لبنان وعن اخباره؟ فكتبت إليه بما كان يسأل عنه ورويت له قصة الابريق المكسور والارجوزة، فكتب يطلبها مني، وقد سجلتها على شريط وبعثت به اليه، فاجرى قلمه في بعض كلماتها وكان له الحق في بعض هذا التبديل ولم يكن له الحق في البعض الآخر ولم اكتمه رأيي واحسب انه قد وافقني على ما أخذته عليه اذ جاءتني منه مقطوعة شعر يقول فيها:

سيدي عفوك عني انا مفجوع بذهني
تاه فكري خاب شعري ضاع عمري في التمني
كلما استلهمت شيطاني تمادى في التجني
وإذا قلت له جعفر حياني: أعني
قال لا تقحم عليه روضة فيها يغني
انه نسر عجيب خص بالشدو المرن
كلما الحنت في مسمعه هذب لحني
وإذا اخطأت في الارجاز لا يفرك اذني
فنه في الشعر بعد النثر قد ازرى بفني

وقد بلغ صيدح هنا في تواضعه حتى وضعني في المكان الذي لا استحقه، ومثل هذا من المبالغة ما يفعله معي وديع فلسطين وعجاج نويهض فيرفعاني الى مقام لست اهلا له وكلما انزلت نفسي الى مكاني يعودان فيصعدانني الى غير ما انا مخلوق له!.

ثم تلقيت من صيدح تعقيبا على ارجوزة الابريق بارجوزة يقول فيها:

«إلى الصديق الصديق، كاسر الابريق، في دار البطريق، عجاج نويهض برأس المتن»
ثم يخاطبني برجزة قائلاً:

عدت الى الاشعار كابن الشاطر جد الهوى بعد النوى يا شاعري
يفديك ابريق من القيشاني اهوى على رجليك كالسكران
هيبتك انقضت عليه فارتجف وهو على الرف زعيم للتحف
افلته عن غير عمد فانطلق يروي مآسيه الى رب الخلق
لو (ام خلدون) حبته نظرا ما اشتعلت غيرته فانتحرا
كم دللته يدها المباركة وكم حمته من ثقيل عاركه
قد راعه ان الضيوف البرره لاهون عن محنته بالثرثره
حتى (ابو خلدون) حابى ضيفه فلم يعاتبه ولا عنفه
يا رحمة الله على الابريق ودعكم بالسخط والشهيق
ثورته خامدة بعد الغضب كثورة العرب، انكسار، وهرب
امامكم اشلاؤه تنهار شاهدة بانكم اخيار
تعطون من كال لكم كيلين فتزدهي الدار بابريقين
ويعبق الجو بذكر (الجعفر) ذاك (الخليلي) المثالي السري
حباب (سوق الغرب) حبا مزمنا فيها رأى وجه الحياة الاحنا
ان قيل من يحسده؟ قلت: انا

ورددت على مقطوعة صيدح وارجوزته بمقطوعة من الرجز وبعثت بها اليه من سوق الغرب جاء فيها:

صيدح يا شاعر هذا الجيل — وسيد السراة في القبيل
يا شاعرا هز الوجود شعره — وانبت الازهار فينا نثره
ما حاد من بايعه اميرا — للشعر اذ كان به جديرا
يا ساكبا حسن المعاني في الصور — (فيصعد الحسن ويسعد النظر)
سميتني الشاعر يزجي التقفيه — ولست بالاهل لهذي التسمية
وهذه شيمة كل كابر — يمنح ما يملكه للآخر
ويغدق الاحسان دون من — فارو حديث جورج هذا عني
الشاعر المعطاء والامير — قدك به ان جئت تستجير

****

واذكر بخير ام خلدون اذا — ما حضر الشاي وقد فاح الشذا
والشكر كل الشكر للابريق — فرج في الغربة عني ضيقي
بالشعر من صيدح رب الشعر — متعه الله بطول العمر

وصار هذا التبادل في الشعر بمثابة المساجلة وصيدح ابن بجدتها وهو من قول اشعر في الضراح الأعلى، وانا بعيد عن قول الشعر وقد تركته منذ عهد الشباب ولم امارسه الا في الاحيان البعيدة التي ترغمني عليه المناسبة فاضطر الى نظم ابيات لا تزيد على مقطوعة لا اعني بها كثيراً ولا اعدها شعراً وقد تلقيت من صيدح تعقيباً على هذه المساجلة رجزا في لونين، يتبين القارىء براعته في القسم الثاني من حيث طول النفس في القافية الواحدة، وفي هذا الرجز يذكر من كان يصحبني في غدواتي وروحاتي بسوق الغرب من الاصدقاء كان منهم (المصباح) مصباح الفيل مدير البريد، وكان منهم الدكتور (بيار غريب) الطبيب، يقول فيها صيدح:

«تحيتي الى ثالوث الكرامة والحب في سوق الغرب» ثم ينشد

يا سيدي جعفر قد اعجزتني — جازيتني بالشعر بل جاوزتني
واخجلني من طلعة (المصباح) — ومن يد (الغريب) المسماح
بشرى لاشعاري غدت مرضية — ثالوثهم سجلها اغنيه
تسمعها الاذان بالالحان — فتدخل القلب بلا استئذان

حياكم الله رفعتم شاني

هذا صنيع يا كرام الناس
ازهو به كالتاج فوق الراس

اشتاقكم شوقي الى نبراس
يرشدني بالروح والاحساس
الى طريق البشر والايناس
بالرغم من حالي المرير القاسي
اني امرؤ في آخر الانفاس
احيا بلا شعر ولا افراس
لا تبطئوا، او اشهروا افلاسي

وتكثر الأحاديث بيننا فنتناول موضوعات مختلفة من الشرق والغرب، ويدلي بآرائه بكل حرية، فيقول مثلاً عن فدوى طوقان «ان شعر فدوى طوقان عن النكبة - يريد نكبة فلسطين سنة ١٩٦٧ - تفاهة بالنسبة لشعر نزار قباني، كانما كان نزار في نابلس، وهي في بيروت» ويقول مثلا عن نازك الملائكة في جلسات مؤتمر الادباء ببغداد: «ان اعجابي عظيم بموقف نازك الملائكة، وبآرائها واني على رغم شيخوختي وصباها لاعتبرها استاذتي» وعن نزار القباني يقول: ان نزار هو نزار العرب، وهو عندي هزاء العرب، واحب الشعراء المعاصرين الى نفسي» ويقرأ رباعية الشرقي التي يقول فيها:

بلـــــــــدي رؤوس كلـــــــــه   ارأيـــــت مـــــزرعـــــة البصـــــل؟

فينظم قصيدة على هذا الروى ويضمنها قول الشرقي هذا، ويردده في حديثه، ويكثر من ترديده، وقد اخذ منه هذا التضمين بعض الشعراء واوردوا بيت (الشرقي) في شعرهم وكان منهم (بنية سلامة) الذي ساجل صيدح في شعره واستشهاده ببيت (الشرقي).

وكانت بين صيدح وبين اخي عباس مراسلات ومساجلات شعرية، وحين توفي اخي وجاءت جوانب من حياته في (هكذا عرفتهم) كتب لي صيدح ذلك يقول:

«انتهيت من القراءة الثانية لكتابك (هكذا عرفتهم) وقبل ان امسك القلم رجعت للمرة الثالثة الى فصل (عباس الخليلي) من الجزء الرابع، لأن فيه معلومات ادهشتني عن هذه الشخصية الجبارة، وعن هذه السيرة التاريخية التي قل مثيلها ضخامة ونوعية ما كنت احسب حينما يسر لي خط الاتصال (بالعباس) الخالد الذكر اني كنت اخاطب هرماً ذا طبقات عديدة من المواهب النادرة، والاخلاق السامية، فقد وجدت فيه الاديب، والشاعر، والزعيم، والمحارب، والثائر، والصحافي، والطريد، والسجين، والسريّ، والمعدم، وعشير الملوك، وسمير الاعلام، وفريسة الخونة والمحتالين، ورب البيت المعذب بروحه وجسمه، وهذه السيرة من يؤرخها يؤرخ امجاد جيل من المجاهدين الابرار، واطوار قبيل من العملاء والاغرار الذين منيت بهم العروبة في جميع العصور، وما قرأت عن (ال السيد سليمان) في

النجف ذكرني ببعض الفرنسيين الذين كانوا يبيعون اخواتهم للألمان في اثناء احتلال فرنسا في الحرب الأخيرة، كما ذكرني بكتاب (النكبات) للريحاني الذي عدد فيه خيانات الامراء والزعماء لشعوبهم كلما طمعوا بكراسي الحكم فحاربوا في صفوف الاعداء لانتزاعها من ابائهم واخوانهم المالكين.

وبعد: فان اعجب لشيء من سيرة (العباس) فهو لايثاره الادباء والشعراء، وتسامحه مع كل من اتصل به، وتودد اليه ولو كان دون مستواه مثلي انا الذي لم يعرفني الا بتوصية منك، ولكنه خصني برعاية وحسن ظن، حتى جعلني موضوع قصيدة، ونجي عواطفه، بينما كنت انا اجهل مقامه الحقيقي، وانه رجل بمقام الف فكنت أخاطبه، وأداعبه كأني عشيره، وزميله، وها انا ذا بفضل ذلك حاضر في كتابك عنه حضور الدخيل على المنتدى الجليل، شاكر لك هذا الجميل».

فإذا مر في رسائلي مثل لم يسبق به، او حكاية، او اسم شخص بادر إلى السؤال عنه والاحاطة التامة به وعن طريقي قد تم له الاتصال بالكثير من ادباء العراق ومراسلتهم، واذكر انه سألني عن حوادث لبنان وانا مصطاف به وكان يعتقد ان التعصب الديني عند المسيحيين والمسلمين والدروز هو العامل الاكبر في هذه الفتنة، فقلت له: بل ان هناك يدا هي التي تعمل مثل هذا العمل وهي شبيهة بيد الشيخ باقر الشيخ حسون، وهو لا يزال حيا، ورويت له حكاية الشيخ باقر هذا، واحسب اني رويتها في غير هذا المكان ومجملها ان للشيخ باقر في النجف جاران تقع دار احدهما على يمين داره، والثانية على الشمال منها، وقد تخاصم مرة اطفال هذين الجارين، وانتهى الامر بأن دخل كل الى بيته، ووجد الشيخ باقر فرصة لاشباع ظرفه الذي عرف به، فكان ان رمى من بيته حجارة على بيت جاره من اليمين واخرى من الشمال فظن كل بيت ان من رمى الحجارة هم اصحاب الدار الذين خاصم اولادهم اولاده، فخرج الطرفان الى الشارع يتهم بعضهم بعضا وخرج الشيخ باقر ليصلح بينهم وما زال حتى ادخلهم الى داريهم ثم رمى مرة اخرى حجارة هنا واخرى هناك، وفي هذه المرة ادى الامر الى عراك ونزاع تجاوز حدود الوساطة والصلح، وقلت لصيدح، وانا اعتقد ان هناك وفي حوادث لبنان يدا تشبه يد الشيخ باقر، واذا بصيدح يسألني عن الشيخ باقر ويطلب عنوانه مني ليكاتبه وليتعرف اليه...! وبالاخص حين عرف بانه في حالة زرية وفقر مدقع..

واذكر مرة اني ذكرت له شخصية اسطورية نجفية ينسب اليها الناس عندنا المقاييس المتباينة المعكوسة وغير الصحيحة، فيقولون انها (قياسات جواد بعيو) و(جواد بعيو) هذا هو الشخص الاسطوري الذي زعموا انهم طالما دعوه لحل المشكلات فيحلها بما يفسد الامر، قياسا على قواعد معكوسة، ومن ذلك ان شخصا صعد الى سطح الدار مرة فإنهدم

السلم بعد صعوده، وحار اهله في كيفية انزاله من السطح والسلم مهدوم ولجأوا الى (جواد بعيو) فطلب منهم حبلا يرمون به الى اعلى السطح، وطلب من هذا المتحير الواقف على السطح والذي انهدم به السلم بان يشد رأس الحبل حول بطنه شدا محكما، ثم قال للجمع المحتشد هناك ان يجروا الحبل فاذا به يسقط اشلاء موزعة في صحن الدار، وسئل (جواد بعيو)؟ قال ليس عندي جواب غير ان منية الرجل قد حان حينها، والا فاني طالما اخرجت بهذا الحبل خمسين! واكثر شخصا كانوا قد سقطوا في البئر ولم يمت احد منهم...!! (ولربما اوردت انا هذه الحكاية في محل آخر ولم التفت اليها متكرر ايرادها هنا).

وراح صيدح يلح علي في شرح هذا المثل (قياسات جواد بعيو) واستعماله وما هو معروف في النجف من هذه الامثال، ولا يبعد انني اجبته بالشيء الكثير مما اعرف في مناسبات كثيرة، ومن المؤسف انني لا احتفظ بنسخة من رسائلي لارجع اليها فالمسودة من الرسائل هي المبيضة نفسها فيما اكتب، وحتى في بعض المقالات التي لا تحتاج الى بحث وتدقيق، فهي مسودة ليس لها مبيضة.

اقول ان صيدح كان يعنى بكل شيء، ويسأل عن كل شيء، وعلى الاخص كان يتفقد الاصدقاء، فقد كان في منتهى صفة الوفاء مقاما واهتماما كعجاج نويهض المشهور بالوفاء، واذكر انه كتب في سنة ١٩٧٠ وعلى اثر بعض الحوادث في الاردن، لقد كتب الى اكرم زعيتر بلهفة يسأله عن اخبار من يعرف وسمى له الاصدقاء واحدا واحدا باسمائهم ورجا منه ان يتفقدهم بنفسه ويشرح له احوالهم، وقد فعل (اكرم) ذلك وشرح عنهم كل شيء..

ونظراً لعمق محبتي وصلتي الوثيقة بصيدح وفرحات، كلمني عجاج نويهض بوجوب اقدامي على فتح باب المصالحة والمصافاة بين هذين الصديقين اللذين كانا ذات يوم من اكثر الاصدقاء بل اكثرهم حبا وقربا من بعضهم، وقد يستغرب القراء ان يعفو (نويهض) نفسه من القيام بهذا ويعهد به الي وهو لا يقل عني صلة بالاثنين؟ ولكن كان لنويهض مقال رد به على بذاءة صحيفة (النفير العربي) التي تناولت صيدح بالقذع والبذاءة وقد نزع عجاج في مقاله هذا صيدح من كل شيء يشين هذا الخلق الكريم، وجاء في هذا المقال شيء او بعض شيء مما عده (فرحات) ماسا به فانقطعت المراسلة بين فرحات وعجاج نويهض دون ان يعلم عجاج بالسبب لأن ما كتبه عجاج لم يكن يمس (فرحات) اذا نظرنا اليه بعين الواقع، وكان لي انا الآخر مقال مثل مقال عجاج في هذا الموضوع وكان فرحات راضيا بعض الرضا مني ولكنه لم يرض من مقال (عجاج) وقد عده متجاوزا حدود الدفاع عن (صيدح) إلى التعريض به «اي فرحات» كما كتب لي بذلك.

وقال لي عجاج ان هذين الصديقين اصبحا في اواخر سنيهما، وحرام ان يموتا وهما في مثل هذا الجفاء والمكارهة وانا واثق ـ يقول عجاج ـ بانك ان سعيت لازالة ما حدث من ذهنيهما عادا إلى صفائهما ومحبتهما السابقة، إذا حل بهما قضاء الله توفيا عن طيب خاطر..

اما محاولتي مع فرحات فقد مرت الاشارة اليها في (كيف عرفت الياس فرحات) (في هكذا عرفتهم) واما جورج صيدح فقد اجاب على رسالتي التي بذلت فيها جهدا كجهدي مع (فرحات) في ازالة ما علق بذهنيهما يقول:

«ان مسعاك بنية خالصة، ولغاية شريفة يخالف مبادىء من كان كبيرا بشعره. حقيراً باخلاقه، ودينه يختلف عن دينك، ولغته وحدها لغتك، ومن رضى الله علي ان انزل في لحدي نظيفا، بريئا من وصمة العلاقات (بالقروي) و(فرحات) اللذين اعدهما اليوم من الاموات».

ولم اكن انا الذي يكتفي بمثل هذا الكلام ويسكت، فكتبت إليه مرة اخرى واعدت عليه الحديث بطريق آخر كما فعلت مع (فرحات) تماما ورد علي بهذا القول:

«مشروع المصالحة مع القروي وفرحات لا لزوم له، والزمن وحده يدبر الامور بيننا، والى ذلك الحين تعالج القضية بالنسيان، وانا ابقى محترما موهبة الشاعرين، ومحتقرا اخلاقهما في اعماق نفسي»...

وبدا لي من لهجة هذه الرسالة انني استطعت ان افتح كوة ولو كانت صغيرة في هذا المسعى واعدت الكرة في الكتابة وشرحت له حالة (فرحات) الصحية وكان فرحات يومها قد اوشك ضوء عينيه ان ينطفىء وساءت صحته بسبب ما كان يعاني من ازماته الصدرية والتهاب القصبات فجاءني جواب صيدح يقول:

«قضية فرحات دخلت عالم الاموات منذ ثلاث سنوات، ولا تعجب من وقفتي الثائرة في وجهه لأن (ظلم ذوي القربى اشد ايلاما) والغضب على قدر المحبة، ومتى علمت ان (فرحات) كان الاثير عندي تعذر نقمتي عليه، وتعطف على جرحي، وقد المني خبر مرضه، وانا اضن بحياته الثمينة لأنه وليد سنة ١٨٩٢ مثلي، عافاه الله، ورد عني اذاه، وهذا كل ما اتمناه».

ثم يضيف إلى ذلك قائلا «وانا لم اقدم إلى فرحات اية خدمة مدى عشرتنا كما كنت اخدم (القروي) ومع ذلك اقام (فرحات) على عهدي مستمسكا بودي الى آخر سنة ١٩٧٢ حيث جاهر بالعدوان فجأة وبدون سبب...».

لقد اثمر السعي في نسيان الضغينة القائمة بين صيدح وفرحات، وكان من اثاره ان صيدح حين علم بان فرحات قد عهد بديوانيه الأخيرين (طلائع الشتاء) و(الشتاء) الى عبدالله يوركي حلاق ليقوم بطبعهما بعد مماته، وان الحلاق رأى ان يعد العدة للطبع منذ الآن وقبل وفاة فرحات فتح الحلاق باب المشاركة في طبع هذين الديوانين ليكون رأس المال جاهزا ان مات فرحات، ووفد على ربه، اقول وحين علم جورج صيدح بذلك اكتتب بعدد من النسخ وعدد اسماء الاشخاص الذين يجب ان يهدي عبدالله يوركي حلاق اليهم الديوانين وكانت هذه شهامة غير مستغربة من صيدح.

اقول لقد اثمر السعي في عودة القلبين الى صفائهما القديم ولكنه جاء متأخراً ففي الوقت الذي كنت انتظر ان يبدأ احدهما بفتح باب المراسلة والاعتذار الى صاحبه عما مضى مات (فرحات) وهنا تيقظت الذكريات العزيزة في نفس صيدح فإذا به يبكيه في قصيدة شجية يقول فيها:

ذاب جسمي ولاب روحي اسيا ... يا ضميري لم يبق غيرك حيا
كن لساني وترجماني وحدث ... كيف امسيت يا معذب عيا
انا لولاك ما عرفت ارتياحا ... في حياتي ولا رقادا هنيا
اكل الدهر ما حلا من كياني ... يعلم الله اي متى يتقيا
همه الحد من صلابة عودي ... والتجني على غصون المحيا
الغرابين نصب عيني صبحا ... والثعابين في المهاد عشيا
والاماني مرت مرور الثواني ... بينما النائبات قرت لديا
يا ضميري تعيش ما عاش الف ... في حناياك وارتضاك وليا
شتت البين في (البرازيل) سربا ... كان يهوى لبنانه العربيا
كفنوه بشعره ونسوه ... لا يبالون باسم (اندلسيا)
ايه (فرحات) والليالي الحبالى ... اسكتت عندليبها المهجريا
كنت في ارضنا نباتا عجيبا ... وعلى روضنا أريجاً زكيا
خصك الله بالمواهب شتى ... لا ملاكا بشرى ولا ادميا
ثار حزني عليك وانهار ضغني ... فاذا انت مالىء اصغريا
هاك شعري في ارذل العمر يحكي ... ان لي في الاسى مكانا قصيا
سكرة الموت فضل عزريل فيها ... انه جنح الردى بالحميا

وعلى رويّ هذه القصيدة يرثي شفيق معلوف ويختمها بهذا البيت:

راح فرحات ثم معلوف، قبلي ... رب هب لي ان اسبق (القرويا)

قلت ان صيدح كان يعاني في سنينه الاخيرة امراضا كثيراً ما كانت تلجئه الى دخول المستشفى بين حين وآخر وخاصة نزيف المثانة الذي يلزمه باجراء العملية في كل سنة، ولم يسلم منه شيء الا صفاء الذهن، والحس السالم الذي ظل يرافقه الى آخر ايامه، الذي يزعجه فوق كل ذلك هو الشعور بالغربة بالرغم من عدم خلو منزله بباريس ممن يمر عليه من سراة العرب وادبائهم وكان منهم المحامي الشهير (هنري كتن) بصورة خاصة، واكثر ما كان يؤلمه هو بعده عن الوطن العربي، وانه يأسف لأنه سيموت في الغربة، ويدفن في مقابر لا صلة له بتربتها، وقد جاء في احدى المجلات واظنها (مجلة الاديب) لأن الجزازة التي انقل منها لم يتبين لي فيها الاسم والتاريخ قوله:

«لقد وقعت في مجلة (السياحة) على قصيدة الخليلي الاكبر (عباس الخليلي) لأخيه جعفر فاستوقفني من القصيدة قوله - اي قول عباس:

اقعـــدني عـــن العلى وهـــن زار، عجـــزاً، وبطـــر
شيخـــوخـــة قضـــت على عـــزمـــي، وضعـــف في البصر
ولي يـــراع كلمـــا امسكتـــه ارتـــاع وفـــر
جفلان مـــن مبـــاضـــع تشـــق جسمـــي وابـــر

فقلت هذا شاعر في طهران، وحاله حال شاعر في باريس يشكو من المرض والشيخوخة والعي ما اشكوه، لافض فوه، وهذا موضوع زفرتي».

وان زفرته هذه التي تمثل فيها بابيات اخي عباس الخليلي يجدها القارىء في مواطن كثيرة من شعره منها قوله:

اصبحـــت لا اشـــدو ولا امـــرخ يـــا ليتنـــي امسي ولا أصبـــح
اقعـــدنـــي الهـــم وســـن علـــت وعـزلـة طـالـت بهـا - ارزح... الخ

وقوله:

ومـــاذا يـــرتجـــي الشعـــراء ممـــن تجـــاوز مـــرتيـــن الاربعينـــا

وفي هذا البيت شيء من البراعة التي يتجاوز فيها قول الشاعر المشهور القائل:

ومـــاذا يبتغـــي الشعـــراء منـــي وقـــد جـــاوزت حـــد (الاربعيـــن)

وقوله وهو يرثي امين نخله:

لي الله كم صحب تـولـوا ولـم ازل على الرغم مني - لا اولي مع الصحب
هنيئـا لمن مثـواه في الشرق نـاظـر ويـا حسرتـي مثـواي في قبضـة الغـرب

ويكتب الى اكرم زعيتر يوم كان اكرم زعيتر سفيرا للاردن بطهران يتبين عن غربته يقول فيها:

طهران ارحم من باريس مغتربا | فيها انست بارحام ميامين
اما جواري فلا ارحام تجمعني | بهم كاني طلبت العلم في الصين

وتشتد الامه واوجاعه وقد احس بدنو اجله ولو بعد ثلاث سنوات فرأى ان يصفي بقية اعماله بلبنان ما دامت فيه بقية من القوى فجاء الى بيروت في ربيع سنة ١٩٧٥ وسعى الى التخفي خوفاً من تعرف الصحف بمجيئه وحينذاك لن يقدر على تقبل زيارة الاصدقاء والمحبين الذين يبلغون المئات وباع كل ما كان تحت تصرفه وعاد به إلى باريس ولم تعرف الصحافة بمجيئه هذا الا بعد عودته.

وكان وقت مجيئه لتصفية البقية مناسبا جدا اذ انه حين عاد الى باريس تكاثرت امراضه، وبدأت صحته تتدهور يوما بعد يوم، وطالما كتبت اليه لاسليه واشجعه على مواجهة الواقع بما عرف به من الحزم والشجاعة، وقد كتب لي مرة يقول:

«فرحي برسالتك عظيم، وساعات الفرح في حياتي الآن نادره وغاليه، واذا عملت بقولك الحكيم الذي تقول لي فيه: (ولك الساعة التي انت فيها ترتفع معنوياتي قانعا بوجودي على قيد الحياة، ولكن اوجاعي الجسدية لا تزول، واحكام الشيخوخة لا ترحم، ولا تهادن، فكيف اتناساها؟

وانني الآن افهم المعذبين الذين يتعاطون المخدرات السامة كي تروح عنهم ثم تقضي عليهم آخر الامر، من فضل الله اني لست منهم، وان ذهني، وحواسي سليمة).

وهو مريض وفي حالة تستدعي الركون إلى الراحة يكتب وينظم، ويراجع اوراقه ويبحث احيانا ويقول لي:

«... وما زلت اكتب تحدياً لوديع فلسطين والطبيب الذي ينهاني عن الكتابة عامة وعن نظم الشعر خاصة فلا اطيعه الا نادرا، لأن الحياة بلا قلم ومع الألم هي في نظري كالعدم، واخالك على مذهبي من هذا القبيل».

وصدق والله وانا اتناول هذا العرض واحدى عيني على وشك الغموض نهائيا بسبب انغمارها بالماء الابيض، ويدي ترتعش حينا وتسكن اخرى وانا لا انفك عن القراءة والكتابة، ولا احسبني قادرا على استجابة نصيحة الطبيب.

وشكوى صيدح كشكوى (فرحات) من انعدام من يعنى بمتروكاته ومخلفاته القلمية بعده، وحسنا فعل ان اهدى بعض ما هو تحت يديه الى (وديع فلسطين) وقد تلقيت منه حين علم بان عندي اليوم اجزاء من كتابي (هكذا عرفتهم) مخطوطة لم يتيسر طبعها لتلحق بالاجزاء الأربعة المطبوعة، لقد تلقيت رسالة منه يقول فيها:

«عندك ثلاثة كتب نفيسة هي رهينة المطابع والدنانير (ويشير إلى اجزاء لم تزل مخطوطة من كتاب (هكذا عرفتهم) وهي اليوم خمسة اجزاء وليست بثلاثة) وعندي مكتبة من افضالك علي (يعني مؤلفاتي المهداة له) اخجل عندما افكر بتضحياتك في سبيلها، وارتعد متى تساءلت عن مصيرها بعدي وليس في بيتي من يفهم العربية، وامعتصماه».

ويعود في رسالة اخرى قالها في اواخر ايامه جاء فيها:

«... اني اعكف على مؤلفاتك الجديدة اسفا لصعوبات النشر التي تعترضك وانا دون غيري مستعجل، والسبب واضح (يقصد دنوه من الموت) للاطلاع على ما تؤلف اكمالا لمكتبتي (الخليلية) الخاصة، ويعلم الله كم يصعب علي فراقها وخصوصا تتمة اجزاء (هكذا عرفتهم) فهل ساطلع عليها؟».

واحس صيدح بقرب اجله حين قال عن (شفيق معلوف) «... فخيل لي اني ابكي نفسي حين ابكيه، فلم اجار من يرثيه، بل هيأت نفسي للحاق به».

وكان من هذا الاحساس توديعه بعض اصحابه في قصيدة سماها وديع فلسطين بالعسجديه وفيها ينتظر موعد انتقاله الى دار الآخرة، وكان وليم صعب والبير اديب، وعبداللطيف يونس، ومحمد عبدالغني حسن، ووديع فلسطين، وانا، ممن خصهم بهذا التوديع وكانت هذه القصيدة آخر ما نظم من الشعر وكان قد نظمها في تموز ١٩٧٨ وبعث بنسخة منها إلي وانا بسوق الغرب من لبنان، ومرت ابنتي فريده بباريس في شهر آب من نفس السنة واتصلت به تلفونيا للاطمئنان على صحته وابلاغه تحياتي، فاخبرتها زوجته ان حالته سيئة، وانه مسجى في الفراش وفي آخر يوم من عودتها من باريس عادت واتصلت ببيته للاطمئنان فشكت زوجته إليها حاله، وحين علمت بذلك بدأت اكتب له رسالة بعد رسالة واطلب منه الا يقطع عني اخباره بوساطة زوجته ولتكتب لنا بالفرنسية وهنا ابنتي فريدة تعرف هذه اللغة لكي نطمئن الى حاله ولم اتلق جوابا على ما كتبت حتى وافاني خبر وفاته في اكتوبر من سنة ١٩٧٨.

اما القصيدة العسجدية فقد نشرها ودي فلسطين في عدد ديسمبر من نفس السنة في مجلة (الثقافة) التي تصدر في القاهرة اثبتها هنا كذكرى منه لما كان في نفسه نحو اقرب

اصدقائه اليه، والى ما كان يجول في نفسه عن نفسه، ولست ادري كيف لم يأت فيها ذكر لعجاج نويهض مع انه من اقرب اصدقائه اليه، وقد عنون (وديع) القصيدة (بالصلوات على مسمع الاخوان الابرار في مختلف الاقطار) وجاءت القصيدة مبوبة بالارقام وفيها يرثي صيدح نفسه في آخر ايامه، ويبدأها بالاخوانيات ويقول:

-١-

إلى الأخ البيروتي اللاهوتي الاستاذ وليم صعب:

قلبي يحدثني بانك مرشدي ... في تيه ايامي وعشواء الغد
النور قاطعني غداة تركته ... خلفي ولم احمل سراج المعبد
لم اتعظ بك قائلا بل فاعلا ... في معشر الضلال فعل المهتدي
يا (صعب) انت السهل في شرعي فما ... انست فيك سوى السعيد المسعد
تقواك في دنياك مدت ظلها ... فوقي كأني واحة في فدفد
تحيي صلاتي كلما صعدتها ... لله فاجعل من صلاتك مصعدي
والله تواب علي لأنني ... هيأت نفسي للقاء السرمدي
انت المجيد بدينه ويقينه ... وابو (المجيد[1]) بشعره المتجدد
ان زرتني يوما كما واعدتني ... توجت احلامي بابهى موعد

-٢-

الأستاذ الحبيب ألبير أديب:

قل (للاديب) المصطفى حين اختفى ... تبا لعيش بالدمار مهدد
روت مجلته صدى قرائها ... لم تنس إلا ريّ صاحبها الصدي
وهو النجيب المستجيب لكل من ... ينتابه، من رائح او مغتدي
متفرد في جهده متعبد ... لرسالة تقسو على المتفرد
لا يضمد الجرح الذي في صدره ... ما دام جرح ديارنا لم يضمد

-٣-

اليونس المقدام، جابر عثرات الكرام[2]

(عبداللطيف) ابالسيوف شهرتها ... ورفدتني في حين لم استرفد
طاردت في ساح المهاجر مدخلا ... وصرمت حبل الغادر المترصد

---

(١) الشاعر الشاب نجل الأستاذ وليم صعب

(٢) عبد اللطيف يونس المتطوع الوحيد لتسفيه المتطاولين على شعر المهجر.

فيك المروءة غضبة مضرية ... للحق لا يعنيك باس العربد
كلا ـ وما حابيت علجا ابدا ... ان كان بالاخلاق غير مؤيد
لو ان بعض الشاربين على القذى ... ساروا مسيرك ما تعكر موردي
بشراك ـ بان الحق والافق انجلى ... لم يجد نعر (الناعري) الملحد !![1]
دور الصفاقة والحماقة عنده ... كان السبيل الى انتحال السؤدد !!
تجري السفاهة من خروم يراعه ... جري الوحول على الاديم الاربد
أرثي لمن وثقوا به من صحبة ... لا يعلمون متى الخيانة تبتدي
بعض الخيول الشمس يضرب بالعصا ... والبعض يكفيه اهتزاز المقود

-٤-

شاعر الاهرام، محمد عبدالغني حسن[2]

يا حامل القيثار ضاع شبابه ... في عشرة الاوتار، لا تستشهد
يكفيك ما عنيت من جهد لدى ... دول القوافي الساهيات الشرد
انا في مسارك دانيا او نائيا ... افديك، هل يعنيك هم المفتدى؟
في مسمع الفسطاط بثي دائم ... يروي تعلات المشوق المبعد
الدهر عاقبني على شيخوختي ... فغدوت اشبه مومياء المعبد
افسحت لو رأت الكنانة سحنتي ... لتنكرت للطارىء المتأود
اما ودادك فهو اكرم ساكن ... قلبي، واعظم كاهن في معبدي
لله درك عبقريا جامعا ... شتى المواهب في ازار موحد
احببت من عقل الزمان لسانه ... لولا الصبابة سيطرت لم انشد
في ذمة الاجيال ما غردته ... وتركته ارثا لكل مغرد
سقيا لعهد مطارحات بيننا ... رقصت على شفة الصدي المتردد
احسنت للارواح كم عللتها ... بالراح بالشعر المقيم المقعد
كن رمزها ان شئت اوكن لغزها ... ان التسامي شيمة المستمجد
امم تنازعنا البقاء وتنثني ... بعد العناء حريبة صفر اليد
تهوى النجوم ومصر رابضة على ... افق الخلود سهيرة للفرقد

---

(١) إلى هنا ولم يزل في نفسه شيء من الناعوري!!؟
(٢) المبرز في الكتابة والخطابة عن أدب المهاجرين وشاعر الأهرام الكبير.

-٥-

وديع فلسطين زين الكاتبين(١)

زودت اقلامي بحبر عسجدي   وعزمت اكتب ما يليق بسيدي
هذا (الوديع) اعزني بمودة   هي ثروة شغلت عقول الحسّد
قدستها واخذت احلف باسمها   اني لها ما دام امري في يدي
منها تعلمت القناعة والرضا   بمدائح (مهموسة) في المشهد
جافيت اضراراً كوتهم ناره   لم اجف نقادا براة المقصد
هذا (المقفع) عالم مترفع   ان تقرب الانوار منه يبعد
عين (الرقابة) لاحقته فقمرت   كالسلحفاة وراء قلبي اغيد

والاقدمون يقلدون بيانه   شتان بين مجدد ومقلد
اعطي سعيدا كلما اعطى سدى   منا وسلوى في الصعيد الاجرد
واستمطر الادب الرفيع جواهرا   يزدان اطرفها بمجد الاتلد
ما عاقه ما عاقني من حملة   هدامة فضحت حقود الجحد
شلت يد الجاني علي قمارنا   حتى انحنى وانهار لو لم يسند

****

يا وارد النيل المنيل الا ترى   شبح الردى في موقف المترصد
هيهات يمهلني وقد بلغ الربى   سقمي، وخارت عزمة المتجلد
لو كان جسمي مثل خصمي جلمدا   لخلدت لكنني عدو الجلمد
ما زلت في غسق الحياة مسمرا   عيني في الشفق البعيد الامرد
يوم التقينا برهة في ردهة   ثم افترقنا ابعدا عن ابعد
فاذا الغريب الى الغريب مقرب   واذا المراسل بالمراسل يقتدي
ان جاده وحياً رذاذا جاءني   بالغيث مدرارا على مستوقدي
لا فرق بين ربيعه وشتائه   فصل النتاج لديه شبه مؤبد
اشواقنا عبر السنين تكللت   بعد البراعم بالقطاف الاجود
نحن الغصون يبيسة اوراقنا   لكن في اعوادنا اللب الندي

---

(١) وهناك نعت آخر ينعته وهو (امام الكاتبين) وعندي أنه الأرجح (الخليلي).

-٦-

أديب العراق جعفر الخليلي:

سل في العراق عن الرفاق وقل لمن ... منهم (تلبنن) عد بنا و(تبغدد)[١]
لبنان آلى ان يدمر بيته ... ويبيح للجاني دم المتبلد
دعه يقتل أهله بأهيله ... واسلم برأسك فهو اغلى مسند
كم بين دجلة والفرات مسهدا ... قلقا كأن فؤاده في موقد
ان لم تعد الجو ليس بمبرق ... في غيبة الحادي وليس بمرعد
يمم دمشق على الاقل تجدبها ... شعبا يعفر هامة في المسجد
وهو المغير المستطير إلى العدى ... (فيما عدا الهودي والمتهود)

-٧-

حكاية الحال مع الابتهال:

اني لاعجب كيف احيا نازحا ... عن موطني مستعصما بالمحتد
قومي هنالك لا تبش وجوههم ... وقلوبهم للغائب المتودد
لا يذكرون وليهم الا متى ... قرأوا اسمه وسط الاطار الاسود
غاوون يجترون صيحات القطا ... لاهون عن اغرودة المتغرد
الضفدع المنفوخ منهم شاهد ... كم (دكتروا) من صرصر اوجدجد
صوبت. (يوم سكرت) ـ سهمي نحوهم ... ورددته نحوي كأني في دد
يأبى إبائي ان اكون خصيمهم ... الحر يأنف من خصام الأعبد

****

يا رب هبني راحة روحية ... طال السهاد وعيل صبر المرقد
وسعت في عمري الى ان ضاق بي ... جلدي وادماني حزام المقعد
اخفيت وجهي عن عيون صحابتي ... حذر الشماتة ان بكاني عودي
الدهر عاداني فلم احفل به ... اني نجيك رغم انف المعتدي
انجدت (يونان) الغريق وهاأنا ... اهوى امامك مثله ـ كن منجدي

****

اليوم طويت ملف رسائل صيدح ووضعته مع اخوان له قد طووا من قبل لأن (صيدح) قد مات، والشيء الذي ليس بوسعي ان اطويه هو الذي ارتسم في صفحات الذهن

(١) المصطاف الوحيد في (سوق الغرب) يحتكر الفندق الكبير بلا شريك وسمير هذا تعليق وديع فلسطين.

هذا الرجل مما عرفت، من ادب جم، وخلق عظيم، وعاطفة ووفاء وحلم وغضب، يفيض به شعره، ويصوره بكامل حقيقته شاعرا من نوابغ شعراء العرب يحس باحساسهم، ويذوب فيهم محبة واخلاصا.

وكتب لي عجاج نويهض يطلب مني التفكير في تخليد ذكرى صيدح في كتاب خاص او في عدد خاص لاحدى المجلات العربية، فاستحسنت الرأي بل رأيت تنفيذه واجبا ونويت ان ارجع إلى وديع فلسطين في اهم ما ينبغي نشره من الذكريات التي يحتفظ بها (وديع) بعد ان اكون قد مهدت للامر وسائل الطبع وتهيئة النفقات المطلوبة، وهداني فكري الى الصديق عبدالله يوركي حلاق صاحب مجلة (الضاد) لسببين مهمين اولهما كثرة انتشار (الضاد) في المهاجر الافريقية والاميركية، وثانيهما لارتباط صاحب الضاد بصيدح كصديق وشاعر، وصحافي، وكتبت له وابديت استعدادي بدفع نفقات الطبع التي ساجمعها من اصدقائي ومني، ثم رأيت ان استعين بوزارة الثقافة السورية لمساعدتنا ولا سيما ان صيدح سوري الوطن ثم انه الشاعر الذي طالما خص سورية بشعره وفضله الكبير الذي لا ينساه التاريخ على سوريين ليس فيما كان يبذله من مسعى في المهاجر لمساعدتهم فحسب، وانما لأنه كان الموفد من قبل (بيرون) الرئيس الارجنتيني ضمن الوفد الارجنتيني الذي اوفد الى دمشق لتسوية القضايا التي تخص الجالية السورية في الارجنتين التي بلغ امرها من التعقيد الغاية فكان لصيدح الفضل في ازالة العوائق وضمان حرية السوريين في العمل في الارجنتين، ولم اكن اعلم ان للثقافة السورية وزيرة وليس وزيرا فكتب لي (وديع) ينبهني الى ذلك فعدت الى الوزيرة معتذرا، وردت علي ردا لطيفا ليس هو اليوم تحت يدي لانشره بنصه مبشرة بأن وزارة الثقافة ستعد العدة لذلك وستقوم بتخصيص عدد من مجلتها بصيدح، واستبشرت خيرا وقلت (وكفى الله المؤمنين القتال).

ومرت شهور، ومر رأس السنة التي كنا قد عيناها لاخراج هذه الذكرى ولم يبين من وزارة الثقافة شيء، وفي يوم ومن دون اية مناسبة صدر احد اعداد المجلة وفيه مقالان او ثلاثة لكتاب لا اشك ان ليس بينهم من كان يعرف (صيدح)، فلا وزارة الثقافة تركتنا نقوم نحن بما يلزم ولا هي عملت اللازم فجاءت من بعد هذه المدة الطويلة تخفف المثل القائل «تمخض الجبل فولد ناراً».

****

لقد كان (صيدح) صديقاوفياً، ملأ حياتي كلها بهجة وسرورا، وقد قضيت الزبدة من عمري متمتعا بمحبته، انيسا بسيرته، مسحورا باخلاقه، فحق علي ان افجع به فجيعتي بأخي الكبير (عباس) وان ابكيه بكبدي الفائض دموعا من عيني فبكيته، وسابكيه كلما

مر على ذهني اسم الشام، وبيروت ، ومصر ، وفلسطين والمهاجر الاميركية ، وسيظل فندق (نيورويال) الذي جمعنا لأول مرة ماثلا امام عيني يذكرني بتلك الشخصية الحبيبة الى نفسي، والى نفوس عارفيه، طيب الله ثراه، واحسن مثواه...

كيف عرفت
الدكتور أمين زهر
١٩٠٩ - ١٩٨٠

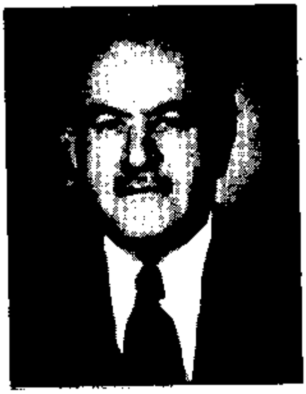

عرفت عدة اطباء تجمع بينهم بعض المبادىء فتتألف منها أواصر روحية دون ان يعرف احدهم الآخر عن كثب وربما دون ان يعرف بعضهم البعض حتى بالاسم.

فمن بعض من عرفت عن طريق القراءة كان الدكتور (كولد سميث) الطبيب الشاعر الانجليزي ولا اذكر عصره بالضبط ويغلب على ظني انه عاش في اواخر القرن الثامن عشر والا ففي اوائل القرن التاسع عشر على الظن، بصفته كونه شاعرا فقد عرف برهافة الحس والعطف على المعوزين والفقراء ومعالجتهم مجانا، وجاءته ذات يوم امرأة انجليزية زرية الحال تطلب معونته في زيارة زوجها المريض الذي لم يكن باستطاعته الحضور اليه بنفسه لشدة ما كان يعاني من المرض، فقام معها الطبيب وطال به الطواف في احياء الفقراء البعيدة عن وسط المدينة بلندن حتى وصل إلى بيت المريض فإذا به قبو معتم، رطب، تعاف سكناه حتى الخنازير القذرة وإذا بهذا البيت خال حتى من طست تغسل به المرأة الثياب على ما بدا له، وكان هذا المريض عاملا من العمال، وكان جوعه وعدم حصوله على التغذية الكافية وعدم وجود ما يضمن له راحته في هذا القبو هو السبب في هذا المرض الذي هد منه الحيل واوصله الى ان يحط رأسه على وسادة سميث بالوسادة من باب التجوز، فلم يستطع ان يرفع رأسه منها. وفي هذا البيت بضعة اطفال له هم الآخرون في اشد الاحوال ازمة من فرط العري والجوع، ولم يكن يومذاك للعمال حقوق معينة من التقاعد او ضمان يكفل لهم الخلاص من العوز او المرض إذا ما اعوزوا او مرضوا، فوقف الدكتور (كولد سميث) يفكر في امر هؤلاء، ويتعجب كيف لم يلفهم الموت

وكيف تناساهم إلى هذا اليوم، وقد وجد ان الوشاح الصوفي الذي كانت تتشح به الزوجة انما هو وشاح الرجل الذي كان يلتف به يوم كان بامكانه ان يخرج الى العمل، وقد صارت هي تلتف به إذا ما خرجت تبحث عن عمل تقوتهم باجوره، وهنا قال الطبيب للمرأة لا تفكري عبثا في الدواء وانما عليك ان تمري بي غدا وبمحل عيادتي لتتسلمي مني الدواء الذي لا يوجد عند احد غيري في هذا الوقت.

وجاءت المرأة في الموعد المضروب الى العيادة فناولها الطبيب ظرفا من الورق وقال لها ان في هذا الظرف وصفة طبية عليك ان تفتحي الظرف في البيت وتخرجيها وتعملي بمضمونها فإنها الوصفة الوحيدة المفيدة التي لا تنقذ زوجك من امراضه وعلله فحسب وانما ستعالجك انت واطفالك وتملأكم صحة وعافية ان شاء الله (وهذه الإن شاء الله من عندي أنا طبعاً).

وفي هذا القبو فتحت الزوجة الظرف فألفت فيه صكا يحول فيه الطبيب جميع ما استودع في البنك من النقود لأهل هذا البيت!!

ومن بعض ما عرفت من هؤلاء الاطباء عن كثب وسبق اطلاع، هو الدكتور رشيد معتوق وقد عمل طبيبا وجراحا في الشامية، والكوفة، والديوانية من العراق، وكان إذا جيء به الى مريض في احد الاكواخ يدور بعينيه في الكوخ وفي البيت ومن هذه الدورة كان يعرف ما يحتوي عليه البيت وما لا يحتوي، ولا يمكن ان يدخل كوخاً او بيتاً الا ويسأل عن طريق لا تستلفت النظر عن عمل صاحب البيت وما يزرع وما يحصد ان كان فلاحاً، وما يكسب ويجني ان كان عاملا، وعن عدد الاولاد، في هذا البيت مما يكوّن له فكرة عن حال المريض واهل بيته الاقتصادية، وما الذي يعوزهم في دنياهم فهو فضلا عن انه لا يتقاضى الاجرة المفروضة فإنه يوصي بمراجعته في المستشفى في وقت خاص، وهناك يكون قد احضر للمريض الدواء المعين، ثم عدة امتار من القماش الصالح لتفصيل الثياب، وبعض الاغطية والافرشة التي يكون (مراسله) قد جهزها من السوق، وفي ظرف من ظروف المكاتب يضع المبلغ المناسب حتى إذا جاء اهل المريض دفع كل هذا لهم ودعا لمريضهم بالشفاء، وان هذه المناطق التي عمل فيها الدكتور معتوق تتناقض معيشة سكانها تناقضا عجيبا فهي مسكن الفلاحين والعاملين الفقراء لحد العري كما هي مسكن الاغنياء الذين تتجاوز ثروتهم الحدود المعقولة ولشهرة الدكتور معتوق الطبية فقد كان مرجعا للفقراء والاغنياء في التطبيب فكان يأخذ اجوره من الاغنياء فينفقها على الفقراء.

والدكتور رشيد معتوق لبناني مسيحي ومن سكان جونية الواقعة شمالي بيروت وعلى البحر المتوسط وحين حان موعد انتخاب النواب للبرلمان اللبناني كتب اليه اهل بلده

يخبرونه بان رأي البلد قد توحد في ترشيحه للنيابة وعليه ان يعجل بالعودة، فقدم الدكتور معتوق استقالته للحكومة العراقية ولكن لم يكن لديه اي مبلغ يكفي لانتقاله وانتقال عائلته الى مسقط رأسه بلبنان فباع اثاث بيته واتخذ منه العون في الرجوع الى جونية، وقبل ان تخطو قدمه عتبة باب البرلمان راح ضحية دهس لسيارة فلت مقودها من يد سائقها في الطريق العام فبكاه الناس بلبنان كما بكاه عارفوه من الفقراء وغيرهم في العراق، ودفن هناك ودفن معه جانب كبير من الانسانية في قبر واحد.

ومن هذه الزمرة عرفت الدكتور عبدالمجيد القصاب العراقي الجنسية والمتخرج في جامعة (مونبليه) وقد فتح عيادته اول ما فتحها في احياء الطبقة الفقيرة فكان يعنى بالفقراء ويزور مرضاهم في بيوتهم وينفق على المرضى ثمن الادوية من كيسه، فقد اتفق مع احد الصيادلة بان يدفع للمريض الذي يحمل وصفة الدواء المعلم عليها باشارة خاصة منه ولا يأخذ منه ثمنه وانما يجريه في حساب الدكتور وقد استوزر القصاب غير مرة فلم تغير الوزارة شيئا من اخلاقه وظل على عادته يزور المرضى الفقراء في بيوتهم ولا يتقاضى منهم شيئا، وخير ما وصفت به اخلاقه قول المرحوم فؤاد عباس فيه وقد مر في الجزء السادس اذ يقول له:

وانـــت انـــت زينـــة الاقـــران وغـــرة في جبهـــة الزمـــان
ومجمـــع الاصحـــاب والخلان وجـــوهـــر الوفـــاء للاخـــوان
مـــا غيـــرتـــك رفعـــة المكـــان وعـــزة الوزيـــر في الاوان
على الاقـــاصي وعلى الادانـــي بـــل كنـــت وقفـــا لبنـــي الانســـان
فمـــن مكـــان والى مكـــان تسرع للخيـــر بلا تـــوان
تطبـــب الجميـــع بـــالمجـــان حتـــى الدواء للفقيـــر العـــانـــي
تصرفـــه لـــه بلا اثمـــان إمـــا مـــن النمـــوذج الاعلانـــي
او بعلامات لصيدلاني

وعرفت من هذا النسق من الاطباء الذين انقادوا للانسانية الدكتور أمين زهر وهو الآخر لبناني عمل في العراق طبيباً لقضاء (راوندوز) سنة ١٩٣٧ لأول مرة كما عمل في قضاء (عانة) و(سامراء) ثم طبيبا (للمعارف) في النجف الاشرف، وهو من دروز مدينة (العبادية) والدروز في الاصل (اسماعيليون) باطنيون، وبالنظر لتحريمهم الزواج من غير طائفتهم عطاء واخذا فقد بقيت عاداتهم عربية، اصيلة يحافظون عليها بحرص شديد يتجلى في الكرم، والشجاعة، والنبل والوفاء، وانك لتلمس هذا وانت تمر بقراهم ودساكرهم، والمتمسك بالدين منهم لا يشرب الخمر، ولا يدخن، ولا يكذبُ ولا يغش في معاملته، واكثر الذين يلتزمون بمثل هذه الاخلاق انما يعثر عليهم العاثر في مدنهم التي

عرفت بالمحافظة على هذه السجايا، وتأتي مدينة (العبادية) التي انجبت الدكتور امين زهر في ضمن هذه المدن التي تكاد تخص بالقدسية، وقد عرفت انا هذه المدينة عن طريق الدكتور امين نفسه وعن طريق الاديب الكبير الشيخ وديع تلحوق الذي زودني بالشيء الكثير من تأريخ هذه المدينة وأسرها ومشاهير صلحائها.

ولو شاء امين زهر ان يجمع ثروة طائلة من العراق بسبب ما كسب من شهرة في حسن التداوي والبراعة في المعالجة كما جمع غيره من الاطباء لتم له ذلك بكل سهولة ولكنه قلما كان يفكر في شيء مثل هذا ويشهد على ذلك بيت له من قصيدة موجهة لإبنه (خالد) حين عاد من العراق يقول فيه:

عـــــاد الجميـــــع بـــــالغنـــــى الاي لما أعـــــــــــــــــــد

والعبادية تقع على بضع مئات من الامتار من شمالي قضاء (عالية) يفصل بينهما طريق بيروت والشام، وهي لا تبعد عن بيروت سوى بضعة عشر كيلاً وكل سكانها من الدروز باستثناء عدد جد قليل من البيوت المسيحية، ويقول الشيخ وديع تلحوق ان اسمها منسوب (للعبادة) ويرجح انها كانت منذ نشأتها الأولى، مقرا لجماعات من المتدربين الذين ينتسبون الى طائفة الفاطميين، ويساعد على ترجيح هذا الرأي انها لا تزال حتى وقتنا الحاضر تتسم بهذه الصفة الروحية السامية، اذ انها تضم حاليا عددا كبيرا من المتدينين المشهود لهم بالتقوى والصلاح ويؤمها الكثير من متصوفي (الدروز) باستمرار.

وقد روى بعض الثقات من المدققين انه عثر في احدى مخطوطات المغفور له امير البيان الامير شكيب ارسلان التي استعرض فيها تاريخ بعض القرى اللبنانية العريقة على تعريف بقرية (العبادية) ورد فيه ان الاسم الاصلي القديم لها هو (العبيدية) نسبة الى الخلافة الفاطمية التي كان بعض المؤرخين يطلقون عليها اسم (العبيدية) ايضا كما هو معلوم وذلك باعتبار ان هذه القرية كانت احدى قواعد الدعوة الفاطمية التي اعتنقها (الدروز) في لبنان.

ويزيد الامير شكيب رحمه الله في اثبات هذا الارتباط التاريخي بانه عثر في بعض الحفريات القديمة في بلدة (العبادية) على نقوش ظهر عليها اسم الأئمة الثلاثة: علي، والحسن، والحسين.

كما يوجد على احدى قممها القريبة من مدينة (عاليه) مزار ديني معروف، هو ضريح لاحد الاقطاب الروحيين الذين اشتهروا في لبنان منذ اوائل القرن الماضي، اي من اكثر من نحو مئتي سنة ويدعى (الشيخ ابا حسين محمود ماضي) ويروي العارفون المتضلعون انه كان في عصره من اصحاب الكرامات.

ومن اعرق أُسر هذه المدينة هم (آل زهر) وهم اسرة الدكتور امين زهر، ثم نجد، وآل رشيد، وثابت وآل ماضي، وحمد، وسلوم، وفيها ايضا اسرتان من اهل الوجاهة والعلم هما (آل ابي عز الدين) و(آل النجار) وقد اشتهر من الاولى في أواخر القرن الماضي العلامة القاضي محمد بك ابو عز الدين وشقيقه المؤرخ الاستاذ (سليمان ابو عز الدين) الذي توفي سنة ١٩٣٢ وينتسب الى هذا البيت العريق من اهل العلم المعاصرين الدكتورة (نجلاء ابو عز الدين) ابنة شقيق العالمين المذكورين، ومن هذه الاسرة ايضا الدبلوماسي السفير الاستاذ (حليم ابو عز الدين) وقد عرف من (آل نجار) ايضا عدد من رجال الثقافة والعلم منذ مطلع هذا القرن، ومنهم حاليا الاستاذ فؤاد نجار وزير الزراعة اللبناني السابق، والاستاذ (حليم نجار) وهو احد كبار الخبراء الدوليين لدى منظمة الاغذية والزراعة التابعة للامم المتحدة، واسرة (آل نجار) في (العبادية) تعود بنسبها إلى الاسرة الموجودة في (بيت مري) والتي كان من اعلامها الاديب العربي الدبلوماسي والسفير اللبناني السابق بلندن المرحوم (عبدالله النجار).

والمرحوم عبدالله النجار كان من دعاة الاصلاح فيما يتعلق بالمعتقدات والطقوس الدينية، وكانت له آراء لا يغتفرها له المشايخ المتحفظون من الدروز، وقد تضمنها كتاب له ما كاد يخرج الى السوق حتى أثار الصخب، والضجيج، والهياج، والاحتجاج، من لدن طائفة الدروز، الامر الذي دعا الحكومة اللبنانية إلى مصادرة الكتاب ومنعه من التداول في الاسواق، وقد سعيت للحصول على نسخة منه ولو بالاستعارة فلم اوفق، الا انني قرأت الرد الذي كتبه عليه الدكتور سامي مكارم الاستاذ بالجامعة الاميركية ببيروت، وقد صدر هذا الرد في كتاب مستقل وبمقدمة مسهبة للمرحوم كمال جنبلاط، وانا اعترف بانى قرأت المقدمة بامعان ولم افهم منها شيئا، ولعل العلة كانت في قصر فهمي لطول باع جنبلاط في فلسفة ما وراء الطبيعة التي اجهل انا فروعها وزواياها، ولقد سألت احد كبار الادباء الدروز واخشى ان لا يرضيه ذكر اسمه عما اذا كان قد قرأ هذه المقدمة وما مفهومها فقال لي لقد قرأتها (وعمك مثلك) فحمدت الله ان وجدت واحداً مثلي.

ودعي الاستاذ عبدالله النجار من قبل البعض لمناقشته فيما جاء في كتابه من آراء غير مقبولة في عقيدة الدروز، وما كاد يحضر عبدالله النجار في الموعد المضروب والمحل المعين حتى هبوا في وجهه وإذا بالعصي واللكمات، والركلات المتوالية لم تبق عضواً من اعضائه سالما، ونقل عبدالله من هناك إلى المستشفى على ما قيل وشاع.

وقد قتل عبدالله النجار منذ سنوات لا بسبب معارضته للطقوس الدينية، وانما لحادث شخصي ذي علاقة بالمال من لدن احد ابناء اسرته.

ومن أهل العبادية شاعر زجل طبعت شهرته كل لبنان وسورية هو المرحوم (محمد السلطان) وهو من ابناء القرن التاسع عشر، وكان الدكتور امين يحفظ له الشيء الكثير من الزجل، وقد توفي في مطلع هذا القرن، ولا يزال شعره حتى الآن جارياً على السنة الناس في موضع الاستشهاد وضرب الامثال.

ومن ابناء (العبادية) حاليا عدد غير قليل من الاطباء، والمهندسين والمحامين والمثقفين من حملة الشهادات الجامعية العليا في شتى المجالات ومن مشاهرهم كان الدكتور امين قاسم زهر واولاده ومنهم الاستاذ خالد زهر، ورجاء زهر والدكتور صلاح زهر وكلهم جامعيون وعماد زهر الذي لا يزال يدرس العلم باميركا.

والدروز يؤمنون (بالتقمص) والتقمص هو انتقال الروح من جسد الى جسد آخر، فما ان يموت شخص حتى يخلق شخص جديد يتقمص روح الميت ان كان صالحا فصالح واكثر صلاحا، وان كان الميت خبيثا تتقمص روحه جسد الخبيث والاكثر خبثا والاعتقاد بالتقمص لم يقتصر على الدروز وانما هو فلسفة قديمة اعتنقتها الديانة الهندية وتبناها بعض فلاسفة اليونان كافلاطون، وفيثاغورس، وحتى اليوم فهي معتقد لكثير من الطوائف.

والدروز لا يكفنون الميت كما يفعل المسلمون، وانما يلبسونه افخر بذلاته، ويضعونه في الصندوق كما يفعل المسيحيون، ولا يدفنونه تحت التراب، وانما لكل اسرة جبانة خاصة بهم وهي عبارة عن غرفة محكمة البناء يفتحونها ويضعون الصندوق فيها.

وللميت عندهم حرمة كبيرة تدعو إلى المشاركة في تشييع الجنازة ولا سيما إذا كان الميت وجيهاً او من اسرة محترمة يعمد المنادون إلى نعيه في كل قرية من القرى فتأتي وفود كل بلد إلى بلد الميت الذي يكون المعزون من أهل الميت قد هيأوا أكبر ساحة من ساحات المدينة للقادمين واستقبالهم وحينما يدخل الساحة احد من المحترمين يشار إلى اسمه بالميكروفون.

ومات من (آل سلوم) في العبادية شاب كان له شأن بين شباب المدينة فضلا عن وجاهة اهله ومكانتهم، ونعي حتى في مدن الدروز بسورية، وتوافدت الوفود ومشايخهم وشعراؤهم على العبادية واخذني الدكتور امين زهر معه للمشاركة في التشييع وتعزية آله، ولم تكن لي بآل الفقيد معرفة سابقة مع ذلك فحين ذكر المذيع بالميكروفون ورود الدكتور امين زهر ذكر دخولي معه انا ولا ادري كيف عرفني المذيع، وهناك حملت الجنازة وصار المذيع يذيع اسم كل وفد وبلده ووجوه السائرين في مقدمته، وكان امام كل وفد شاعر ينشد الرثاء المرتجل في صوت رخيم اخاذ وبشعر يردد الوفد مطلعه كلما اكمل شاعرهم المقطع

من الشعر ، وهناك رأيت هذه الجماهير المتدفقة تمشي في صفوف ، صفاً خلف صفٍ كما تمشي الجنود الى ساحة الحرب ، ولما كان المتوفى شابا ذا شأن كما قلنا فكان المألوف ان يزف على صوت الموسيقى كما لو كان عريساً ، وقد كان من المألوف ان يرقص التابوت على الأكف من لدن حامليه فرقصوه وهو في طريقه إلى المقبرة.

وتسير الجنازة والموسيقى وتتبعها الوفود ، وفداً خلف وفد ، في صفوف رتيبة ، حيث صلى عليها شيخ كما يصلي المسلمون على جنائزهم ولكنه في خمس تكبيرات على ما اذكر بينما اصطف المشايخ في صف واحد يتلون معاً سورة الاخلاص او بعض الآيات القرآنية الأخرى.

لقد كان منظراً مثيراً ، ومشهداً لا يمكنني ان انساه ، وحين عدت إلى الفندق رأيتني امسك بالقلم ، واسطر هذه الابيات التي اوحت بها إليّ هذه الزفة التي لم ادر أكانت زفة عرس مفعم بالافراح ، ام هي تشييع جنازة يسيرون بها الى عالم مخيف مجهول.

لست انسى يوماً ذهبت اعزي ... ثاكلاً فيه بابنه المفقود
فاذا بالقلوب تنساب شعرا ... ودموعا تسيل فوق الخدود
واذا بالوفود من كل صوب ... في صفوف تمشي كمشي الجنود
تحمل النعش راقصا فوق ايد ... وعلى نغمة من التغريد
هي لولا الدموع زفة عرس ... وهي لولا التابوت رقصة عيد
كل وفد ينعى الفقيد بشجو ... في قصيد يذيب صلب الحديد
والمزامير وهي تنشد لحن (الفالس) ... تحكي الردى بذاك النشيد
قل جنود عادت من الحرب ... من بعد انتصار يحكيه خفق البنود

****

لست أنسى مشايخاً عقد الحزن ... لهم ألسناً فهم في جمود
وقفوا والحشود ترنو اليهم ... فاستدروا دموع تلك الحشود
وقفوا حول نعشه مطرقي الرأس خشوعاً على التواءة جيد
خيم الصمت حين ذاك على الجمع فلا من صدى للترديد
(ان للصمت في المآتم معنى) ... اين منه معنى احتراق الكبود ؟

****

مددوه بين الصفوف فوا لهف فؤادي لذلك الممدود
ثم شقوا بين اللحود له مثوى فأغفى ما بين تلك اللحود

وحشوا فوقه التراب وراحوا   ما كأن ذاك كان بالموجود
ليت شعري اين الخلود الذي قيل إذا مت صائر للخلود ؟
وأنا لم أجيء لدنياي الا   فلكي اغتدي طعام الدود
لن تعود الايام حتى وان صلوا   دهورا وكرروا القول عودي

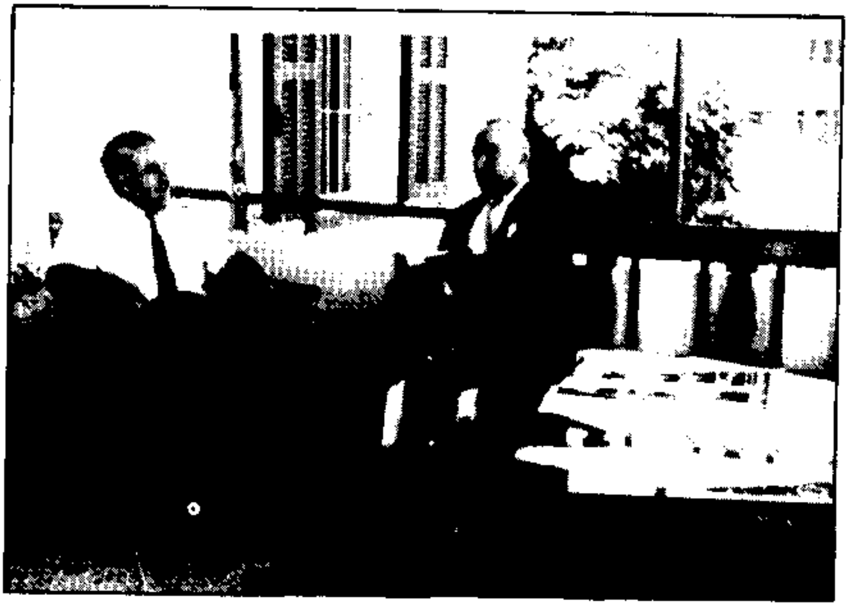

الدكتور أمين زهر والمؤلف على شرفة داره بسوق الغرب.

وكنت يومذاك لم اعلم بعد بان الدروز لا يقبرون موتاهم تحت التراب.

ودخل امين زهر مدرسة (العبادية) الابتدائية ولما اتمها اضطر ان يكمل تعليمه الثانوي في الجامعة الوطنية بعالية اذ لم تكن في العبادية مدرسة غير المدرسة الابتدائية، وكان من اشهر اساتذة الادب العربي هناك الاديب الخالد الذكر (مارون عبود) الذي كان يعنى بتنشئة التلاميذ تنشئة ادبية ويرعى أهل المواهب منهم رعاية خاصة حتى تخرج عليه عدد غير قليل من ادبائنا وكتابنا الافاضل، ولمارون عبود مزايا كثيرة غير متخصصة في الادب والنقد على الخصوص، فقد كان مسيحيا بعيداً عن التعصب وكان له بمحمد بن عبدالله ولع شديد ومحبة لا تقل عنومحبتهللمسيح ولذلك سمى ابنه (محمداً) وفي تعليل السبب قال على سبيل النكتة: قال لقد سميت ابني (محمداً) نكاية بوالدي الذي سماني

(ماروناً) ولمارون عدة مؤلفات في الشعر والادب، والنقد والقصة وقد تفضل بالاشارة إلى اسمي في غير محل واحد من كتبه وكان قد وجد في تلميذه امين قاسم زهر استعداداً يستوجب العناية به فعني به وحمله على مزاولة، الشعر وتقديمه في بعض المناسبات الى منبر الخطابة او انشاد الشعر، ومن المؤسف ان يضيع الكثير من شعر الدكتور امين ونثره بسبب التحقيق الذي اجري على رسائله ومخلفاته من قبل الشرطة الاحتمال وجود رسائل تهديد او اشارة يستدل منها على اثر للجناة الذين قاموا بقتله على تلك الطريق البشعة لذلك اختلط الحابل بالنابل كما يقولون وصعب استخلاص شعره ونثره بين اكياس من الرسائل والأوراق المتنوعة الاغراض، ومع ذلك فهناك ابيات وجهها للملك فيصل الثاني رحمه الله وهو لا يزال تلميذاً ويحثّ من استاذه مارون عبود، وقد تلقى على ابياته كلمة شكر من جلالة الملك، اما الابيات فهي هذه:

كرمتموا يا آل هاشم في الدنى اذ من محمد جئتم بتسلسل
بيت غدا بعد الرسول منورا كيما يجدد نور مجد آفل
والسيف يشهد انكم اربابه يوم الدفاع عن الحياض الثكل
عشق الانام صدى فعالكم كما عشق المتيم نغم صوت البلبل

انه شعر يستدعي الاعجاب لشاب في الثانية عشرة او الثالثة عشرة من العمر ولعل هذا هو الذي حمل الملك فيصل على ان يشكره ويتوسم فيه بلوغ القمة:

ومما بقي من ايام تلمذته من الشعر ابيات في شهداء جمال السفاح، الذين اعدمهم يقول فيها:

أجمال يا من قد شنقت بوا,ملا كانوا بحقل الناهضين ورودا
أفما علمت، هي المصائب ان دهت تحيي الرجال، وتخلق الصنديدا
شهداء يعرب قد كفى الفخر الذي نلناه رغم الكارثات مجيدا
وعلى الجماجم رغم كل مصيبة أمس البناء مشيدا ممدودا
يا من ابيت الذل والتقييدا يكفيك انك قد قضيت شهيدا
جاهدت في طلب العلى مستبسلا ما كنت قط الواجم الرعديدا
ونهضت لما طال عهد قعودنا أيعز من امضى الحياة قعودا

ولم تقتصر رعاية الدكتور أمين زهر على مارون عبود فحين انهى دراسته المتوسطة بعالية انتقل إلى الجامعة الاميركية ليكمل دراسته الثانوية ووجد في هذه الصفوف استاذاً آخر يهمه الأخذ بأيدي من يتوسم فيهم الملكة الادبية وهو الاستاذ انيس المقدسي فتولى امره، وقربه اليه حتى لقد صار هدفه إذا ما اكمل الدراسة الثانوية ودخل الجامعة، دخلها لكي يتخصص بالادب العربي ولم يدر ان الانسان ليس في كل شيء مخيراً، كما هو ليس

في كل شيء مسيراً، ويقول الشيعة والمعتزلة في ذلك (لا جبر، ولا تفويض، بل امر بين بين)، وكانت الست ياسمين وهي شقيقة الدكتور امين هي التي تنفق على الدكتور امين، وتحول له المبالغ المطلوبة لدراسته وما يحتاج اليه من اميركا، إذ كانت قد تزوجت بقريب لها من آل زهر هو سلمان زهر فما كاد يتزوج حتى سافر بها إلى اميركا متاجراً، وكان في بحبوحة لا بأس بها من الهناءة، وهو الذي كان يأمر زوجته بان تحول لأخيها مصروفاته وحين توفي (سلمان زهر) تعطل التحويل بعض الوقت وظن الدكتور امين ان سبيل الانفاق على دراسته قد انقطع نهائيا فترك الدراسة وسلم امره إلى الله، وبعد شهور عرضت وصية (سلمان زهر) للتنفيذ فإذا بها نص بوجوب الانفاق على الدكتور امين حتى تتم دراسته العالية، وكان من الصعوبة بمكان ان يعود الدكتور امين إلى الجامعة الاميركية فاتجه إلى المعهد الطبي في الشام حتى انهى دراسته وتخرج طبيباً سنة ١٩٣٦، وكانت الحكومة العراقية بحاجة ماسة إلى الاطباء تستوردهم من جميع البلدان العربية فكان الدكتور امين ممن وقع عليه الاختيار وسرعان ما خف الى العراق وسجل كطبيب في سنة ١٩٣٧، وبسرعة فائقة ظهرت مواهبه الطبية للعيان فقد كان كثير التأني كثير التوقي من استعمال الادوية الكثيرة كثير الايمان بالفحوص المخبرية لذلك زادت ثقة الناس به اينما عمل، وامتاز هناك بشيء آخر هو العفة التي جعلته موضع ثقة العائلات، ولكي يزيد في هذه الثقة رأى ان يتعجل في الزواج، وكانت له بشيخ المثقفين العالم الجليل الشيخ نسيب مكارم وشيجة قربى من الامهات فرجع إليه بـ(عيتات) ليستعين به في اختيار الزوجة الصالحة الطاهرة.

وآل مكارم من اشهر بيوت الدروز برأس المتن، وقد هاجر منهم زين الدين آل مكارم الى (عيتات) الواقعة تحت منحدر (سوق الغرب) وهي محل امارة آل تلحوق الذين كانت تمتد سلطتهم واملاكهم من (كيفون) الى ما بعد (الكحالة) وكانت (سوق الغرب) كلها من املاكهم، وقد اشترى اخيرا الدكتور سامي مكارم مركز امارة آل تلحوق وهو بيت قديم كان فيه الديوان الذي يجلس فيه الرئيس والشيخ، وكان فيه السجن الذي يسجن فيه اميرهم العصاة، وقطاع الطرق، وقد عمره الدكتور سامي واحسن تعميره وأصبح متحفاً يسكنه هو وعائلته، وكان الناس يصفون آل تحلوق بالقساوة غير المتناهية، ايام حكمهم وأنا أعرف منهم بالاسم وجيها معروفا هو الشيخ فضل الله تلحوق وأعرف استاذاً جامعيا شاعرا واديبا له مقام جليل بين رجال الأدب وقد اشتغل في القضية العربية وتربطني به صداقة قديمة هو الأستاذ الشيخ وديع تلحوق الذي لا يزال يقيم بداره القديمة بعيتات، وكنت قد عرفت شاعر الزجل المرحوم الشيخ نايف تلحوق واشتدت اواصر الصداقة بيني وبينه.

قلت ان زين الدين مكارم هو الذي انتقل من رأس المتن الى (عيتات) مقر مشيخة آل تلحوق فولد له سعيد مكارم، وسلمان مكارم، وقد نبغ سعيد في التجارة وفي حفر الخشب وتلقى منه ابنه الشيخ نسيب مكارم هذا الفن، ونبغ فيه نبوغاً استلفت اليه أنظار البلدان الاسلامية، وهو صاحب بيضة الدستور، وقد جاء ذكرها في احد اجزاء (هكذا عرفتهم) وهو الذي كتب سورة الاخلاص على حبة رز!! وله اثار خطية رائعة في لوحات مخطوطة بالذهب، ثم كثر آل مكارم في (عيتات)، وهم اليوم من اشهر اسر هذه الضيعة، وقد ظهر منهم غير واحد من حملة الشهادات العالية في العلم والادب، ومن مشاهيرهم اليوم الاستاذ الجامعي سعيد مكارم واخوه الدكتور سامي مكارم من اساتذة الجامعة الأميركية المعروفين، والاستاذ نديم مكارم ومن نسوة هذه الاسرة المعروفة السيدة الجامعية سنية مكارم عقيلة الاستاذ سعيد مكارم كما اعرف الأستاذ رامز.

ويمتاز الشيخ نسيب بعد هذا بالتقوى، والحكمة، وصواب الرأي، لذلك رجع اليه الدكتور امين زهر مستعينا بان يخطب له الزوجة التي يعتز بها ادبا ومحتدا وحسن سيرة، فخطب له السيدة ابريزا بنت المرحوم عجاج قائد بيه، وكان الشيخ نسيب قد تزوج خالتها لذلك كانت له خبرة كافية بسيرتها ونشأتها.

والمظنون ان آل قائد بيه الذين يعدون من خيرة أسر الدروز كانوا يسكنون مصر، وقد جاءهم هذا اللقب من الاتراك إذ كان منهم من تولى قيادة الجيوش، وقيل انهم ساعدوا السلطان سليم في حروبه، ولهم قلعة حربية على قرب من شاطىء الاسكندرية باسم قلعة قائد بيه وقال بعضهم بل ان هذه القلعة تخص المماليك وان آل قائد بيه يشاركون المماليك في هذه التسمية، ولربما كان اصل هذا (البيه) (بيكا) ثم انقلبت الكاف الفارسية هذه (هاء) وهم من سكان (عينعنوب) القدماء، الضيعة التي ولد فيها جرجي زيدان، ولا يزال بيت جرجي زيدان هناك (وقد رأيته من بعيد) وان عينعنوب وان كانت قصبة درزية ولكنها لم تخل من بعض المسيحيين ومن هذه القصبة نزل جرجي زيدان الى بيروت ليعمل مع ابيه في المطعم ثم ليشتغل اسكافيا قبل دخوله الجامعة الاميركية وكان الدكان الذي يعمل جرجي زيدان في بيع الاحذية فيه لم يزل موجودا حتى اليوم (بسوق سرسق) ببيروت وعليه لوحة باسم (احذية جرجي زيدان) ولكن النقمة التي عمت لبنان وهدمت الاسواق والبيوت حين هدمت لم تبق لجرجي زيدان من الرسم بلبنان غير البيت الذي ولد فيه بعينعنوب، وكان على الحكومة اللبنانية ان تشتريه وتجعل منه متحفا لمخلفاته على غرار بيت جبران خليل جبران ولكنها لم تفعل.

ومن آل قائد بيه من يسكن (الشبانية) مسقط رأس الياس سركيس رئيس جمهورية لبنان السابق، وهم من الدروز ايضا وقد تفرع منهم آل أبي اللمع الذين تنصروا، وبعض

بيوت آل قائد بيه منتشرة بقلة في بعض القرى، ولكن كثافة سكانهم انما هي في قصبة عينعنوب، وان لهم شأنا محترماً بين طوائف الدروز، وقد برز منهم غير واحد في الزعامة كان منهم عجاج قائد بيه، وكان منهم عباس أغا، كما برز في النواحي العلمية عدد غير قليل يأتي الدكتور سامي قائد بيه الطبيب المتخصص بامراض القلب والاستاذ بكلية الطب في الجامعة الاميركية، واحد من مشاهير اطباء القلب في المستشفى الاميركي في الطليعة وهو ابن المرحوم عجاج قائد بيه وشقيق السيدة ابريزا التي خطبها الشيخ نسيب مكارم للدكتور امين زهر فتزوجها وجاء بها الى العراق، ومن مشاهير وجوه الاسرة يأتي الشيخ طعان قائد بيه الاخ الاكبر للدكتور سامي، وعرفت من وجهائهم السيد عارف قائد بيه، والسيد سعيد قائد بيه، والسيدة المتفننة المثقفة البارعة الست وحيدة المتفوقة ريشتها بالرسوم الفنية، كما عرفت المهندس المرحوم حسين قائد بيه واخوانه، والشاب المهذب المهندس زهير قائد بيه.

ولم يكن آل ابي اللمع المتفرعين من آل قائد بيه وحدهم الذين خرجوا من دينهم وتنصروا او تشيعوا او تسننوا حسب الظروف المقتضية لذلك، وانما الكثير ممن فعل ذلك ولا سيما في العصر الأخير الذي كثرت فيه المصالح التي تستدعي اعتناق ديانة اخرى اما الدروز انفسهم فلا يجيزون دخول احد في دينهم فهم باطنيون ويحرمون التبشير بدينهم فضلا عن ان جلهم ومن غير العقلاء لا يعرفون شيئا عن اسس دينهم.

وانا اعود ذات يوم مريضا بمستشفى (الايمان) بعالية التقيت بالسيدة اديل سري الدين، وكنت أعرف من آل سري الدين المرحومة السيدة سلمى التي كانت واسطة تعرفي بها الشاعر الكبير الياس فرحات وهي من فضليات النساء وكانت قد هاجرت من بلدها رأس المتن الى البرازيل وحين جاءت الى لبنان في زيارة لاسرتها زارتني بسوق الغرب ورددت لها الزيارة (بقرنايل) برأس المتن، وهناك تعرفت بالكثير من آل سري الدين، ومنهم السيدة (اديل) التي التقيتها بمستشفى الايمان، إذ كانت يومذاك مديرة مدرسة (بزبدين) تخرجت على يدها طائفة من المع ادبائنا وكتابنا واطبائنا.

قالت لي السيدة (أديل سري الدين) ونحن بمستشفى الايمان وقد جاء حديث الانتقال من دين الى آخر وآل سري الدين من مشاهير اسر الدروز، قالت حين كنت في مرحلة الدراسة بالجامعة بمصر ارسل الي رئيس القسم وانا كنت احضر احدى المحاضرات قائلا يجب عليّ المرور به عند الانتهاء من المحاضرة قالت، وحين حضرت قال لي رئيس القسم ان احد اقاربك من آل سري الدين المصريين بعث بسيارته وسائقها ليأخذك اليه..!!

قلت لعل هناك التباسا في الامر فأنا لا اعرف احداً من اسرتنا يقيم بمصر، قال وانا لا اعلم شيئا اكثر مما قاله لي سائق السيارة وهو هنا بانتظارك..!!

واستقليت السيارة الفخمة تقول الست اديل ، وسألت السائق عمن بعثه بها الي فقال انه معالي الوزير (فؤاد سراج الدين)!! وزاد استغرابي وعلتني الدهشة لأني لا افهم ان هناك علاقة لسراج الدين بسري الدين؟ ثم كيف علم فؤاد سراج الدين بوجودي هنا؟ وكيفما كان فقد دخلنا على السكرتيرة وبعد دقائق دخلت انا على الوزير فإذا به يرحب بي ترحيب الأهل باولادهم ، ويقول لي منذ متى وانت هنا في الجامعة ، ولماذا لم أسأل عنه وهو من صميم الاسرة من آل سري الدين؟ فتملكتني الحيرة وقلت يا معالي الوزير اخشى ان يكون هناك سوء فهم او شيء من الالتباس ، قال لا ولكن يبدو لي انك لم تعرفي عني شيئا فانا في الاصل درزي ومن آل سري الدين برأس المتن وقد جاء جدي الكبير الى مصر واسلم هنا وتبدل اسم (سري الديـــن) بسراج الديـن..!! ثـم لقيـت منـه كـل تـرحيـب وتقدير..!!

وتزوج الدكتور امين زهر بابريزا قائد بيه وجاء بزوجته معه إلى (عانة) وسكن بيتا جميلا على النهر ولكن المحيط والبيئة يختلفان كل الاختلاف مع بيئة الجبل من ذلك الصقع الذي اتخذ منه المستشرقون مثل (فانديك) بعيثات سكنا ، وبنوا به مدرسة للدراسة الثانوية بسوق الغرب تخرج فيها طائفة من مشاهير الرجال امثال حنا خباز ، والدكتور فليب حتي ، وعجاج نويهض ، وفؤاد صروف ، وشيخ الحكماء الدكتور شاهين الصليبي وهو من اوائل المتخصصين في جراحة العيون في الاقطار العربية ، وقد انتزعت الست أبريزا من مدرسة الصراط التي اسستها الاديبة الكبيرة والصحافية المعروفة الست عفيفة صعب انتزاعا من بين اترابها وزميلاتها وجاءت لتسكن دارا في بلد غريب يخرج زوجها إلى المستشفى صباحا وتظل هي والكتاب وجدران الدار حتى يعود!!

والست ابريزا سيدة اجتماعية لا احسب ان اسرة عرفتها ولم تنجذب اليها لذلك ما مر بعض زمن حتى كيفت نفسها لهذا المحيط وتناست مدرسة (الصراط) وذلك المحيط المزدهر بالاشجار والاوراد ، اما (التبولة) واما (الفتوش) (والكبة النية) والجبنة والزيتون فكان لها من وسائله الكثيرة ، وتسربت أكلاته إلى بيوت الجيران والموظفين منها ، وكانت علاقة الناس بالدكتور امين زهر طبا ، وعلاقة الاسر بزوجته امرأة اجتماعية ودرزية كريمة المحتد تزداد يوما بعد يوم ، وحين انتقل الدكتور زهر الى النجف الاشرف كانت قد سبقته بعض الشهرة بسبب بعض الدروز الذين كانوا يقومون بالتدريس في ثانوية (النجف) وبعض الاطباء منهم كالدكتور محمد العيد من (بعقلين) الذي ربما تجاوز التسعين وقارب المئة اليوم حفظه الله تعالى وبارك في عمره ، وكان هذا الطبيب قد امتزج باهل العلم والادب امتزاجاً روحيا على الرغم من اختصاصه الطبي ، ولما جاء الدكتور امين الى النجف كان ما عرف به من استعداد لقول الشعر والادب أدعى الى الامتزاج والاحتكاك

بطبقة أهل العلم والادب، وكان الى جانب التزامه برعاية الفقراء واحجامه عن اخذ اجور المعاينة والمعالجة منهم كان يتأبى كذلك ان يأخذ من أهل العلم والشعر والادب أجرة، الفحص والتداوي وكان يخف الى اسعافهم واسعاف آلهم ليلا ويعود دون ان يكون بيده شيء منهم، وتهافت عليه المرضى لما كسب من شهرة في معالجته، وكان يبعث بالبعض الى بغداد لاجراء الفحوص حين يشك في طبيعة المرض، وقد قال لي الجراح الكبير الدكتور كاظم شبر ذات مرة عن الدكتور امين انه قلما شك في تشخيص المرضى الذين يبعث بهم الينا ببغداد ولم يكن شكه في محله.

واكثر ما يسرك من الدكتور امين بعد هذا هو تمسكه باليمين التي اقسم بها عند التخرج في الجامعة، والتزامه بالسنن الطبية التزاما وثيقا، وقد حدثني مرة قال انه حين استقال من صحة العراق وجاء الى سوق الغرب كان يضطر في كثير من الأحيان الى ان يحيل المريض الى احدى دور التحليل، او احدى مؤسسات الأشعة ببيروت او بعاليه وبعد ان مر على عمله شهر او شهران جاءه من قبل دار التحليل كما جاءه بعد ذلك من قبل مؤسسة الاشعة من يحمل له مبلغا يقول ان هذا هو نصيبه من تحويل مرضاه الى مؤسسته دون تحويله لغيره من المؤسسات في الشهر الماضي، قال امين فقلت لهم أعوذ بالله ان يكون لي رزق من هذا الطريق، ورددت المبلغ ولم اعين منذ ذلك اليوم لمرضاي اسما معينا لدار تحليل او دار تصوير.

والمصيبة الكبرى ان عددا كبيرا كان يعمل مثل هذا فيحيل المريض إلى طبيب آخر ويتقاضى من الطبيب الآخر حصته عن هذه الاحالة حسب الاتفاق الجاري بينهما!!

وليت الامر وقف عند هذا الحد ولكن الصيادلة الذين يستوردون الدواء لأول مرة، كما قال لي الدكتور امين كان يجب عليهم ان يعرضوا هذا الدواء على لجنة رسمية هي التي تقرر صواب دخول هذا الدواء الى السوق او عدم صوابه، ولكي تقرر صلاح هذا الدواء فعلى الصيدلية التي تريد ان تستورد هذا الدواء ان ترشو اللجنة بمبلغ يشبع نهمها لكي تأذن بدخوله، ثم على الصيدلية بعد هذا ان تعرض هذا الدواء على لجنة رسمية اخرى لكي تعين ثمن هذا الدواء لئلا يسوق الطمع صاحب الصيدلية الى استغلال الناس لو ترك الأمر له وحده، ولكي يضمن الصيدلي المستورد للدواء ما يريده من الربح يتقدم برشوة أخرى الى هذه اللجنة لتوافق على الثمن الذي يريده الصيدلي الرحيم!!

كل هذا يجري كما يقول الدكتور امين بمرأى ومسمع من الناس في الاقطار التي تنتهج هذا الاسلوب ولا تتصدى الحكومة المسؤولة الى اتخاذ التدابير الكافلة لازالة هذه المصيبة، اقول هذه المصيبة لا بسبب ما يلحق بالناس من خسارة مادية فحسب وانما مما

قد يلحق باجسامهم من خسارة يسببها عدم صلاح هذا الدواء للمعالجة.

وكنت أصدر جريدة (الهاتف) في النجف قبل انتقالها الى بغداد، فكان من الطبيعي ان يزورني في مكتب الجريدة كل موظف جديد يعين في هذا البلد كما يزورني الادباء من الزوار القادمين للنجف فأحظى بالكثير من حملة الاقلام منهم ولا يلبثون ان يصبحوا من اسرة (الهاتف) القلمية، وقد زارني الدكتور امين لأول مرة بدار الجريدة وسررت بهذه الزيارة وراح ينشر في (الهاتف) مواضيع صحية وقائية باسلوب سهل يتوخى فيه نشر الثقافة الصحية اللازمة للبيوت وسكانها بقصد التوعية، وقد كان مثل هذا ضروريا لأن قلة المياه في مدينة النجف كانت تلزم كل بيت بان يبني في وسط بيته حوضا من الماء يحتفظ به للوضوء وغسل الجسم وبعض الثياب، وقد يأسن هذا في بعض البيوت ويصعب على اهل البيت تغييره فيسبب ذلك الكثير من الامراض الجلدية والامراض الداخلية.

وعن طريق اتصال الدكتور امين بي تم اتصال السيدة قرينته بقرينتي وما لبث هذا الاتصال ان تحول إلى مجلس نسوي في بيتنا تحضره السيدات وقد يتحول هذا المجلس الى بيوت الآخرين ممن تربطنا بهم رابطة الصداقة والقربى، وقد يصبح الجو لبنانيا لوجود عائلات اطباء آخرين من اللبنانيين مثل الدكتور ملحم حسن نعمان، ووجود اساتذة لبنانيين مثل الاستاذ سامي العيد وعائلاتهم، وكثرت (التبولة) ولم نكن نعرفها قبل وجود السيدة ابريزا وكثر أكل (الفتوش) و(الحمص بالطحينة) و(البابا غنوج) والمجدرة وكل هذا قد عرفناه لأول مرة من السيدة ابريزا ومواطناتها اللبنانيات والدرزيات على الاخص، وعرفه معنا معارفنا واستطعمناه، وتلذذناه باستثناء (الكبة النية) التي كنت قد تفردت وحدي بأكلها ولكن على قدر ما.

وانتقلت من السيدة ابريزا الى بيتنا اعمال الابرة والسنارة في نسج (الشراشف) والستائر من الخيوط الحريرية المبرومة وتطريزها وهي صناعة كان للفن دخل كبير فيها لما يستلزم تطريزها وحياكتها من الصور والاشكال الهندسية التي تجيدها اللبنانيات، وقد عرفت بينهن بالمهارة جدة السيدة ابريزا لامها وانتقلت هذه المهارة الى بناتها والحفيدات وبرعت فيها أم السيدة ابريزا واخواتها براعة الجدة واكثر وحتى الآن السيدة ام ابريزا تنسج بالسنارة العجائب ومثلها ابنتها الست ابريزا واختها الست اسماء وعندنا في بيتنا منهن جميعا تحف فنية من هذه (الشراشف) التي تفرش فوق مائدة الطعام وعلى المناضد، وتعلم اهل بيتنا جميعا بعض ما استطاعوا ان يتعلموا، وكانت اياما حلوة، مليئة بالبهجة، تركت اثرا كبيرا في بيوتات النجف وفي بيتنا بصورة خاصة، ونسيت وانا استعرض أعمال الابرة الفنية ان أذكر السيدة أم سعيد مكارم واخيه الدكتور سامي مكارم وهي زوجة المرحوم الشيخ نسيب مكارم خالة السيدة ابريزا لقد نسيت ان أذكر ان اشغالها الفنية

دخلت معرض دمشق ففازت بالجوائز الذهبية الأولى وصارت حديث اهل الفن جميعا ، وقد كان للشيخ نسيب الخطاط والمتفنن بعض الاثر في روعة هذه الاشغال اذ كان هو الذي يرسم اشكال الورد ، والنباتات ، والثمار ، والخطوط الهندسية على الورق فتنقلها الاسرة بالابرة وتحوكها حياكة تنفرد في الدقة والاشكال الهندسية الرائعة ، التي يضعها هذا المتفنن الذي لم يجد الزمان بمثله الا في كل بضعة قرون واكثر وهو في عالمه كميخائيل انجلو ورفائيل ، وان لي منه لوحة مكتوبة بماء الذهب كلفه الدكتور امين زهر بكتابتها لاهدائها لي وقد نقش عليها القول المأثور وكتبها بالخط الفارسي الجميل (صديقك من صدقك) وهي نعمة كبيرة ان يرى فيّ الدكتور امين زهر ذلك الصديق الصادق الذي يصح فيه مثل هذا القول كما ان اسم كتابي (موسوعة العتبات المقدسة) التي بلغت اجزاؤها ثلاثة عشر جزءاً وتوقفت عن الصدور، كان من خط المرحوم الشيخ نسيب مكارم.

وعلى سبيل المزاح والدعابة طالما كان الدكتور امين زهر يقول لزوجته الست ابريزا بأنه هو ولا غيره من الهمها فن الحياكة بالسنارة اذ لولا انه الذي يعد لها الخيوط الحريرية ومعدات الحياكة والتطريز فماذا كانت تكون؟ وقد توصل امر المزاح الى الشعر ذات مرة فقال لها.

انت لولاي ما عرفت الفنونا لاو لاحكت (كنزة) وزبونا
أنا لو لم اجلب الخيط والابرة هل كنت للعلى تصعدينا؟
قربيني فانما الفن لولاي لما كنت في الدنى تعرفينا
انت لو تقدريني حق قدري كنت طول الزمان لي تعبدينا
وعلى انني الذي يلهم الفن ويجلو من النبوغ الدفينا
وأمين على السرائر والفضل فسميت مذ ولدت (أمينا)
لست أرضى سواك من بعد ربي مذهبا لي ولست ارضاه دينا

وتوسعت شهرة الدكتور امين فبلغت القرى المجاورة للنجف وصار يأتيه رؤساء القبائل وسكان القرى من (المشخاب) و(الشامية) وصار الرؤساء ولا سيما اصحاب مقاطعات الرز الشامية يهدون له من رز العنبر وهو افخر ما انبت العراق من الرز في كل موسم ما يقرب الطن من هذا الرز الفاخر فيقوم الدكتور امين بتقسيمه على بيوت الاصدقاء وطالما خصنا نحن بنصيب كاف منه ، اما الفقراء من الفلاحين الذين يعالجهم الدكتور امين مجانا ويسعفهم بالأدوية التي تجيئه على سبيل الانموذج فكثيرا ما يأتونه بالدجاج والبيض كهدايا جزاء احسانه ، فلا يردها لهم لئلا يكسر خواطرهم بل يأخذها ويفعل بها مثل فعله باكياس الرز تقسيما على الاصدقاء ، وكثيرا ما ضم قفصنا عددا من الدجاج الذي يخصنا به ولا سيما حين انتقلنا الى بغداد ، وصار هو والسيدة حرمه واولاده قد اعتاضوا ببيتنا عن

النزول في الفنادق إذا ما جاءوا من النجف الى بغداد لقضاء بعض الايام، فكانوا يصحبون معهم عددا من الدجاج والبيض والرز، الذي يتلقونه على سبيل الهدية من الارياف.

كانت اياما حلوة تلك الايام التي قضيناها معا، وامتدت صحبتنا هذه الى اسرهم، وعن طريقهم تعرفنا بآل قائد بيه، وآل مكارم، وبلغ من تلك المحبة ان تسربت جذورها في اطفالنا، واذكر ان حفيدا لي في العاشرة من العمر هو من طلاب مدرسة (سوق الغرب الوطنية) وقد ضربه مرة زميل له من آل قائد بيه، فقال له حفيدي وهو (بشار الخليلي) قال: ان بامكاني ان ارد لك الصاع بصاعين ولكنك من (آل قائد بيه) فأنا احترمك لأجلهم!! وكم سر الدكتور سامي قائد بيه حين بلغه مثل هذا الخبر.

وعلى ذكر الدكتور سامي قائد بيه وهو شقيق السيدة ابريزا وكنت قد عرفته وهو لم يزل طالب طب في الجامعة الاميركية إذ كان اخواه الكبيران الشيخ طعان، والمرحوم نسيب لم يزالا يعملان في افريقيا، وقد أبدى الشيخ طعان رجولة في مسعاه وكانت تضحياته تثير الاعجاب فقد أخر زواجه حتى يؤدي كل ما في استطاعته في سبيل اسعاد الاسرة وسد حاجتها بعد وفاة ابيه الشيخ عجاج قائد بيه.

واتم الدكتور سامي دراسته الطبية في الجامعة الاميركية وتخرج طبيبا ووجد في نفسه الكفاية للتخصص فالتحق بالجامعات الاميركية للتخصص بامراض القلب، وحين اتم مهمته طبيبا من الاطباء المتخصصين بالقلب عاد الى بيروت وعمل في مستشفى الجامعة ثم عمل استاذا في كلية الطب كما مرت الاشارة اليه وصار الاهل والاقرباء يحثونه على الزواج وهو يتأنى، وقد اشاروا عليه بمن رأوا فيها اللياقة المنشودة من حيث الاسرة والثقافة فلم يستجب، ولقد كلمته انا غير مرة فكان يسوف ويعتذر بكونه لم يعثر حتى الآن على من يرى فيها من الصفات الملائمة له شيئاً ولكن الوقت قد طال وأخيرا وبعد لأي وجد بنفسه من كان يبحث عنه، انها الست نائلة بنت الشيخ عادل تقي الدين وآل تقي الدين من الأسر الدرزية المعروفة بالادب وقول الشعر وهي كريمة المحتد وابوها الشيخ عادل من رجال القانون وكان من القضاة المعروفين وقد عرفت انا اول من عرفت من هذه الاسرة أيمن تقي الدين الذي كان هو وانطون الجميل يصدران مجلة (الزهور) في القاهرة، واعجبت به غاية الاعجاب، وعن طريق اعجابي عرفت الشيخ عادل، واخاه، الشاعر شكيب تقي الدين بسانباولو في البرازيل، كما عرفت الدكتور فريد تقي الدين الطبيب المعروف بسوق الغرب.

وبعد ان تمت الخطبة وفي اثنائها كانت الست نائلة قد استقالت من عملها وهيأت نفسها لتكون سيدة بيت، اذ قبل ان تخطب لم تكن تعرف ان تعد حتى فنجان شاي واحد

لنفسها، وقد اصبحت الآن طاهية ماهرة، بالاضافة إلى اتقانها سائر مقتضيات البيت من الامور الاعتيادية إلى اكبر ما يتطلبه البيت.

وفي ليلة الزفاف كنت قد اعددت للدكتور سامي قائد بيه قصيدة انشدتها في حفلة زفافه ونشرتها الصحف ومن ضمنها مجلة العرفان التي قدمتها بهذه المقدمة فقالت:

لا رد ربك يوم أمسك

تم أخيراً زواج الدكتور سامي قائد بيه من الأطباء الاختصاصيين بأمراض القلب بالمستشفى الأميركي ببيروت بالآنسة الأديبة الفاضلة نائلة تقي الدين في حفلة عرس قدم اكثر من حضرها من الاقارب والأصدقاء هدية بهذه المناسبة اما الاستاذ جعفر الخليلي الذي تربطه بالطبيب المتزوج وأسرته رابطة اخاء قديمة فكانت هديته هذه المقطوعة التي تنفرد بنشرها العرفان:

هنيت يا (سامي) بعرسك   لا رد ربك يوم أمسك
ايام لا تدري سوى هم البحوث وهم درسك
وسوى شكاوي المدنفين   تقيس شكواهم بحسك
وتبيت في قلق عليهم   تستشيط وانت ممسك
تصغي الى همس القلوب   وليس من يصغي لهمسك
وتهم وحدك بالدنى   والناس من ابناء جنسك
اين الخدين تبثه   ما جال من فكر برأسك
ايام تفترش الهواجس   واللواعج ملء نفسك
لا رد ربك ذكر ايام   العزوبة، ذكر بؤسك

****

بشراك قد ذهبت همومك   وانطوت أيام نحسك
وأتتك (نائلة) تبدد   وحشة الدنيا بأنسك
هي والعفاف الجم تجمع   رسها شرفا برسك
حورية قد طاب منبتها   ومغرسها كغرسك
أنت الخبير بكل قلب حين   تفحصه بلمسك[1]
فتفحص القلب الطهور   بمسه واسعد بمسك
هنيت يا سامي بعرسك   لا رد ربك يوم أمسك

نحو اربع عشرة سنة قضاها الدكتور امين زهر في طبابة النجف طبيبا بصحة مدارس القضاء، وكان يعاني من توسط الناس لمنح المدرسين والتلاميذ رخصا واجازات بدون حق، والدكتور امين دمث الاخلاق طيب المعشر يأبى لسانه ان يلفظ (الآه) فضلا عن اللعن، والشتائم، فكان يصرف الوسطاء وهم من كبار القوم بشيء كثير من اللطف ويصرفهم وهم جد راضين دون ان ينجز ما جاءوا من اجله اليه ولكنه طالما منح اجازات طبية للمدرسين والطلاب حين يرى في ذلك وجوبا صحيا وان لم يطلب منه احد ذلك.

وكان من التزامه بقوانين الطبيب وبالجانب الانساني انه ما طرق باب بيته مريض الا وخف إليه مسرعا وشاهدته غير مرة وهو يتناول غداءه شاهدته يترك الغداء ويلحق بالمريض، وقد سألته لماذا لا تجعل لمرضاك وقتا معينا ولنفسك وقتا معينا لا يطرق بابك فيه طارق؟ وقد كانت عيادته بسوق الغرب بجنب بيته تماما وهي من املاكه فقد كانت له ولأخيه الشيخ فهد زهر ارض واسعة لم يكن لها في السابق من الثمن ما يكفي الانفاق على دراسته، ولكن الارض في (العبادية) بدأت ترتقي اثمانها كسائر اراضي لبنان الأخرى فباع جزءاً من ارضه هذه واشترى به هذه الدار بسوق الغرب والى جانبها بعض الدكاكين، كما ان له بيتا عامرا بالعبادية يزوره بين فترة واخرى ويكثر من زيارته حين اجتمعت عليه كلمة (العبادية) بأن يتولى رئاسة بلديتها فيمر بالبلد في الاسبوع مرة واحدة للاشراف على شؤونها، وقد تحسنت اوضاع البلدية ومشاريعها في ايامه تحسنا يستلفت الانظار فيما ابتكر وانجز من مشاريعها العامة.

وللدكتور امين اربعة اولاد نشأ ثلاثة منهم في النجف وقد احست الام بحمل الرابع فرأت من الصالح ان تجهض به ولكن الدكتور كان يخالفها في ذلك مع ان الوقت لم يزل يتفق والاجهاض لو تم لها ان تجهض واخيرا وكانوا في ضيافتنا ببغداد يقضون بعض الايام فاتفقوا ان يأخذوا برأي الدكتور كاظم شبر وذهبنا انا والدكتور امين اليه نستشيره فلم ير بأسا من اجراء ما يسمى (بالكرتاج) ما دامت في اول احساسها بالحمل او خوفها من الحمل ولكننا اتفقنا معه على ان نقول على لسانه بأن الخطر كامن في عملية الاجهاض اذ سميناها بالاجهاض تخويفاً لها، وظهرت بعد ذلك آثار الحمل وولدت صبيا رابعا سموه (عمادا) وهو على هذا (عماد زهر) الأخ الرابع للبنين الثلاثة، وأنا لم أمارس التاريخ على حساب الجمل وان كنت قد حاولت ذلك من قبل محاولة فاشلة ومع ذلك فقد ارخت له بالشعر هذه الولادة وغابت عن ذهني الابيات وبقي الشطر الأخير من التاريخ وحده في بالي والذي يقول: «على الطيب قام عماد الزهر».

وحين غيرت مصيفي الدائم من (ضهور الشوير) الى (سوق الغرب) كان يرى الدكتور امين وجوب نزولي في بيته بسوق الغرب وكان يصر على ذلك وأصر انا على النزول

بفندق فاروق لا لشيء الا لأني من عبدة الحرية التي لا تضمنها الا وحدتي، وانا منذ اكثر من أربعين سنة انام وحدي في غرفة واحدة وتنام زوجتي وحدها في غرفة مستقلة وكل ذلك خشية من ان تطول قراءتي فازعج زوجتي وخشية ان اقوم بعد منتصف الليل الى الحمام فيقلق ذلك راحتها وغير ذلك مما كنت افكر فيه من ازعاجات للغير تسبب لي انا ازعاجا خاصا مع ان الغرفة التي أعدها لي الدكتور كانت غرفة مستقلة بحمامها ولك ما يلزم لضمان الراحة، ولكن كيف لو اردت ان اقضي السهرة عند بعض الاصدقاء وعدت الى البيت بعد منتصف الليل فمن يضمن لي ان لا يكون في دخولي البيت وان كنت احمل مفتاحا ما يسبب يقظة احد من أهل البيت من نومه؟ او يسبب ازعاجا له ومع كل ذلك فأنا من نزلاء فندق فاروق اسماً وقلما زارني احد في الفندق الا ودعوته إلى بيت الدكتور أمين ليتناول هناك الغداء، وكثير اولئك الذين زاروني من بيروت وبعض قرى لبنان وحتى من سورية، ومن المصطافين العراقيين هنا وهناك الا واخذتهم معي الى بيت الدكتور امين وتناولنا الغداء على مائدتهم، واذكر مرة ان زارني المرحوم يوسف اسعد داغر تقله سيارة محام جاء به الي الى الفندق وذهب هو الى حضور محاكمة تخص موكله بقضاء (عالية) ثم يعود ليعود بالاستاذ داغر إلى بيروت فضربت له موعدا عند العودة في بيت الدكتور امين ووصفت له البيت، ثم اخذت الاستاذ يوسف داغر الى بيت الدكتور امين.

وكنا ننتظر عودة المحامي لتناول الغداء ولكن المحامي أبطأ لأن المحاكمة كانت طويلة ثم طرق الباب فظهر الدكتور امين بوجه المحامي يستقل سيارته ويأبى ان ينزل منها ولحقت به انا ودعوته الى النزول وقلت له ان الدكتور امين قد اوصى بغداء خاص لك وللأستاذ يوسف فليس من اللياقة ذهابكما دون ان تتناولا شيئا، وهناك صارحني المحامي الذي نسيت اسمه وقال لي: انه مشلول من نصف جسده الاسفل وان هذه السيارة قد عملت له خصيصا باميركا طبق وصفات الاطباء، وهو يزاول عمل المحاماة فينقلونه من السيارة إلى كرسي خاص في المحكمة لذلك سيكون نزوله هنا مما يسبب مشقة للآخرين والح على العودة ودعا الاستاذ داغر للركوب الى جانبه وودعناهما، وان الذين تناولوا الغداء والعشاء غير مرة على مائدة الدكتور امين من رجال الادب المعروفين عن طريق دعوتي انا لهم كان الصافي النجفي، وكان سامي الكيالي وعبدالله يوركي حلاق، والشيخ جلال الحنفي، ومحمد حسين الشبيبي والدكتور محمد عزيز، وابراهيم حرب وغير هؤلاء ممن غابت اسماؤهم عن ذاكرتي، والذين كثيراً ما تعدد التقاؤهم حول هذه المائدة السخية كثيرون.

وتعلقت ابنتي فريدة وهي لم تزل طفلة صغيرة في الصفوف الاولية من المدرسة بآل الدكتور امين والسيدة ابريزا حرم الدكتور بحيث قلما كانت فريدة تفارقهم في ايام الجمع

والفراغ، وكان من عادة السيدة ابريزا ان تقضي الصيف من كل سنة بلبنان وفي منزلهم بالعبادية خاصة ثم في منزلهم بسوق الغرب فيما بعد اما الدكتور امين فيبقى يزاول مهنته في النجف طوال الصيف وكثيرا ما كانت الست ابريزا تصطحب معها فريدة لتقضي فصل الصيف بلبنان لذلك كانت فريدة اكثر مني ومن امها معرفة بالاسر الدرزية وكان اكثر الأسر يتفقدونها ويسألون عنها ان تخلفت سنة عن الاصطياف بين آل زهر أسرة الدكتور امين، وبين آل قائد بيه أسرة السيدة حرم الدكتور امين، وعن طريق ابنتنا فريدة عرفنا نحن الكثيرين ممن لم نكن نعرف من الاسر وصارت لنا صداقات ذات قيمة نعتز بها نحن وتعتز بها اسرتنا وكان يغذيها الخلق الرفيع الذي جبل عليه الدكتور امين وجبلت عليه الست ابريزا وعن طريقهما كدنا نعرف كل افراد آل قائد بيه.

والدكتور امين كثير التلهف على العروبة والبلاد العربية وطالما اخذته الحماسة فينحي بالملامة على المسؤولين ويرى انهم ولا غيرهم المقصرون في حق البلدان العربية وفي حق فلسطين، وقال لي مرة: ان نفوس العرب قد تزيد على ١٢٠ مليونا، ولا تزيد نفوس الاسرائيليين عن ثلاثة ملايين وكان والله باستطاعة العرب ان يدخلوا الى فلسطين وبدون سلاح فيقضون على الاسرائيليين بالبصاق وحده وان يبد منهم عشرة ملايين، لقد قال ذلك بشيء من الحماسة العجيبة وصوته يكاد يختنق.

وكنا ذات يوم انا وابراهيم حرب عنده فجاء ذكر اهمال المسؤولين في العالم العربي حتى في حاجات الناس الجزئية، وقال ابراهيم انقطع اتصال تلفوني مرة وتعطل استعماله، فلم يترك جهة ممن يخصه الأمر الا وراجعه، ولقد طالت مدة عطله ثلاثة أشهر، والغريب ان وصلت الي (فاتورة) اجور التلفون يقول ابراهيم وفي ضمنها اجور الاشهر الثلاثة التي تعطل فيها التلفون ولم يتم استعماله وقد دفعت الحساب مضطرا لئلا يحذفوا اسمي من سجل المشاركين، وحين ذاك تكون المصيبة حين يراد تقديم طلب جديد ودفع مبلغ كبير لكي يمدوا لك التلفون من جديد.

وذكرت يقول ابراهيم وزير المواصلات وذكرت انه كان معنا في مسيرة المظاهرة ببيروت ضد الانجليز والاستعمار فلماذا لا أتصل به واخبره بقصة عطل تلفوني منذ اكثر من ثلاثة اشهر، وكان ان اتصلت به من تلفون الجيران بعد ان قصصت عليه قصة التلفون وقلت له: لقد ازمعت النية على تأسيس حزب سياسي ادعو فيه لعودة الاستعمار، لأن مثل هذا لم يكن ليقع ايام الاستعمار، وهنا اخذت الحماسة من الدكتور امين مأخذها وقال لابراهيم: إذا تم لك تأسيس هذا الحزب فأرجو ان تسجلني اول منتمٍ له، إذا كان مفهوم الاستقلال كما نراه اليوم.

وتجمعني بالدكتور امين زهر طباع، والتزامات وعادات كثيرة، فكلانا يتجنب معاقرة الخمرة، والتدخين، والمقامرة، والجلوس في المقاهي الا لضرورة تستوجب الجلوس وقلما كان هذا وكلانا لا نعرف من الألعاب الا الشطرنج والنرد على قدر ما يشغل اللاعب ويطرد عنه السأم، وقد أوصى الدكتور امين بان يأتوا له بعلبة نرد فنية ومطعمة بالعاج من الشام وهي علبة اعدها لايام الصيف حين يتم لي الاصطياف بسوق الغرب فنلعب في فترات من الايام حتى إذا انتهى الصيف وحان حين رجوعي الى العراق اغلق علبة النرد وطرحها في احدى الزوايا إلى السنة القادمة، وكثيرا ما كنت اخيفه في اللعب فاقول به باني سأفعل بك (الهوايل) على حد قول المصريين فلا تقوم لك قائمة بعد اليوم بل كنت اهدده قائلا له سترى مني (الكرتفوش) بعينه وعيانه، والكرتفوش نظير (الخنفشار) ليس لها اي معنى في اية لغة من اللغات فيسألني:

دخلك ما هو الكرتفوش؟

فأجيبه: بأنه حالة من اللعب تظن بها انك ستكسب لعبتك في حين انك تخرج من اللعب خاسراً!! وانتشر اسم الكرتفوش بين اصحابنا والواقفين على العابنا وصار البعض منهم يهدد البعض الآخر عند لعب النرد بالكرتفوش، بل صار هو ايضا يهددني بالكرتفوش عند شروعنا باللعب وطالما قال لي ان سيريني (كرتفوشا) عجيبا في هذا اليوم ويحذرني مما سأرى بعيني من هذا الكرتفوش، وهكذا نقضي بعض ساعات الفراغ بلعبة يتخللها المزاح الكرتفوشي واضرابه.

ولقد تعلمت ان اصوغ الشيء من اللاشيء، والموجود من اللاموجود بداعي التفكه والدعابة من بعض اصحاب الحرف والورش الدجالين الذين يعملون في اصلاح التلفزيون أو الراديو، أو البراد (الثلاجات) مثلا ممن يستغلون جهلنا بالاجهزة فيقول احدهم مثلا لمن يأتيه بتلفزيونه الذي تعطل بغتة فلم تعد تبين له صورة، ولا يسمع له صوت يقول به بعد ان يتظاهر بفحصه: من هذا الذي لعب بالتلفزيون وكسر منه (السنتيكريتم) او (السستي بستي) وما شاكل مما يبتدع من الاسماء التي لا وجود لها في اي قاموس لأي لغة، فيقال له: ليس هنالك من لعب فيه، وكل ما في الأمر انه سكت على حين غفلة، فلا صوت ولا صورة، فيطلب منهم بضعة دنانير زيادة على اجرته لكي يشتري لهم بها (السنتيكريتم) او (السستي بستي) وما كان قد خلقه من الاسماء، في حين لم يكن في التلفزيون اي عطل او اي شيء ذي ارتباط بهذا الذي يقوله هذا الدجال، المحتال وانما هناك (فيوز) وقد احترق، وباستطاعته ان يعيده الى حالته الطبيعية، او يشتري له (فيوزا) جديدا ببضعة افلاس ليس غير.

وكان الدكتور امين يحب من التلفزيون مشاهدة المصارعة الحرة اكثر من غيرها وكنت انا اكرهها، واكره اية رياضة فيها شيء من الخروج على الانسانية التي يحاولون ان يغطوا عليها ويغالطوا في تسميتها بالرياضة ليتستروا عن معايبها الشائنة كالملاكمة، ومصارعة الثيران، ومبارزة (الشيش) وغير ذلك مما لا يترك الضرر للانسانية، والحقد، في النفوس اعترفوا بذلك ام لم يعترفوا، واللامبالاة برقة القلوب والخلق الرضي في الانسان، وهناك فئات من الطرق الرياضية يستطيعون ان يجلوا فيها قواهم الجسدية، ويبرزوا فيها قواهم الذهنية.

وكان يومذاك اخوان لبنانيان اذكر ان اسم احدهما كان (جان) إذا لم أُخطىء، وكانا يشتركان معا في المصارعة الرباعية في منازلة المصارعين، وكان يحلو للدكتور امين ان يشهد صراعهما في التلفزيون وما زال بي انا الذي كنت ولا ازال اشيح بوجهي حتى عن الرجل وهو شارع بذبح دجاجة، وموبخ الطفل وهو يعاكس الحيوان، اقول وما زال بي حتى صرت احضر معه مشاهدة المصارعة يوم يجيء عرضها في التلفزيون، ولكن الذي صار يلفت نظري منها هو فقدان العدل في هذا الصراع، والمخالفات التي تقع في اثناء الصراع دون ان يستطيع الحكم ان يحول دون وقوعها، وقلما رأيت مصارعة خليت من اعتداء مصارع على آخر، ومخالفة صريحة تحتاج الى حكم اقوى من المصارع ليرد لضارب الضربة المخالفة باقسى منها إذا لم يهتم بالانذار، ولكن مثل هذا الحكم مفقود بالمرة، وقد رأيت ذات مرة ان مصارعا لم يرضه انذار الحكم فحمل على الحكم وبلكمة منه القى به بعيدا من وراء الحبل، وبدل ان يحتج المتفرجون فقد اغرقوا بالضحك!!

وفي صيف سنة ١٩٨٠ وفي اليوم الأخير من ازماعي على العودة الى العراق لعبنا النرد (طاولة الزهر) معاً وحين انتهى لعبنا اطبق الدكتور علبة النرد وقال: إلى الصيف الآتي ان شاء الله، ولم ندر انها ستكون آخر لعبة في حياتنا، اذ لم يشأ الله لنا ان نجتمع مرة اخرى، فقد طرق شخص ذات يوم من ايلول باب داره وطلب منه اجراء الفحص الطبي عليه، وخرج الدكتور امين من الدار الى حيث مقر عيادته، وعيادته هذه تقع إلى جنب بيته تماما كما قلت سابقا وعلى الشارع العام من (سوق الغرب) وكان الوقت مبكرا من الصباح، وفتح الدكتور العيادة بنفسه، وقصد المغسلة كعادته لتعقيم يديه وهو من هذه الناحية كثير الاحتياط، والخوف من التلوث، سواء حين يفحص مرضاه، أو حين يعالج الامور البيتية في داره، وإذا بهذا الرجل يخرج سكينا من النوع الذي يستعمله القصابون في الذبح وتقطيع اللحوم، ويهجم عليه من خلفه ويقطع منه الوريد ذبحاً، فيسقط على الارض في بركة من الدماء، ويبدو ان هذا المجرم كان عريقاً بالجريمة، ومن الذين يرتكبون الجرائم بدون اي وجل وخوف لتعوده الجرائم بدليل انه مسح السكين بصدرية الطبيب، ثم ذهب الى المغسلة وبكل جرأة غسل يديه وازال ما يمكن ان يكون له اثر من الدماء على

جسده وخرج من العيادة خروج من لا يعنيه من امر فعلته شيء.

وعند الضحى حين بدأ المرضى يردون على العيادة اكتشفت الجريمة الشنعاء، فجاء رجال الأمن والتحقيق يحققون وذهب التعليل مذاهب شتى كان اجدرها بالاعتبار هو ما كان يسود تقاليد القبائل والطوائف وهي تقاليد موروثة من بدو الصحراء إذا ما اراد ان ينتقم المنتقم فإن انتقامه ينصب على ابرز من في القبيلة من الشخصيات وان لم يكن له اية صلة بالسبب، وكلما كانت هذه الشخصية التي يقع عليها الانتقام ذات شأن كانت سببا من اسباب مفاخرة المنتقم بانتقامه منه، ويغلب على الظن ان المجرم القاتل كان موتورا وناقما على احد افراد آل زهر في العبادية او احد سكان العبادية فصب جام غضبه على الدكتور امين زهر، ومن هو غير امين زهر من يتصدر أهل العبادية كرئيس للبلدية، وطبيب معروف ذائع الصيت، ومن اسرة عريقة لها مكانة وجاه بين طوائف الموحدين الدروز؟ وهذا هو بعض الاحتمالات.

وكنا انا وبناتي يومذاك بعمان وكان قد دعانا الدكتور امين لزيارتهم فاعتذرنا، فعملت السيدة ابريزا عقيلة الدكتور امين واختها الست سامية بالمثل العراقي المعروف «المايجي وياك تعال وياه» اي تواضع وزر من لا يزورك واذهب اليه بنفسك إذا لم يجيئك هو بنفسه، فجاءتا الينا وانسنا بهما ولم تقضيا غير يومين حتى تلقينا تلفونا يستعجلهما بالعودة وبدون اي تأخير وكان امر التلفون هذا مشوشا لنا ولهما على الرغم من عدم معرفتنا السبب، لذلك قلق الجميع وقلقت انا غاية القلق، وسافرت السيدتان وجابهتا هناك الواقعة.

وللعلامة الاستاذ روكس العزيزي كتاب يعرض به لحياة زوجته المتوفاة ويرثيها وقد سمى كتابه هذا (بجمد الدمع) ولقد والله بكيت حتى جمد دمعي، وبكيت حتى نضبت آخر قطرة من جفوني، وما جدوى البكاء؟ ولكن ما هي العاطفة إذا لم تجسمها لك نفسك بالدموع الجارية من عينيك والزفرات المحرقة التي تزفرها رئتاك؟ والاهات المصعدة من اعماق صدرك اهة تلو اهة، وكم تمنيت لو كنت مؤمنا بالتقمص كالدروز لوجدت في حزني بعض العزاء بأن هذا الشهيد قد ولد من جديد وانه لا بد ان يكون قد تقمص احد أجساد الأخيار البررة المعروفين بسمو الذات وطيب النفس.

لقد كان يوم استشهاد الدكتور امين بسوق الغرب يوم حزن عم جميع القصبات والدساكر المجاورة، وقد اغلق السوق ابوابه وشاركت الكنائس في عزائه بالنواقيس وحمل من سوق الغرب الى العبادية، وأبنّه شيخ الأطباء وزعيم تلك الأصقاع من الجبل الدكتور شاهين الصليبي وهناك رقد بالعبادية رقدته النهائية إلى جوار تلك الزمرة الطيبة من القديسين في هذا البلد العريق بتاريخه، رحمه الله وشمله بألطافه، وخصه برعايته.

كيف عرفت
عجاج نويهض
١٨٩٨ ـ ١٩٨٢

لست اذكر متى عرفت عجاج نويهض عن كثب لأول مرة، ولكني اذكر انني عرفته بالاسم في الثلاثينات، وكلما تقدم الزمن كان يشغل اسم عجاج من ذهني حيزاً اكبر حتى صرت اشتاق اليه ولعل لمجلة (العرب) التي انشأها في القدس سنة ١٩٣٢ التي ملأها ادبا ووطنية، كان التأثير المباشر على ذهني، وإنجذابي إليه كاتبا بارعا، وصحفيا لامعا ووطنيا صادقا مخلصا، وكان ممن يشارك في مجلته من الكتاب، ورجال العلم والادب جمهرة من رجالات مصر ولبنان والعراق وكان في طليعتهم الامير شكيب ارسلان، وعبدالرحمن عزام ـ الذي سمي في اثناء رياسته الجامعة العربية بابي الكلام آزاد لكثرة تصريحاته ـ ومحمد عزت دروزة، ومجموعة اعداد هذه المجلة تعد اليوم مرجعا مهما لتاريخ فلسطين في جميع ادوارها السياسية، والادبية والاجتماعية، وبعد اكثر من ثلاثين سنة التقينا وكانت فرحتي بلقياه كبيرة، وكان من الذين تسمع بهم عن بعد، وحين تلتقيهم عن قرب يزداد اعجابك بهم اضعافا مضاعفة حتى لتخاف ان تفلت منك لذة هذه اللقيا، وتضيع منك هذه الحلاوة، ان انت فارقته، وذهب بعيدا عنك، فقد كان الى جانب ما كان يتحلى به من ثقافة عميقة رصينة، وخبرة واسعة بالدنيا كان يتمتع بشيء جد كبير من دماثة الخلق، والسخاء، والمروءة ولقد ظهرت اثار النبوغ عليه قبل ان يتخرج في (ثانوية سوق الغرب) اذ كان احد المبرزين من خريجيها امثال (الدكتور فيليب حتى) و(حنا خباز) و(الدكتور شاهين الصليبي) و(فؤاد صروف) الذين كان من الدورات المتأخر تخرجها، وحين زار عجاج بعد عدة سنوات مدير هذه المدرسة الذي كان قد اعتكف بسوق الغرب واتخذها بعد تقاعده

سكنا له، وهو عالم انكليزي معروف وكان قد بلغ من العمر عتيا، لقد زاره عجاج في بيته وعرف بنفسه بكونه احد تلامذة هذه المدرسة يوم كان هو مديرها، فقال المدير: ان المبرزين من الطلاب ليشغلون من حيز الذهن عند مدرسيهم وأساتذتهم مالا يمكن نسيانه بدليل اني اذكر حتى الآن العلبة الهندسية التي قدمتها لك هدية ذات يوم لبروزك في هذا الدرس!! واتم عجاج دراسته العالية ولكن ليس في الهندسة وانما في (الحقوق) التي حصل على شهادتها في القدس، وزاول بها المحاماة بعض الوقت.

ولد عجاج (برأس المتن) البلد الذي تسكنه اسرته المعروفة آل (نويهض) في بيت بناه ابوه في بهو واسع كبير منحوت من الجبل فاصبح هذا البهو بعد ذلك حديقة رعاها هو وعقيلته (ام خلدون) وجعلاها جنة غناء، وطالما شبهتها انا بحدائق بابل وانت تصعد اليها بسلم يعلو بك حتى يضعك فوق السطح وهو الحديقة التي يقوم قلبها بيته الذي يحكي صومعة روحية طاهرة ضمته، وضمت عقيلته، واولادهما الخمسة الدكتور خلدون الاستاذ اليوم بجامعة فنزويلا باميركا الجنوبية، والسيدة نورا الكاتبة الصحافية اللامعة صاحبة مجلة (دنيا المرأة) التي عاشت ست سنوات تبشر بالنهضة النسوية المباركة.

وثانية بنات عجاج نويهض هي الدكتورة (بيان) نويهض الحوت الاستاذة بالجامعة اللبنانية ببيروت وقرينة الكاتب الأديب الوطني المعروف شفيق الحوت والسيدة سوسن قرينة الوجيه الفاضل السيد زهير العجلوني أحد أبناء الزعيم المعروف السيد محمد علي العجلوني الذي كان له دور مهم في ترسيخ استقلال الاردن وأحد رجالات الملك عبدالله بن الحسين المقربين، والسيدة جنان، وهي اصغر اولاد عجاج وزوجة ابن خالها الساكن بكندا من أميركا الشمالية، وكل هؤلاء الأولاد قد نشأوا تحت رعاية الابوين الكريمين في هذه الصومعة المحفوظة بالورد والايمان، والطيبة، والسخاء، التي طالما سعد بها الضيوف تحت سقوفها شتاء، واستظلوا صيفاً بفيء دوحته الكبيرة القائمة في حديقتها منذ أكثر من مئة سنة، والتي قد أنسى كل شيء ولا انسى مجالسها العامرة بالشعر، والادب وصنوف الأحاديث الشائقة ، ومن بعضها كانت قصة الابريق الوارد في (كيف عرفت جورج صيدح من هذا الجزء).

وضيوف هذا البيت منذ ان كان ابو عجاج في الحياة لم يقتصروا على فئة دون اخرى فهم وطنيون، ووجهاء من اطراف لبنان، وخارج لبنان من دروز، ومسلمين ومسيحيين، وكان من بين هؤلاء الضيوف على سبيل المثال اديب مصري يكنى بابي سرور، وقد زارهم قبل قيام الحرب العظمى الاولى، وتعرف الى ابي عجاج السيد يوسف سليم وكان ابو عجاج يومذاك مديرا للبريد برأس المتن، وقد اخذ ابو عجاج هذا الضيف الى بيته، وهناك حين رأى ابو سرور موقع هذا البيت المطل على وادي (حمانا) او (وادي لامارتين)

الاديب الفرنسي كما صار يدعى فيما بعد، فقد زار (لامارتين) لبنان ومكث فيه وقتا طويلا، وكتب عليه، ونقش اسمه على سيقان شجر الارز، وعلى جدران احدى غرف بيت الدين التي اقام فيها، ورأى (ابو سرور) سلسلة الجبال الخضراء التي تواجه بيت ابي عجاج، وقد تخللها بنايات (عاليه) من بعيد، وبناية محطة (بحمدون) ومرور القطار بها من هناك ووقوفه عندها ثم رأى من هناك بلدة رأس المتن المحوط باشجار الصنوبر السامقة التي جعلت (لرأس المتن) ميزة خاصة بكثرة منتوج الصنوبر رغب هذا الاديب المصري حين رأى مظاهر هذه الطبيعة الضاحكة في ان يقضي فصل الشتاء في هذا البلد الجميل المحفوف بهذه الزينة التي خصه الله بها من بسمات الطبيعة وانسامها، وقال له ابو عجاج: الوجيه الكريم اهلا وسهلا فهذا البيت بيتك، وانت هنا عند اهلك، وكل امر لك مطاع، وهذان ابناي عجاج، وعلي يهيئان لك كل وسائل الراحة واقام ابو سرور اياما تمتع بها بهذه الحياة الناعمة الهادئة، وكان الفصل من الخريف اوله، ونذر قيام الحرب العظمى الاولى تصك الاذان وفي مثل هذا الفصل كثيرا ما تواجه لبنان عواصف من الرعود والبرق وهطول الامطار الغزيرة، ونزول البرد وذات يوم تلملم السحب فجأة وبعجلة غير منتظرة هبت العاصفة تحمل البرد ما قل نظيره من حيث الحجم والغزارة، وبأصوات الرعد الذي لا تماثله اصوات عشرات المدافع لو اطلقت دفعة واحدة عن كثب من السامع وبدأ الناس يفرون من الشوارع، ويختبئون تحت السقوف وكان اديبنا المصري بالقرب من مكتب البريد ولكنه اختفى فجأة، وراح عجاج يبحث عنه هنا وهناك حتى يئس، ومذ بدأ البرد والمطر يخف كانت اصوات الرعود لا تزال تصك الاذان، واديبنا المصري هذا قد ضاع اثره، وحين جاء عجاج الى البيت باحثا عنه ألفاه تحت احدى الارائك وهو يرتجف رجيف السنابل في مهب الريح ولم يرض بالخروج من تحت الاريكة الا بعد ان خف صوت الرعود، وخرج وهو يرتجف ذعراً وسأل أكلّ الشتاء هنا سيمضي على هذه الوتيرة؟ فقيل له احيانا ولكن هذا شيء اعتيادي ولا يهمك من امره أمر، قال انا مصري، وان مصر لم تألف مثل هذا في حياتها القديمة والحديثة.

يقول عجاج، وفي صبيحة اليوم التالي طلب منا ان نهيء له الوسيلة التي تنقله الى بيروت ليهرب منها الى مصر، وكانت الحرب قد قامت ومن حسن حظه استطاع ان يسافر في الباخرة التي لم تسافر بعدها اية باخرة الى اية جهة بسبب الحرب...

وابو عجاج السيد يوسف سليم من وجوه البلد وكان يسهم في كثير من المهام التي تخص البلد وسكانه، وقد هاجر بعد ولادة عجاج الى اميركا وعاد بعد سنوات ليكون اكثر اهتماما ببلده وكانت له ارتباطات خارج (رأس المتن) تستدعي ان يشاركوه ويشاركهم في الرأي عند حدوث الطوارىء والحوادث السياسية وغير السياسية، وقد قصّ علي عجاج انه

يوم كان في اول صباه أوفده ابوه بمهمة الى (بعقلين) فركب بغلا وراح يجد به السير ماراً في (بحمدون) التي لم يكن فيها يوم ذاك من عمارة او مسكن غير محطة القطار التي لا تزال حتى اليوم تسمى (بحمدون المحطة) وهي في جوار (بحمدون الضيعة) وقد برزت الضيعة بالعمارات الفخمة والفنادق والمخازن العامرة، ويقول عجاج انه قد قطع هذا الطريق نهارا وليلا، وكانت الليالي يومذاك موحشة، واصوات الضباع والذئاب الجياع تملأ الاودية والجبال ولأول مرة أردت أن أثبت لأبي بأني قادر على انجاز المهمة، وان لي قلبا لا يرتعد خوفا من الظلام والطوارىء، وحين طلب الي اصدقاء ابي (بجسر القاضي ان ابيت عندهم أبيت، ولم أبال بالليل وعوارضه فقد كان ابي ينتظر رجوعي بمنتهى المستطاع من السرعة، وقد توفي والد عجاج في أواخر الثلاثينات او اوائل الاربعينات كما يقال عن سبعة اولاد كان الخامس منهم عجاجاً، والسادس عليا وقد حظيت بهما وكان علي كما كان عجاج عالما جليلا ومؤلفا وقد عمل في العراق استاذاً في وزارة المعارف (التربية اليوم) وترك اثراً عميقا في نفوس تلامذته.

الا وقد تفتح ذهن عجاج واكتمل شبابه، وصار له من الوعي السياسي ملكة توجهه الى التمسك بأمرين ظلا يلازمانه حتى الممات هما الايمان بالعرب والعروبة التي لا ينبغي التفريط بما يرفع شأنهما ويعززهما ويحيي الرجاء فيهما سياسيا، واجتماعيا، واقتصاديا، ثم طرد التعصب الطائفي والإلتزام بالمبادىء الاسلامية العامة بدون تفريق، وعلى هذا كان امير البيان الأمير شكيب أرسلان والأمير عادل أرسلان اللذان عاشا للاسلام جميعا بدون تحيز، وهذا ما جمع بين عجاج والامير شكيب قبل ان يجمع بينهما الادب.

ودعته افكاره القومية الى الخروج من لبنان والتوجه الى سورية وهناك شارك في صدور مجلة (القلم) وتحريرها مع عبدالله النجار، وتجلت في هذه المجلة موهبته ومبادئه بأحلى مظاهرها لأول مرة، وكان الملك فيصل الأول يعالج أمر سورية لتثبيت استقلالها عن الفرنسيين وكان الجو مكهربا بالقلق ولم يجد فيه عجاج مجالا للعمل بالرغم من كثرة مشاركته في ايمانه بالملك فيصل من بني معروف اصحابه فترك دمشق الى القدس وكان ذلك في سنة ١٩٢٠، ويقول عجاج على ما اخرجه الأب انطوان ضو:

«دهشت اي دهشة اذ لما وصلت الى (مدينة عمر) كما كنت ادعوها بهذا الاسم وانا أتولى الإذاعة العربية في القدس سني الحرب العالمية الثانية وجدتها من الحجر الجميل الفتان قديمه الماثل في السور الجبار المحيط بالمدينة والمرصوف رصف الجلال والهيبة في ضخام الابنية التي معظمها من عصر المماليك، وحديثه البارز في العمائر المستحدثة وهو على الوان مختلفة كالوان الازاهير في الحدائق والبساتين».

ثم يقول في القدس التي شبهها الرصافي الشاعر بالدير الكبير على ما ذكر الاب (ضو) يقول في هذا الدير: «فيه روحانية هادئة مطمئنة تتفجر من كل حفنة تراب من ترابه، وكل حجر من حجارته، وفي مكانين من العالم العربي إذا زرتهما تشعر بأن للمكان روحا تتكلم بغير لسان، وتنطق لا بكلم المعجم، مشاعر الحج في الحجاز والقدس حيث الحرم الشريف، وكنيسة القيامة المباركة».

وفي (القدس) وهو يقوم باداء بعض الاعمال وقعت عينه على كتاب (حاضر العالم الاسلامي) الذي كتبه بالانجلزية (لوثروب ستودارد) ووجد للكتاب اهمية كبيرة للعالم الاسلامي في ذلك الوقت لو تصدى إلى ترجمته بالعربية، والكتاب حتى اليوم له مثل تلك الأهمية وان كان قد كتب في وقت يختلف عن هذه الاوقات، ولذلك قامت أخيراً احدى شركات الطبع بطبعه من جديد (بالاوفست).

وفكر عجاج ان قام بترجمته فإنه غير قادر على ان يقوم بنفقات طبعه ونشره فضلا عن وجوب تخليه عن عمله وصرف النظر عما كان يدخل عليه من النقد اذا اراد أن يخص الترجمة بكل وقته، فجاء الى صاحبة (البانسيون) الذي ينزل فيه وسألها عما اذا كانت ستوافق على تأجيل دفع اجور مسكنه لثلاثة اشهر يقوم بعدها بدفع الاجرة اقساطا، فرحبت صاحبة الفندق، وكانت قد عرفت اخلاقه وسيرته وسلوكه، وكرم نفسه طوال اقامته عندها، ثم ذهب الى المطعم الذي اعتاد ان يتناول غذاءه اليومي فيه وسأله عما إذا كان سيوافق بان يأكل عنده ثم يؤجل دفع ثمن الطعام الى ثلاثة اشهر ويبدأ بدفعه اقساطا بعد ذلك، وكان صاحب المطعم هذا هو الآخر قد عرف شيئا من سجايا عجاج وشخصيته الانسانية فوافق ولكن الوجبة واحدة في كل يوم، وحينذاك عرض الفكرة على الشيخ (رشيد رضا) وكتب له عما إذا كان يوافق على قيامه بنفقات طبع الكتاب ونشره بمصر ويؤجل دفع الحساب الى حين تمكنه، فجاءته الموافقة والترحيب بفكرة القيام بترجمة هذا الكتاب النفيس.

وبلغ الامير شكيب ارسلان خبر تصدي عجاج لترجمة هذا الكتاب وكان يومها يقيم بسويسرا فأيد عمل عجاج وابدى رغبته في ان يعلق على فصول هذا الكتاب بالحواشي ان هو - اي عجاج - استعد بأن يبعث له بكل فصل تتم ترجمته عنده، وهناك كتب عجاج الى (ستودارد) مستأذنا وجاءه الاذن بالترجمة وترك عجاج حينذاك عمله وانصرف الى الترجمة، وكثيرا ما كان يتأخر تعليق الأمير شكيب أرسلان.

وتقول السيدة ام (خلدون) ان اصل صلة الأمير شكيب الاسلان بكتاب (حاضر العالم الاسلامي) هو ان عجاجا طلب من الامير ارسلان ان يكتب لهذا الكتاب مقدمة،

فطلب الامير من عجاج وجوب الاطلاع على ترجمة الكتاب اولا ، لذلك ارسل عجاج مسودة الترجمة الى الامير ، ولما اطلع الامير عليها وجد ان التفسيرات التاريخية التي يتضمنها الكتاب مما تزيد قيمة الكتاب وفائدته للعالم العربي والاسلامي وهنالك كتب الأمير تعليقاته المشهورة على الكتاب وبدأ بارسالها كراسة بعد كراسة الى المطبعة بمصر رأساً.

وكيفما كان فقد تمت الترجمة ، وتمت عليها حواشي الأمير شكيب ، وتم طبع الكتاب في اربعة اجزاء وجاء الوقت الذي يجب ان يسدد عجاج حساب (البانسيون) والمطعم ، والمطبعة اقساطاً ، وهو خالي الوفاض وكان ذلك سنة ١٩٢٤ وليس في جيبه قرش واحد ، وكان الحاج امين الحسيني قد عرض على عجاج من قبل العمل كسكرتير لاعداد فكرة يقوم عليها مؤتمر اسلامي يعالج امور المسلمين في شتى اقطارها ومنها كان مستقبل فلسطين ، فاعتذر عجاج عن قبول هذه الوظيفة لمعارضتها لاشغاله التي كان ملتزما بها في ذلك الوقت ، وهنا رأى عجاج ان يسأل المفتي عما اذا كان لا يزال يحتاج إلى المهمة التي عرضها عليه ذات يوم في شؤون المؤتمر الذي يسعون لقيامه فرحب به المفتي وابدى سروره ، وعرض عليه راتباً محترماً ، ورأى عجاج ان يسأل هل بامكان المؤسسة ان تسلفه الراتب لستة اشهر مقدماً ، فلقي كل الترحيب وسدد بذلك كل المبالغ التي تدينه دفعة واحدة وبدون تقسيط.

ولقي عجاج من شظف العيش والخشونة والضيق في سبيل عقيدته مالا يستطيع احد تصوره الا الذين عرفوا عجاجاً وخبروا منه مدى ما تفعل العقيدة والايمان والتصميم الذي قل المتصفون به من قبل ومن بعد ، ولا شك انه قد جاع كثيراً وصبر طويلاً ، فان وجبة واحدة من الطعام في اليوم لا تسد حاجة الجسم ولكن الايمان بأنه سيقدم إلى الاقطار الاسلامية التي تناولها الكتاب ـ ان هو قام بترجمته ـ كانت تسد حاجة نفسه الكريمة.

وتشاء المصادفة ان يزور (ستودارد) مؤلف كتاب (حاضر العالم الاسلامي) القدس سائحا وحاجا ويلتقي عجاجا ويشكره على تصديه فيقيم له عجاج حفلة تكريم لائقة ويحتفي به هناك.

وحان وقت زواجه ليكمل دينه ، ودينه هذا هو الايمان بالقومية العربية والشريعة الاسلامية بدون تفريق بين طوائفها ودله محبوه على بيوتات أهل الفضل والعلم وبناتهم الفضليات وهو لا يدري لماذا كان يتردد ويتصبر حتى وقفت عينه ذات يوم على رسالة في احدى الصحف تحيي فيها الآنسة جمال سليم اخاها فؤاد سليم على نضاله واخلاصه في سبيل القضية العربية ، فاعجب عجاج بهذه الروح الوطنية التي تلمسها في هذه الرسالة والمسحة الادبية المتجلية فيها ، ويسأل عنها فيعلم انها فتاة في السادسة عشرة او السابعة

عشرة من العمر وهي ابنة الدكتور يوسف سليم شقيق الدكتور اسعد سليم، وكلاهما طبيبان ومن مشاهير الاطباء في تلك الحقبة، وآل سليم اسرة من وجوه اسر الدروز (بني معروف) يسكنون (صاع الشوف) وهي غير (صاع الحلاوة) وان من اخوتها، نسيب سليم الذي سكن الولايات المتحدة وتوفي بها، وفؤاد سليم، واملي، وانيسة، وعارف، ونصري، وهي اي السيدة جمال وكانت اصغر حبات العنقود.

وكان فؤاد سليم ممن أبلى في الثورة العربية بلاء حسنا واشتهر بما عرف به من حماسة ودعوة صارخة للقضية العربية وقد دخل الشام مع الملك فيصل الأول وكانت له منزلة رفيعة عند الملك وعند الذين نذروا انفسهم للقضية العربية فجاهدوا جهاد الابطال وكان فؤاد سليم من عيونهم، ولم يكن ذلك بالعجيب نشأ في بيت لأبيه وعمه الاثر الكبير في هذه النشأة الى جانب ما اتصف به ابوه من انسانية إذا اجتمعت بالطب كانت سببا كبيرا من اسباب سعادة الانسان، وكانت هذه الانسانية من اقوى وظواهر هذا الأب الكريم الدكتور يوسف سليم الذي لم يتوان عن زيارة اي مريض في اية قرية وان كان الطريق اليها وعراً، ولأنه كان طبيبا موظفا لدى الحكومة العثمانية كان كثير التنقل من مقاطعة الى أخرى حسب مقتضيات الوظيفة فترك في كل بقعة ذكريات طيبة من هذه الانسانية ولا يزال يذكرها بعض من كتب له ان يعيش.

وفيما روى الراوون ان قرويا من (عيناب) إذا لم تخني الذاكرة كان قد ابتلى بمرض عضال نقل بعد ان يئس منه اهله الى محل الدكتور يوسف سليم، وعند الفحص تبين له ان علاجه يتطلب تمريضاً وجهدا لا قبل لأهله به، لذلك تبرع بأن ينزله في بيته ويعالجه بنفسه، وقد طالت مدة المعالجة والتمريض وبعد ثلاثة اشهر شفي الرجل وشكر للدكتور انسانيته وعطفه ورجع إلى بلده عيناب سالما.

وتشاء المصادفة ان يدعى الدكتور يوسف سليم لمعالجة مريض في تلك الجهات من القرى الملحقات بمدينة (عالية) فيركب الدكتور فرسه وما كاد يقطع من الطريق بعضه حتى تجمعت السحب من كل مكان وبدأت السماء تمطر والدكتور جاد في السير على فرسه ويشتد المطر ويقبل عليه الليل وهو في حال لا يوصف من الضيق وقد عانى من الجهد هو وفرسه في مثل تلك الطرق الوعرة ما عانى واذا به يدخل (عيناب) ويذكر هنا المريض الذي اواه وعالجه ثلاثة اشهر متواصلة ويحمد الله ان لم تضع الانسانية ولم تذهب هباء فيسأل عن بيته من بعض أهل الحوانيت وهم على وشك ان يغلقوا حوانيتهم فيدلونه على البيت ويطرق الدكتور الباب ويطلب صاحب البيت فيخرج اليه ويعرفه بنفسه ويخبره بما هو فيه من حيرة في مثل هذه الحالة التي ترغمه على عدم مواصلةَ السير إلى القرية المقصودة، ولكن الرجل يعتذر، لعدم وجود مكان عنده لفرسه مع شيء من التجهم في

الوجه، فيضطر الدكتور الى مواصلة السير معتقدا ان سبل المعروف مقطوعة وليس يقول الناس افعل المعروف وارمه في دجله فسيعوضك عنه الله في الصحراء، ولكنه ما كاد يسير قليلا حتى رآه رجل من عيناب نفسها وكان قد عرف الدكتور لأنه سبق ان عالج له ابنة وقد اغرقه المطر وآثار الاعياء ظاهرة على فرسه التي كانت تدب في سيرها دبيبا فيسأله إلى أين في مثل هذه الليلة الحالكة الماطرة يا دكتور، فيخبره الدكتور بما هو عليه، ويتقدم الرجل ويصحب الدكتور الى بيته والدكتور لا يعرفه ويأخذ بعنان فرسه الى ملجأ قريب ويعلفه، ثم يشعل النيران ويجفف ثياب الدكتور ويأتي له بالعشاء ويقضي الدكتور عنده ليلة مريحة هادئة لكي يواصل سيره في الصباح، ويسلم الدكتور حينذاك بصحة المثل القائل (ارم بمعروفك في البحر فسيعوضك الله عنه في البر).

وتنجذب نفس عجاج الى هذا البيت ويشغف حبا بالآنسة جمال سليم وهو لم يرها، كما كان قد انجذب صبحي الخضرا صديق فؤاد سليم وزميله في الجهاد فجاء يخطب احدى اخوات فؤاد اذ كانت نساء المسلمين على الوجه العام محجبات، يومذاك بخلاف النساء المسيحيات وكان يحكي المرأتين اللبنانيتين تمثال في البرج لامرأة سافرة واخرى محجبة الى وقت قريب وقد شق على السيد سامي اسعد سليم وهو ان الدكتور اسعد سليم عم فؤاد سليم قيام هذا (التمثال) الذي قد يوحي بتأخر المرأة المسلمة فجاء بفأس ومعول وسلم ذات يوم وصعد بنفسه إلى التمثال وهدمه ونثر حجارته وانتهى به الامر الى السجن، والسيد سامي استاذ تخرج في الجامعة الاميركية في قسم الكيمياء، وتركيب الادوية والعقاقير وعلى ذكر حماسته وما عرف به من فورة نفسية انه قام يصرخ ذات يوم في المقهى الذي كان يقوم على مطعم (ابي عفيف) في البرج بأن هذا الطربوش الذي يعتمر الناس انما هو شعار الاجانب وان علينا ان نتخلى عن لبسه ونرمي به بعيدا وقام يهم بانتزاع الطرابيش من رؤوس الحاضرين وجلهم من أهل الادب ومن رجال الثقافة الذين كانوا يتخذون من هذا المقهى مجلساً لهم فحصلت ولولة، ودفاع، وصراخ ما لبث ان اتصل خبر هذه المعركة برجال الامن الفرنسيين فقبضوا على الاستاذ سامي وادخلوه سجن التوقيف ثم اطلق بعد ذلك.

اقول لقد جاء صبحي الخضرا يخطب احدى اخوات فؤاد اعتزازاً بمصاهرة هذا البيت، فقال له فؤاد انت تعلم يا صبحي بأن بيتنا هذا بعيد عن التعصب بدليل ان امي التي تزوجها ابي كانت مسلمة تركية وقد عاف ابي جميع البيوت الدرزية التي كانت تفخر به لو طلب التزوج منها، ومن رضي ان يتزوج من غير قومه لا بد ان يرضى بتزويجهم منه ولكن المسألة التي سنواجهها من حيث التقاليد لا يمكن ان تمر بدون مشكلات، وهي مشكلات اشد مما جوبه بها أبي في زواجه من امي لذلك فانا مرغم على الاعتذار منك، الا

إذا مكنتني قليلاً لافكر في الأمر، وكان الأمر كذلك وتم زواج صبحي عن طريق توسط الملك فيصل الأول.

وكان صبحي هو الرئيس الأعلى للأمن في ايام الملك فيصل بالشام وهو منصب له وزنه في تثبيت اركان الدولة، وقد عرفت انا من اولاد المرحوم صبحي الشاعرة اللامعة الدكتورة سلمى الخضرا الجيوسي وعرفت اخاها الاستاذ فيصل.

أما خطبة الاستاذ عجاج للآنسة جمال سليم اخت المجاهد فؤاد سليم فقد عرضت على اخوتها وعلى صهرهم صبحي الخضرا ولقيت قبولا من لدن فؤاد، وعارف، ونصري، وصبحي الخضرا، وسرعان ما اعلنت الخطبة ولكن الزواج قد تأخر ولم يتم الا في سنة ١٩٢٨ وذلك بسبب قيام ثورة جبل العرب (جبل الدروز) سنة ١٩٢٥ تحت قيادة سلطان باشا الاطرش، التي كانت العامل الاكبر والحجر الاساسي في استقلال سورية من السيطرة الفرنسية، وفي هذه الحرب الضارية استشهد المجاهد العربي فؤاد سليم وهو يقود حملة في احدى المعارك العنيفة، وحين بنى عجاج بزوجته اصطحبها الى القدس معه، وفي القدس برزت مواهبها سيدة بيت اصيلة الى جانب موهبتها الادبية، التي جعلت منها شاعرة من المع رواد الشعر النسوي الذي يصور ادق احاسيس المرأة في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية، وأرهف شعورها في استطلاع الأمور، وما اتى به امس وما تأتي به الايام غدا او بعد غد في حين ان هذا الشعر ما كان ينشد الا في مناسبات خاصة وبين الأهل والاصدقاء واليها يرجع معظم التخطيط في نشأة اولادها لأن عجاج قد شغلته السياسة وجرفته التيارات القومية والاحداث، وشغل بتتبع الحوادث من جميع نواحيها التأريخية والادبية سواء في مهام المؤتمر الاسلامي قبل انعقاده ام بعد انعقاده ام في اتصالاته الشخصية برجال الفكر والعلم والادب،، فقد كان عضواً في أول مؤتمر اسلامي عقد بمكة سنة ١٩٢٦ وكانت النية ان يعقد في كل سنة مؤتمر مثل هذا في كل قطر عربي اسلامي وكانت فلسطين في العشرينات والثلاثينات بصورة خاصة في خضم من المظاهرات والاضرابات حتى اضربت فلسطين مرة ستة اشهر كاملة وكان عجاج من ابرز خطباء هذه الفترة والباعثين فيها روح الثورة على الهجرة اليهودية واذكر ان المرحوم الحاج ثابت والاستاذ الجليل الشيخ محمد مهدي كبة من العراق كانا يقومان بجولة في العراق لجمع التبرعات وبلغ تطوافهم اليمن وكل مكان آخر، وانا فخور بانني وانا في النجف قد تلقيت منهما كتاب شكر على ما كنت إعمل في هذا السبيل.

لقد طالت مدة عمله مع المؤتمر الاسلامي الذي بدأ التفكير فيه والاعداد له في اوائل العقد الثالث، ودام الى اكثر من عشر سنوات كان عجاج فيه احد الاقطاب وكان عضوا من اعضاء هذا المؤتمر الاسلامي الذي عقد بمكة المكرمة كما مر والذي يميز عجاجا لم يكن

رأيه السديد وقلمه البليغ الجريء، وادبه الرفيع بفرعيه الشعري والنثري فحسب وانما كان خطيباً مصقعاً، يحسن وضع الكلم في المناسبات التي تقتضيها وبطلاقة كثيراً ما جذبت النفوس اليه جذباً ولذلك كان له الشأن الكبير في المؤتمر الاسلامي وعلى الاخص المؤتمر الذي اقيم بمكة المكرمة وفي الكثير من المناسبات الوطنية خاصة. كان يدعو في خطبه الى التنبيه بالخطر الصهيوني قبل وقوعه وقبل ان يحس به اغلب انداده من الوطنيين المحنكين، حين صدر له كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) واعيد طبعه في سنة ١٩٨٠ وهو في اوائل انتكاساته الصحية شعر قراء العربية بعمق هذا الرجل وحسن جهاده في تتبع فكرة الصهيونية من اول انبعاثها عند اليهود الروس الى انتقالها الى (بازل) بسويسرا الى دخولها ارض فلسطين مزودا بحثه بوثائق مهمة من صحف وتقارير وحوادث دخلت التاريخ في اصقاع بعيدة من العالم او قريبة من ارض فلسطين، مما يعز العثور عليها ومثل هذا ما كان يسمعه الناس في خطبة قبل ان تروج الفكرة الصهيونية وتصبح علة من العلل التي يستحيل علاجها.

ورأى عجاج ان يتخلى عن الارتباط بالمؤتمر الاسلامي موظفا ويعمل بنفسه جاهدا للعرب عامة ولفلسطين خاصة فاختير عضوا في اللجنة التنفيذية للمؤتمر القومي العربي الذي عقد في منزل (عوني عبدالهادي) بالقدس سنة ١٩٣١ واختير معه جمع من الذين عرفوا بالاهتمام بالقضايا العربية العامة وقضية فلسطين خاصة وكان من بينهم (عجاج نويهض) وعوني عبدالهادي نفسه، واسعد داغر، وخير الدين الزركلي، ومحمد عزت دروزة، وصبحي الخضرا، وقد جاء ذكرهم وذكر اهداف جمعيتهم في (رجال من فلسطين) بصورة كاملة، وفي هذه الاثناء انشأ عجاج مجلة (العرب) وذلك سنة ١٩٣٢ فكانت الوسيلة الكبرى لانتشار الوعي السياسي وتوجيه الناس الى ما ينبغي ان يتوجهوا اليه وقد ملأها أدبا، وعرفانا، وفي هذه السنة اسس عجاج (حزب الاستقلال العربي) في فلسطين، وانضم اليه في تأسيس هذا الحزب، عوني عبدالهادي ومحمد عزت دروزة، وصبحي الخضرا، واكرم زعيتر، ورشيد الحاج ابراهيم، والدكتور سليم سلامة، ومعين الماضي، وكان ابرز اهدافه: وجوب السعي والعمل لاستقلال البلدان العربية من نير الاستعمار، والاعتراف باستقلال فلسطين بلداً عربياً، وجزءاً من البلدان العربية لأن وعد بلفور الصادر سنة ١٩١٧ كان قد جعل الطريق لاحباً ومستقيما لقيام الصهيونية في فلسطين وسعي الصهيونيين المكثف لجلب يهود الاقطار النائية ولا سيما البولنديين، والروسيين، واوربا الوسطى إلى فلسطين والاستعداد لانتهاز الفرص المناسبة لاعلان دولتهم، وهذا ما كان عجاج ينبه إلى وقوعه قبيل وقوعه، وكان العرب يجهلون الطرق السياسية المضمونة في الحؤول دون تحقيق الغاية التي ينشدها اليهود، فتحقق غرض اليهود بسبب جهل العرب السياسي وقلة ادراكهم لما يبيت لهم.

وظل عجاج طوال عمره ينبه الى الخطر الصهيوني في كل مناسبة من المناسبات ويشير إلى الصهيونية (وبروتوكولات حكماء صهيون) ويحذر العرب والمسلمين من عواقب هذا الخطر ففي عدد ديسمبر من سنة ١٩٧٧ حينما كان يعلق على اطروحة الدكتوراه التي حصل عليها الدكتور هامل باسم (جعفر الخليلي والقصة العراقية من جامعة مشيغن) ينتهز هذه الفرصة ويقول ـ كما هو ديدنه ـ إلى تذكير العرب بالبروتوكولات في ضمن هذا التعليق ويقول:

«يتضح لنا ان قول شاعر الامبراطورية والتاج البريطاني (ردياردكو بلنج) ١٩٣٦ ان الشرق شرق، والغرب غرب، قد انتهى بانتهاء الاستعمار، ولا نريد التعريج في هذا المقال على مناح سياسية، ولكننا والحديث عن (كبلنغ) وشرق وغرب، واستعمار، وحضارة، وما الى ذلك، نشعر بوجدان حار اننا مضطرون لنقول جهرة ان حضارة اليوم في خطر يقترب منا بطريقة غير حسابية بل هندسية، واننا نصيح بملء فمنا إن تبني اميركا لاسرائيل بالسلاح والمال والسياسة، والعهد اثر العهد بان تركض اليها وتنشلها اذا عثرت، واسرائيل ماضية في العصيان، وباقية على الارض العربية المحتلة، معتدية، كل هذا سيجر اسيا وافريقيا (ذات يوم) إلى تقليم اظافر اسرائيل، والسبب الذي مع الأسف لم يفهمه العرب بعد، شيء اسمه ليس اسرائيل بل (بروتوكولات حكماء صهيون) التي خبرها عند (اللوبي الصهيوني) في اميركا».

وظل عجاج يعمل في مختلف الميادين موظفاً، وصحافيا، وعضوا في الاحزاب الى ان قامت الحرب العظمى الثانية وكانت السلطات الانجليزية قد اسست محطة اذاعة عربية وقد عهدت برئاستها إلى الشاعر الملهم المعروف ابراهيم طوقان، وهو من اسرة آل طوقان العريقة بنابلس ومن الشعراء الموهوبين الذين تمتلىء اشعارهم بالرقة والأحاسيس المرهفة، وهو شقيق الشاعرة الملهمة المعروفة (فدوى) طوقان، ولم يكد يعمل في الاذاعة بعض زمن حتى عرضت عليه الخدمة في (معارف) العراق براتب اكبر ومكانة محترمة بدار المعلمين الريفية، وكانت شهرته قد سبقته الى العراق وكانت قصيدته المشترك نظمها بينه وبين الشاعر العراقي المعروف[1] حافظ جميل هي اول ذيوع شهرته والقصيدة هذه كان قد أوحى بها جمال اطالبة فاتنة اسمها (ألس تين) كانت من بين طلاب الجامعة الأميركية ببيروت يوم كان ابراهيم طوقان النابلسي وحافظ جميل العراقي هما الآخران كانا طالبين في هذه الجامعة وقد بهرهما جمال (الس تين) وهما شاعران وكان طبيعيا ان يلجأ الى الشعر في التغزل بهذا الجمال الرائع، ولكنهما طالبان ولا شك ان مصيرهما سيكون الطرد فوريا

(١) باعتباره اختصاصياً في القلب.

فكان مطلع القصيدة بتورية لاسم (تين) تخلصا من الورطة لو وقعا فيها وجاء المطلع على هذا النمط:

«تين، يا توت، يا رمان، يا عنب»

وانتشرت القصيدة بين طلاب الجامعة وعبرت الى البلدان العربية وصار يحفظها الكثيرون إلى حد هذا اليوم.

وحين تم التحاق ابراهيم طوقان بالعراق رأت السلطة الانجليزية ان تعهد برئاسة محطة الاذاعة العربية في القدس الى (عجاج نويهض) تقربا للاحزاب العربية والقوميين من الوطنيين ولكن عجاجاً رفض الاشتغال في هذه المحطة، وكان الوسطاء اليه بعض العارفين بمميزاته الادبية فضلا عن وطنيته واخلاصه، فاشترط على المسؤولين من الانجليز الاعتراف له بأنه سيكون حراً فيما يفعل وانهم سيضعون ميزانية المحطة السنوية كلها تحت تصرفه وليس هناك من يحاسبه على ما تذيع المحطة، وعلى ما ينفق عليها، واكدوا له هذه الحرية ودعوه الى تجربتها، وقد شغل هذه الوظيفة من سنة ١٩٤٠ الى نهاية سنة ١٩٤٤ وقد غير من طبيعتها ولم يجعلها محطة محدودة، ولما لم يكن تسجيل الاصوات يومذاك على الشريط معروفا باستثناء التسجيل على الاسطوانات رأى ان يدعو المشاهير من رجال العلم والادب من سائر اقطارهم الى القدس ليذيعوا احاديثهم، وكان قد هيأ لهم المسكن في ارفه الفنادق كفندق الملك داود، كما أعد لهم المكان المناسب لإلقاء محاضراتهم العامة للناس فضلا عن احاديثهم الاذاعية، فكانت ثورة اجتماعية، ادبية، وطنية هائلة تتغذى من مجهود عجاج وميزانية الاذاعة.

وكان من اشهر من دعته الاذاعة من لبنان وسوريا هو بشارة الخوري (الاخطل الصغير) ومحي الدين الخطيب والغلاييني، وخليل مردم بك، وشفيق جبري، ومحمد كرد علي، وفؤاد الخطيب، ومن مصر دعي العقاد والمازني، والدكتور عبدالوهاب عزام، والدكتور محمد عوض، والشيخ عبدالعزيز البشري.

وقد دعي طه الراوي من العراق وغيره واحتفت الإذاعة بهم، وكرمتهم، وتمتع الناس بأحاديثهم في الإذاعة وبمحاضراتهم في القاعة المخصصة، كان من الحق أن تسمى ثورة، فهي بالفعل ثورة علمية وأدبية واجتماعية، ظهرت فيها قدرة عجاج في ميدان جديد لا يمت إلى ميدان الصحافة والمحاماة، والأحزاب بشيء، هو ميدان جديد حق له أن يكون مفخرة من مفاخر حسن التدبير، والإدارة، والخدمات العامة الشاملة كل العرب في ديارهم.

وحين جاء ذكر ميخائيل نعيمة ذات مرة وأنا عند عجاج قال عجاج لقد دعوته إلى محطة القدس فأجاب الدعوة ولكنه حين علم بأن السيارة ليست له وحده، وإنما هناك بشارة الخوري وخليل تقي الدين، والفلاييني سيستقلون السيارة معه رفض ميخائيل نعيمة استجابة دعوة الإذاعة مالم تقله سيارة خاصة به، وكان بوسعنا أن نخصص له سيارة مستقلة، ولكن مثل ذلك ربما كان يجرح عزة النفس عند بشارة وزميليه وأنا لا أريد ذلك يقول عجاج[1].

وفي سنة ١٩٤٨ حين تم للصهيونيين اكتساح أرض فلسطين وفرار الناس من ديارهم خائفين مذعورين بسبب البطش الذي شاهدوه، خرج عجاج كما خرج مئات الألوف الاعتيادية، وإذا كان من طبيعة عجاج والسيدة أم خلدون عدم الاهتمام بكل شيء تركوه غير أرواحهم وأرواح الناس فقد كانت فجيعتهم بنهب المكتبة كبيرة جداً بل والله لفجيعة العارفين بقدر هذه المكتبة كان أكبر وأعمق، لا لأن هذه المكتبة كانت أوفر المكتبات عدداً من الكتب، ولا لأنها كانت تمتاز بالنادر من الكتب اليتيمة، وإنما كانت لعجاج هناك مئات الوثائق المهمة، والرسائل المكتوبة بخطوط أصحابها، وعشرات الحوادث التي حققها عجاج بنفسه والتي انفرد هو في تحقيقها حتى أصبحت حججاً لا يمكن أن يستغني عنها الذين يريدون الإحاطة بالقضية العربية عامة والقضية الفلسطينية خاصة من جميع وجوهها السياسية، والاجتماعية والأدبية، ذلك لأن عجاجاً كاد ينفرد بتتبع الحوادث والوقوف عليها بنفسه، واكتشاف أسبابها وما خفي عن الكتاب والمؤرخين خبرها، وقد غادر الدنيا ومذكرات حياته بل حياة الناس في الحقبة التي عاشها وخبرها تحت الطبع، وإذا ما تم لها الخروج من حيز الطبع فستغير الشيء الكثير من أفكار الناس وآرائهم، وتصحح الشيء الكثير من معتقداتهم.

وبالإجمال فقد ترك عجاج بيته للنهب وخرج من القدس إلى عمان، وكل غنيمته من دنياه هو الأياب، ولا حسرة له على شيء من منهوباته غير المكتبة.

وفي عمان عمل في الديوان الملكي بمعية الملك عبد الله مساعداً لرئيس الديوان كما عمل بعد ذلك سنتين مديراً للإذاعة ثم مديراً للمطبوعات، وإليه يعود الفضل في توجيه الصحافة يومذاك توجيهاً صحيحاً في خدمة البلد من جميع الوجوه الثقافية وخدمة القضية العربية التي كان الملك عبد الله يفيض حماسة لها، والذي يرجع اليوم إلى ذلك العهد ليرى هذه الصور جلية في الصحافة الأردنية على الرغم من صعوبة إيجاد وسائل الطبع والورق يومذاك.

---

(١) راجع (كيف عرفت ميخائيل نعيمة في هذا الجزء).

ولعجاج من الصفات والمواهب ما تجعل الكثير ممن يتم لهم التعرف به أن يخلصوا في محبته ويوثقوا صداقاتهم به لذلك ليس من عجب إذا اتسعت دائرة علاقاته مثل هذا الاتساع حتى تم له أن يعرف حتى دواخل الأصدقاء، وعاداتهم، وما يفرحهم، ويحزنهم، وكل ما يتعلق بهم، وأن كل هؤلاء الأصدقاء وهم أما سياسيون وطنيون، أو علماء باحثون، أو كتاب وشعراء، أو أرباب عمل ومجهود، فكان يلج عجاج بيوتهم فيزورهم ويزورونه، وطالما شملهم بكرمه فقد كان هو والسيدة أم خلدون في أقصى حدود السخاء والكرم فيمن عرفت أنا من الأصدقاء والكرماء، فأنت حين تقرأ كتابه (رجال من فلسطين) الذي صدر وهو مسجى على سرير المرض تأخذك الدهشة في عرضه لمن عرف من رجال فلسطين فقد كان يسجل حتى سيرة الرجل المنزلية أخلاقه وسلوكه، وما ينبعث في ذهن عارفيه عنه فهو عندما يمر بذكر العالم الجليل السكاكيني مثلاً لا ينسى أن يقول عنه بأنه كان يغتسل بالماء البارد في الشتاء القارس[1]، وأن له من الإباء ما سد في وجهه وصول المال إليه في حين يأبى هو أن يروح إليه، ويذكر أن خليلاً لم يطق الحياة بعد أن مات ابنه (سري) إذ مات خليل بعده بشهور[2]، ويقول عجاج عن (سري) هذا الذي أكمل تعليمه بأميركا أنه التقاه بعمان آخر مرة وهو يهم بالسفر إلى مصر، وقد وافته المنية هناك بعد وصوله بقليل، يقول نويهض فدعوت سرياً وأنا بعمان فاعتذر بسبب هذا السفر المستعجل، وما قاله - في ما يقول عجاج - وقد أخذت هالة روحية تطفو على وجهه قال «والآن وداعاً ولا أدري أأعود إلى عمان ثانية؟» وابتسم ابتسامة تقرأ فيها شيئاً من غير بضاعة الدنيا، وبقيت أياماً وأنا أسأل نفسي عن مغزى هذه العبارة، فلما قرأنا في الصحف خبر وفاته علمنا أن للغيب ظلاً يمتد أحياناً من المجهول إلى المعلوم، وأنه ليذكر في عرضه لخليل حتى أسميْ كريمتي السكاكيني وهما (دمية) و(هالة)[3] وأن السكاكيني استطاع

---

(١) وفي مذكرات السكاكيني: أنه كان يستحم بالماء البارد شتاء وصيفاً كل صباح ويرتاض قبل الفطور وما من يوم انقطع عن هذه العادة طوال عمره إلا بعض الأيام من أيام سجنه بدمشق في أواخر أيام الحرب العظمى الأولى وإلا في بعض الأوقات التي يضطر فيها إلى ذلك اضطراراً.

(٢) وكان شديد الولع بابنه سري وأكثر من ولع يعقوب بابنه يوسف لأن يعقوب لم يمت حزناً على ابنه وقد مات خليل السكاكيني بهذا الحزن، وقد ورد ذكر (سري) في معظم ذكريات السكاكيني في مذكراته اليومية، فمثلاً حين كان السكاكيني في سجن دمشق جاء في مذكراته:

«لم يكن ألذ عندي، وأدعى لغبطتي وسعادتي من أن أمشي مع (سري) يداً بيد، من أن أراقب حركاته وسكناته من أن أسمع أحاديثه وحكاياته من أن أداعبه وأركبه ظهري، من أن أرى نموه الجسدي والعقلي، من أن أقبله وأشمه، وأضمه إلى صدري، نظرة إليك يا سري تمحو سيئات هذا الزمان وتحجب عن ذاكرتي آلامي الماضي».

(٣) وهالة هذه هي التي طبعت مذكرات أبيها بعد وفاته، وأسدت إلى القارىء العربي أفضالاً جد كبيرة لما احتوت عليه هذه المذكرات من فوائد جمة تخص التاريخ، والأفكار، والأدب.

أن يبني له بيتاً في القدس بما جمع من حطام الدنيا ومن ثمرة عمله في الحكومة لكي يستريح، ولما ماتت زوجته قال: «لما عشنا متنا، واستولى اليهود على بيته هذا».

ولا بأس بأن أشير هنا إلى كيفية التفكير في، بناء دار السكاكيني نقلاً من مذكراته لإحاطة القارىء بحالة السكاكيني المادية والتعرف بحياة هذا المربي الكبير والعلامة العبقري الأديب، فقد وقعت مذكراته بيدي عفواً وأنا أكتب هذه الكلمة عن عجاج نويهض، يقول خليل السكاكيني في رسالة كتبها لابنه (سري) الذي كان يدرس العلم في إحدى الجامعات الأميركية سنة ١٩٣٤.

«أرجو أن يسرك (يا سري) أننا اعتمدنا بعد الاتكال عليه تعالى أن نشتري قطعة أرض نبني فيها بيتاً متواضعاً نأوي إليه بعد أن أحال على التقاعد، وكدنا لمجرد أننا فكرنا في ذلك أن نعمل كما عملت امرأة جحا، أما كيف كان ذلك فاسمع:

قال جحا ذات ليلة لامرأته: إلى متى نسكن البيوت المأجورة، فلقد حان لنا أن نبني بيتاً نسكنه، ونُكفى مؤونة الانتقال من بيت إلى بيت، وما كاد يخرج في الصباح من بيته حتى قامت امرأته فنقلت الأثاث إلى قطعة أرض قريبة من البيت وعلقت حبلاً على شجرة فيها وأخذت تتأرجح وتزغرد قائلة:

العقبى لكم يا جيراننا	أن يجري لكم كما جرى لنا
نخرج من دور الكرا	ونسكن في دار الشرا

نعم لقد كادت أمك تنقل الأثاث إلى قطعة الأرض التي أمامنا فتتعلق حبلاً على شجرة الصنوبر الكبيرة فتترجح وتزغرد.

نعم لقد عولنا بعد الاتكال عليه تعالى أن نشتري أرضاً، وقد خرجنا اليوم بعد الظهر وفداً كبيراً يعقوب فراج، ومتري فراج، وواصف جوهارية يحمل خارطات أراضي القطمون، وعيسى الطبه مختار محلة القطمون، وأنا ودمية، وهالة، على أمل أن تلحقنا أمك، وعمتك (ميليا) وعمتك (حنة) التي جاءت هذا الأسبوع لقضاء بضعة أيام عندنا وقد يدري بخروجنا نرتاد الأرض الأهل والأصدقاء والجيران، وسكان المحلة فيلحقون بنا في موكب أو شبه موكب فنطوف الجبال والأودية، والسهول القريبة والبعيدة لنختار قطعة أرض، وبعد أن طفنا ما طفنا، وبعد أن تسلقنا الجبال، وهبطنا الأودية لنتفقد الأراضي، هذه جيدة وهذه منخفضة، وهذه مرتفعة، وهذه قريبة، وهذه بعيدة، وهذه غالية، وهذه رخيصة، وقع اختيارنا على قطعة أرض إلى الشمال من (القطمون) هي ملك أحد الرهبان، اللهم ألهم هذا الراهب أن يبيع أرضه، وأن يجعل ثمنها مما تحتمل جيوبنا، وأن

الأرض كبيرة تصلح أن تقسم إلى أربعة أقسام، فلا بد من أربعة مشترين، ومن هم (هؤلاء المشترين)؟ (فكانوا) يعقوب فراج، ومتري فراج وانستاس حنانيا، ومحسوبك الأصغر، وقد فوضنا من فورنا المختار العظيم (عيسى أفندي الطبه) ليراجع الراهب، وأن يهدده إذا لم يتفرغ لنا عن أرضه فإننا نحتلها احتلالاً!! وستكون هذه المراجعة غداً، وأننا لما يجيء به الغد لمنتظرون.

وقد تعجب أننا عرفنا أن نشتري أرضاً، وقد تقول (وهل يملكون ثمنها؟) والصحيح أننا لا نملك شيئاً، ولكن إذا انتظرنا إلى أن نملك شيئاً فلن نشتري أرضاً فإذن ماذا نعمل؟

لقد حاولنا أن نعقد قرضاً بمئة وخمسين جنيهاً، أو مئتي جنيه ندفع أقساطاً من عشرة إلى خمسة عشر جنيهاً في الشهر، هذا ما قررنا أن نفعله نحن وأما الشركاء الكرام فالثمن في جيوبهم.

لا تضحك يا سري ولا تقل أو تتصور أن الأمر مستحيل، ولعلك تسمع قريباً أننا اشترينا الأرض وأننا شرعنا نبني...».

ولنعد إلى رجال فلسطين وتغلغل عجاج في طبيعة كل شخص يمر به واصفاً شيئاً من ملامحه الخارجية والداخلية تكفي لتكشف بعض سيرته في حياته وطبائعه، ودواخل نفسه فهو حين يمر بذكر الشيخ سعود العذاري يقول أنه كان أول قاض شرعي تولى القضاء في القدس بعد الاحتلال البريطاني وأنه عمّر طويلاً وعاش نحو مئة سنة، وأن ولده هو الشيخ مصطفى المتخرج بدار العلوم، وهو اليوم محام شرعي.

وعندما يجي ذكر (وديع البستاني) في كتابه يذكر أنه كان أول من ترجم (رباعيات الخيام) شعراً إلى العربية، وأنه قام بترجمة (المهبراتا) الهندية التي أخذت حكومة الهند على عاتقها طبع الترجمة، ولم تتم حتى الآن، وحين رأى وديع البستاني - يقول عجاج - يذوق الأمرّين من مضايقة اليهود له، قال مخاطباً ابنته:

أبـــوك بــــل ثــــراهــــا دمعــــاً دمــــاً لا ميــــاهــــا
غنّــى العـــروبـــة دهـــراً وعـــاش حتـــى رثـــاهـــا

وحين يمر بذكر علي رضا النحوي لا يفوته من صفاته أن يذكر أنه كان قصير القامة بل وهو في غاية القصر بين ما يقرب من ألف طالب عربي في معاهد الاستانة حينذاك ولما هجم الطلاب على مكتب جريدة (طنين) التركية في الاستانة محتجين على ما كتبت هذه الجريدة من طعن على العرب وقد اقتحموا غرفة صاحب الجريدة، وتناولوه بالضرب وهم عشرات وثب علي رضا النحوي على كتف أحد زملائه الذين أمامه حتى استطاع من فوق كتف هذا الزميل أن يوجه ضرباته إلى رئيس التحرير؟.

ولا بأس بأن أورد مثلاً آخر لإحاطته حتى بالحواشي من الأمور غير المهمة فهو يقول في ضمن ما يقول عن (أمين فارس) وكيفية قيامه هو وزوجته بتربية أولادهما، ويقول أن ابناءهما كانوا أربعة وهم (أديب) وقد توفي قبل الحرب الثانية والدكتور (نبيه) وهو من عيون المفكرين والعلماء والمؤلفين وهو رئيس دائرة التاريخ في الجامعة الأميركية ببيروت، والدكتور (رأفت) وهو يعمل الآن طبيباً في الأردن، و(باسم) ولا أدري مكانه اليوم، وأما البنات: فهن (باسمة) و(نبيهة) و(أسمى) و(رشا) وهن يعملن في حقل التربية الوطنية، وحين توفيت (رشا) انقلبت هذه الأسرة إلى مصنع ثقافي والسيدة (رشا) هي الابنة الرابعة لأمين فارس، وهي الوحيدة التي تزوجت من رجل انجليزي فاضل وتركت أولاداً قامت الخالات الثلاث والجدة باحتضانهم، وقد عاشت الجدة طويلاً.

ويقول عن خصائص (أمين فارس) أن أميناً في الصيف ينقلب إلى (ست بيت) لأنه كان يسهل لزوجته في كل صيف قضاء الصيف في المصايف تعويضاً عن أتعاب البيت طول السنة، ويتولى هو القيام بكل شؤون البيت من طبخ، وغسيل، وكي، ونظافة إلى جانب استقبال الضيوف والزائرين!!

وأنا أقسم لو طلب إلي أن أسمي أولاد أخي لتأملت قليلاً ثم سردت أسماءهم أما أعمالهم فأقسم أني لا أعرف من أنهم (جامعيون) ليس غير، ومن هذه وأمثاله يتضح للقارىء سعة ذهن هذا الرجل ومدى تغلغله في أوساط الذين يتم له التعرف عليهم حتى لم ينس أسماء بناتهم، ولم ينس ما اتصفوا به في حياتهم الخاصة.

وعلى أن عجاجاً لا يفرق بين بلد وآخر في كل قطر من الاقطار العربية ولا سيما القدس وعمان ومنها فقد صح فيه المثل العامي العراقي القائل (يا غريب اذكر هلك) أي تذكر أهلك أيها الغريب، بالرغم من أن عجاجاً لم يكن غريباً بل كان عربياً وفلسطينياً وأردنياً أكثر من الفلسطينيين والأردنيين أنفسهم، ولكن النفس لتحن، وبعد أربعين سنة وهي خلاصة عمر نابغة كعجاج قضاها في فلسطين والأردن زهرة عمره في خدمة هذا البلد سياسياً وأدبياً، وصار كما يقول غازي عبد الرحمن القصبجي الشاعر السعودي حين حن إلى مربع صباه في البحرين

أراضي هناك مع الشواطيء والمزارع والسهول
أمي هناك، أبي، رفاقي، نشوة العيش الظليل

***

أراضي هناك، مع الشواطيء والبحار الأربعة

والأفق والشفق المخضب حين ينثر أدمعه
حيث الماء يطل في صمت ويخطر في دعه
ويعانق الآفاق يمنح كل قلب أذرعه

ففي سنة ١٩٥٩ ودع الأردن بالرغم من تمسك عارفيه به ومحاولة الحيلولة بينه وبين الرحيل عائداً إلى رأس المتن مسقط رأسه، وموطن أسرته من آل نويهض وإلى ذلك البيت الجميل في وسط حدائق بابل، المطل على وادي لامارتين الأديب الفرنسي المعروف، والمحوط بشجر الصنوبر الذي اشتهرت به (رأس المتن) فسماها البعض ببلد الصنوبر وقد قيل أن للصنوبر نفحات ذات أثر صحي كبير في رئة الإنسان وتنفسه، وفي هذه الحديقة التي عنيت بها السيدة أم خلدون حتى غدت زاهية بازهارها المتنوعة وأعنابها المتدلية، وببئر كانت عليها بكرة جميلة مصبوغة بألوان جذابة ودلو هو الآخر عبارة عن سطل ملون يتمنى الوارد على هذه الحديقة لو كان من اللائق لسعى إليه وأدلى الدلو في البئر وأخرج منه الماء، وقد والله طالما جرى في ذهني لما في هذه البئر والبكرة والحبل والسطل من جاذبية أن أقصدها وأعالج منها سحب الماء ولكني خشيت أن يكون ذلك نابياً.

وفي هذه الحديقة دوحة من أشجار الصنوبر الوارفة الظل كانت تصطف الكراسي تحتها في أيام الصيف فيلجأ إليها عجاج ليكتب أو يقرأ ويستقبل عندها زواره من أهل الأدب، والسياسة، وستظل هذه الدوحة لو أتيح لها أن تروي، ستظل تروي الشيء الكثير مما فات التاريخ تسجيله من بحوث علمية، ومساجلات سياسية، ومباريات شعرية ونوادر اجتماعية كانت قد جرت تحتها مما يؤلف موسوعات نادرة أقول ستظل هذه الشجرة الباذخة تروي كل هذا إلى أبد الدهر وبدون انقطاع لو كان بوسعها أن تروي.

وتحت هذه الدوحة الفينانة كان يجمع بين زائريه ولو جاؤوا بغتة على مائدة الطعام التي تجعلها السيدة أم خلدون شهية طيبة بكثرة تنوعها وطالما تفيأت أنا ظل هذه الشجرة وطالما أكلت وشربت، وانتشيت بهذه المجالس الأدبية التي كثيراً ما كانت السيدة أم خلدون تشارك فيها، فهي شاعرة كما مرت الإشارة شاعرة موهوبة ولشعرها نكهة من طبيعة الشعر الرقيق المنسجم القادر على تصوير الأحاسيس تصويراً فنياً كله جاذبية وروعة.

ويسكن عجاج بيته هذا ويقصده عارفوه من جميع لبنان وممن يمر ببيروت من أهل العلم والسياسة والأدب لقضاء حاجة أو للسياحة أو الاصطياف حتى كاد لا يخلو بيته يوماً من زائر أو ضيف!!

والمؤسف كل الأسف أن تضطرني معالجة عيني للخروج من بغداد مستشفياً عند الطبيب الاختصاصي الشهير الدكتور عدنان الهلسة المقيم بعمان، والدكتور الهلسة من كبار

أطباء العيون وجراحتها كان رئيس قسم بكلية الطب من الجامعة الأميركية ومستشفاها ببيروت، وله تلامذة هم من خيرة أطباء العيون اليوم وأن كتبه لا تزال موضع مراجعة لطلاب طب العيون، وهو من (الهلسة) إحدى قبائل الأردن العريقة، وأنا مدين له بفضل لا ينسى.

وفي هذه الأثناء داهمتني عوارض قلبية وذبحة صدرية عنيفة، رجعت فيها إلى الدكتور (أوسكار) وهو من مشاهير الأطباء في أمراض القلب، والطبيب الأول بالمستشفى الإيطالي بعمان، وقد رأى أن أظل تحت معالجته ومراقبته، فحال كل هذا دوني ودون مراجعتي لمكتبتي ببغداد إذ أن فيها من كل شخص جرت بيني وبينه المراسلات اضبارة رسائل اعتمدها حين الكتابة عليه، ولي من عجاج اضبارتان مملوءتان بالتاريخ والأدب، ومشحونتان بالتجارب والوقائع، وقد تبلغ الرسالة الواحدة منها أربعين صفحة وأكثر وقد حدثت الفاجعة الكبرى عندي بوفاته، وصار علي بالرغم مني أن أعجل بتقديم طبع الجزء السابع من (هكذا عرفتهم) وليس تحت يدي هاتان الاضبارتان اللتان يتوقف عليهما هذا العرض الذي انتزعته مما هو مطبوع في ذهني أو مر تحت عيني مصادفة، ولا أنكر أن هناك أشتاتاً من هذا العرض كنت قد أوردتها عن عجاج وعن السيدة جمال (أم خلدون) في عرضي للمرحوم (فؤاد عباس) في الجزء الخامس، وقد عرض صيدح في هذا الجزء أعني (السابع) ولكن مثل هذه الأشتات لا تغني شيئاً عن تلك الصفحات من الرسائل التي تستحق الطبع وحدها في كتاب ضخم فيه ما يهم كل قارىء عربي خاصة والذي أعرفه أن عجاجاً بدأ في السنوات الأخيرة يحتفظ بصورة مما يكتب، ولا شك أن له اليوم برأس المتن خزانة من هذه الصور المستنسخة، ولكن وصولي إليها لقراءة ما يخصني أنا من رسائله في مثل هذا اليوم عسير إن لم يكن مستحيلاً وكل هذا أعزوه إلى سوء الحظ، سوء حظي أنا بالطبع.

لا أذكر السنة التي حظيت فيها برؤيته لأول مرة، ولكن ذلك كان في الستينات وأنا أنزل بفندق (فاروق) بسوق الغرب الذي اعتدت النزول فيه منذ سنين ولم أنقطع عنه إلا في سنة ١٩٨٢ سنة المصائب التي غزت فيها اسرائيل لبنان وأصاب هذا الفندق بعض الهدم من جراء قذف القنابل وأنا بين هؤلاء النزلاء والمصطافين نملأ البهو طلع علينا رجل ربعة مشرق الوجه في بشرة يمازجها اللون الوردي، وعينين تلمح فيهما بريق الذكاء والاستجلاء، ووقف في صدر هذا البهو الكبير وقفة تشعرك بأنك أمام شخصية لها وزن وقيمة، وليس هذا بالغريب إذ كثيراً ما دلت الملامح من الصورة على حقيقة الشخص والتعرف إليه، وسأل النادل عني، ولم أكن أعرف أنه عجاج نويهض لأني لم يسبق لي أن رأيت له صورة، وقد علمت بعد ذلك أنه كان كثيراً ما يتضايق من التصوير فلا يستجيب

دعوة أحد إليها إلا نادراً، وما هذه الصورة التي تتصدر هذه الكلمة إلا نسخة من صورة لجواز سفره، وقد سمعت بإسمي حتى شعرت بأن السماء قد خصتني بنعمة ما فوقها نعمة.. فهذا هو الذي كان ملتقاه عندي النعمة الكبرى لو كنا نستطيع أن نحدد معنى النعمة الكبرى، وأغلب الظن أنه تلقى خبر وجودي هنا من الأستاذ صبيح الغافقي من بغداد، وصبيح هذا من المع الصحافيين وقد قربته ملكته الصحافية من أهم الشخصيات في جميع الأقطار العربية، وصارت له اتصالات ومراسلات بينه وبينها كنا نراها مسطورة في أخبار جريدته (الحارس) وفي جريدة (الزمان) التي عمل فيها زمناً طويلاً.

وأنست به بل طربت، ولا يقدر أنسي وطربي إلا الذين حظوا بمقابلته والجلوس إليه وسبروا غور هذا الرجل العظيم من أحاديثه، وأسلوب نسجه لهذه الأحاديث، وقال أنه سيأتيني غداً صباحاً ليصطحبني إلى (رأس المتن) لأقضي هناك نهاراً كاملاً، ومن عادتي وأحسب أن أغلب الأصدقاء يعرفونها هي التملص من الدعوات الخاصة حذراً من أن أكون ثقلاً على أحد، وهذا ما دعاني إلى الاعتذار منه بشدة ولكن عجاجاً ليس بالرجل الذي يستطاع التفلت من بين يديه، ولم يذهب مني إلا وأنا مطيع لأمره منتظر مجيء (شهاب غزال) ليأخذني إليه، وشهاب غزال هذا هو صاحب سيارة التكسي الوحيدة برأس المتن، يستأجرها صاحب الحاجة الملحة لقضاء حوائجه بين رأس المتن وبيروت أو سائر المدن والدساكر، وكان قد جاء بعجاج إلي وانتظره وعاد به إلى رأس المتن، وأقسمت لعجاج بأني لا أتناول من الطعام إلا لوناً واحداً - وأنا صادق في قسمي - ومن العبث أن تكلف نفسك غير هذا فإن مثل ذلك فضلاً عن أنه سيزعجني فإنه ليس له شأن في زيادة قدرك عندي، ولكن طبيعة عجاج وطبيعة السيدة عقيلته تجعلك كأنك تكلم الشجر... في مثل هذه الأمور.

وجاءني في صباح اليوم التالي (شهاب غزال) وهو يقل عجاجاً من جديد !! فقلت له يا سيدي لقد كان الأمر مفوضاً (لشهاب) فمن الذي دعاك بأن تجشم نفسك العناء؟ قال أريد أن أطوف بك ببعض الدساكر والقرى وأريك أماكن تاريخية، كان لا بد لك أن تراها، وهكذا طاف بي، وهكذا، بعض المشاهد، ثم المواقع التي وقعت فيها حرب الستين بين الدروز والمسيحيين، وإذا بهذا الصدر يكتنز من التاريخ ما تعجز عن حمله بطون جيل كامل، والغريب أنك لا تسأل عن أحد إلا واطلعك على خفايا ذات أهمية تاريخية كبرى عنده، فتشعر هنا كم كانت الخسارة كبيرة بنهب اليهود لمكتبته وما جمع فيها من الوثائق والصور اليتيمة.

وقضينا بضع ساعات ونحن نتجول بين القرى والدساكر المسيحية والدرزية ووصلنا أخيراً إلى رأس المتن في نحو الساعة الثانية بعد الظهر حيث كانت الكراسي معدة تحت تلك

الدوحة الفينانة، وامتدت المائدة في نفس هذا المكان، وكانت مائدة تليق بصنف ارستقراطي غير صنفي إذ جمعت كل الأصناف من الأطعمة اللبنانية ولم يكن يعين السيدة أم خلدون غير (أم يوسف) وأم يوسف هذه من السويداء نشأت في بيت عجاج فصارت واحدة من أهل البيت، وحين اقتضى أن تذهب إلى أهلها لم تنس أم خلدون وكريماتها فكانت تجيء إلى رأس المتن ولا سيما إذا لزم الأمر وجودها، وحين مرض عجاج تركت (السويداء) وجاءت لتقوم بالواجبات المطلوبة، وقضيت نهاراً ما قضيت مثله من الأنهر طول العمر مخموراً بصحبة رجل من طراز خاص في سعة صدره من الحوادث التاريخية التي تخص العرب قديماً وحديثاً، وفي سعة صدره من حيث الحلم وطهارة النفس، والتعفف الذي يكاد ينفرد به بين جيلنا هذا فهو لا يذكر أحداً بسوء إلا إذا كان ذلك عن علم بسوء سريرته.

يقول الأب (انطوان ضو) «منذ ثلاثة أشهر تماماً زرته في منزل ابنته (الست نورا نويهض) في بيروت وأخبرته مفصلاً عن وثائق الهيئة العربية العليا في فلسطين واللجنة العربية المحفوظة في الأرشيف الإسرائيلي في القدس، وفي محفوظات وزارتي الخارجية الفرنسية والإيطالية في باريس وروما، وكيف أن هذه الوثائق تشير بوضوح إلى تقصير بعض الشخصيات الفلسطينية والعربية وسميت له الأسماء، وقرأت له الوثائق، وقد تعجب ولم يصدق ما سمع، فقال لي: ربما هناك دس وتزوير، رحمه الله، كان شريفاً طوال حياته إلى حد الكمال ومتنزهاً كأولياء الله وقديسيه، ولا يريد أن يصدق ما سمع وقرأ عن تقصير العرب في حق العروبة وفلسطين».

وعلى ذكر الوثائق فطالما رأيته يأسف ويصفق يداً بيد على ضياع ما خلف أمير البيان الأمير شكيب أرسلان فهو يعلم أن ما ترك الأمير أرسلان من الرسائل والوثائق والصور ما يملأ خزانة كبيرة من المكتبات فأين صارت هذه الوثائق، وحين كان يجيء ذكر الأمير أرسلان - وطالما كان يجيء - لعلو كعبه في مختلف الميادين السياسية والوطنية، والاجتماعية، والأدبية التي برزت فيها ملكات الأمير أرسلان وجهاده وتضحياته في سبيل الأمة العربية جمعاء كان عجاج يرسل الآهة تلو الآهة، والحسرة تلو الحسرة على ضياع ما ترك الأمير من الوثائق، حتى جئته ذات يوم وهو طريح الفراش فوجدته متهللاً أكثر من عادته وفرحاً كما لو كان قد أعطي الدنيا كلها، وقد بشرني بأن السيدة مي أرسلان وهي أم وليد جنبلاط ابنة الأمير شكيب أرسلان جاءت تعوده في مرضه وقد أخبرته بأن مخلفات أبيها الأمير من المخطوطات وغير المخطوطات والوثائق المهمة لم يضع شيء منها، ولكي تطمئن عليها رأت أن تهديها إلى جلالة الملك الحسن ملك المملكة المغربية لتكون جزءاً من مدخرات مكتبته الثمينة.

وألفت رجلاي طريق رأس المتن، والصحيح ألفت نفسي هذا الطريق في كل صيف أقضيه بسوق الغرب ذلك لأن لي عدداً من الأخوان أسخر سياراتهم فيوصلونني إلى بيت عجاج وينتظرونني إلى ماشاء الله وقد يتفق أن أصحب بعض الأخوان الذين يتشوقون لزيارة عجاج ممن يعرفه بالاسم ولم يره أو الذين يعرفونه ولم تتسن لهم زيارته، وكان الأستاذ سعيد مكارم والأستاذ مصباح الفيل مدير بريد سوق الغرب أكثر من كانوا يحملونني بسياراتهم، وقد صحبني غير مرة لبيت عجاج الدكتور بدوي طبانة ـ والدكتور شاهين الصليبي، والمحامي صاحب التواليف الكثيرة الأستاذ عبود الشالجي وغيرهم وكانت لنا تحت هذه الشجرة الباسقة مجالس شعر وأدب وتاريخ (يراجع بعضها في عرض لجورج صيدح في هذا الجزء) ومرة أخرى وأخرى أبدي أسفي لاستحالة وقوع يدي على الاضبارتين من رسائل عجاج اللتين تركتهما في مكتبي ببغداد وأن (جميع الصيد في باطن الفرا) كما يقولون ففي هاتين الاضبارتين الكثير من رد الأشياء الى أصولها وتصحيح ما هو شائع بين الناس عن بعض الرجال أو تفنيد هذا الشياع، والتعريف بالكثير من الأبطال الذين جنى تواضعهم عليهم أو جنى المغرضون عليهم فضاعت جهودهم في خدمة الأمة وخمل ذكرهم فكأنهم ما عملوا شيئاً.

وكلما تقربت أكثر من عجاج انكشف إلي أمور تكاد لا تصدق عن دماثة خلق هذا الرجل، ولين عريكته إلى جانب هذا الكنز من ذخائر المعرفة التي تحس بها وتلمسها عند أول ملتقى لك به:

وهو مع أولاده ترب من أترابهم، وند من أندادهم وطفل من أمثالهم يشاركهم في لعبهم كواحد منهم، حتى إذا كبروا كان صديقاً لهم يعززهم ويكرمهم، وفي أيام طفولتهم كانت هناك أغنية فرنسية عذبة اللحن قد ذاعت وانتشرت حتى صار كل الأطفال يغنونها في الغالب، فحولها عجاج إلى العربية بنفس لحنها وعلى طريقة خاصة من طرق التوشيح في علم (البديع) وتقول السيدة نورا عن أبيها (أنه كان ينظم لنا تلك الأشعار لتناسب ألحاناً فلوكلورية عربية معروفة فنحفظها أنا، وسوسن، وبيان ونغنيها في السهرات فيطرب بها أشد الطرب ويقول بما هو معروف من تواضعه الجم: أن أطواتكن، وجمال اللحن ليجملان أشعاري هذه.

وقد عثرت على بعض أغانيه التي كان يغنيها أولاده في الصغر محافظاً في نظمها على لحنها الفولكلوري الذي يقول فيه.

وعـــــدتـــــي بلقـــــاء ألا وعـــــــــــد؟
قيـــــدتنـــــي بعهـــــود ألا عهـــــــــد؟

فلمــــــاذا صــــار قلبــــــي لا أراه وســـــــط جنبـــــــي
أين قلبي راح ؟
وشكـــــاهـــــا لي نسيـــــم روحــــــــــــه الورد
قـــــال لا تـــــرجـــــو وروداً يصعـــــــــــب الورد
طـــــالما قلـــــت ســـــأقضي هكـــــذا شـــــاء فـــــأمضي
قمر سفّاح
راح قلبي راح

وتقول الست (نورا): «أني أراجع هذه الأشعار وأبكي، وأحاول ترنيمها كما كنت أفعل في الصغر فيتجمد الصوت في الحلق، ولربما في المستقبل القريب، وحين أحتضن حفيدتي ابنة السنتين يذيب حبها هذه الغصات فيخرج الشعر واللحن جميلين صافيين كما كان رحمه الله يحب أن يسمعهما منا...»

وعجاج بعد هذا يذوب في نفوس أولاده الأطفال ويشاركهم في ألعابهم ولا تقتصر مشاركته على تنظيم اللعب وتنسيق الأناشيد والألحان الموسيقية.

ولقد روى الراوون أن أحد ملوك فرنسا من آل (بوربون)[1] كان ذات يوم قد وطأ ظهره لأطفاله، وحملهم على ظهره وبدأ يطوف بهم على أربع في الصالون إذ دخل عليه رئيس التشريفات ليخبره بأن سفير بريطانيا[2] قد حضر حسب الموعد، فما الذي يأمر جلالته؟ قال: اذهب إليه وسله هل عنده أطفال، وذهب رئيس التشريفات إلى غرفة الانتظار وعاد يقول أن له أربعة أولاد، قال الملك إذن دعه يدخل، فوجم رئيس التشريفات ووقف مدهوشاً، فصرخ به الملك قائلاً دعه يدخل، قال وأنت في مثل هذه الحالة يمتطي ظهرك أولادك...؟! قال أجل.

ودخل السفير ولم يندهش، ولم يستغرب، ولماذا هذه الدهشة والاستغراب فإنه هو نفسه - أي السفير - وغيره من يعملون مثل هذا وأكثر منه.

ومع ذلك لا يعمله إلا الذين عرفوا بسمو العاطفة، ورقة الشعور، وأشهد أن مثل هذه العاطفة ورقة الشعور ورهافة الحس قد جعلت منزلة عجاج في الضراح والأرفع لا من حيث عاطفته نحو أولاده فحسب وإنما نحو جميع من يشعر بخيبته في حياته، وظلامته بين الناس.

(١) (آل بوربون) BOURBON أسرة ملوك فرنسا من سلالة لويس التي تفرعت منها أسر ملوك اسبانيا وصقلية وبارما (العزيزي)
(٢) سفير اسبانيا (العزيزي)

ولم يكن عجاج وحده الذي ينظم الأشعار لأولاده ليسد بها حاجاتهم إلى المرح وتفتح النفس وإنما كانت السيدة أم خلدون على هذه الوتيرة، فها-هي ذه تأخذ لحن الأغنية المشهورة (oh Susanna) فتنظم على نسقها لأولادها وتدعهم يحفظونها ويلتهون بغنائها بدلاً من السفاسف التي كانت رائجة في أفواه الأولاد ولا تزال حتى اليوم يلهج بها أطفالنا ولم يحصل من يحولها لهم إلى كلمات عذبة ذات معان ومغاز وأفكار شعرية.

وهذه إحدى تلك الأغاني التي وضعتها السيدة جمال سليم نويهض في (سوزنا) المشهورة.

إليــــك ســـــوزنــــا المسيـــــر	مــــن مــــوطنـــي النـــــائـــــي
في الليــــــل أمشي والهجيــــــر	إليـــــــــك اسرائـــــــــي
أواه ســــــــــوزنــــــــــا	قــــــد شفنـــــي دائـــــي
قيـــدت قلبـــي كـــــالأسيـــــر	ورميــــــت أقصـــــائـــــي

***

سمعـــــت ســــوزنــــا تقـــــول	في مسمــــــــع النهـــــــر
هـــذا الفتـــى يبغـــي الوصـــول	للأنجــــــــم الزهـــــــر
فقلــــــت ســــــوزنــــــا	أواه يـــــــا بـــــــدري
النجـــــم في فلـــــك يـــــدور	وأنــــــــت في فكـــــــري

والذي أعرفه من أخبار عجاج أن له شعراً جيداً ولكني لم أطلع عليه لأنه هو نفسه لم يرد أن يشتهر بالشعر كاشتهاره بالنثر، ولكن شعره هذا لا بد أن يكون نماذج منه دفينه في مذكراته التي نهبت في القدس سنة ١٩٤٨ أو هي مذكرة في مذكراته الأخيرة، وإن لم يشأ أن ينشرها.

وتقول السيدة «أم خلدون» «أن الأغاني التي كانت تغنى عائلياً والتي ألفها عجاج لبناته وبنات أختي (عائدة) و(بوران) وشاركنا بها سنة ١٩٥٣ وكن جميعاً شابات عدا (جنان) كانت كبيرة وكان يؤلف لنا كثيراً من الأحاجي الطريفة بقصد التسلية والتسرية، كما ألف الكثير من الأحاجي التي كان يذيعها من إذاعة القدس في برنامج خاص وأذكر من هذه الأحاجي أحجية تقول:

«رأس مجنون، حركاته فنون، يصافح الأقدام، ومسه باليد حرام» وهو يريد به الكرة (الفوتبول) ويقول في الكاميرة ليجعل منها أحجية «إذا رأتك حيناً شهدت عليك في كل حين» أو يقول في أحجيته مثلاً «ما اسم مدينة في رأس حيوان» وهو يريد بها «الخرطوم».

وكانت المدارس في أشد الحاجة يوم ذلك إلى قطع شعرية يغني بها الأطفال لتحل محل هذه الأغاني النابية المنشرة في الأوساط فكان من أوائل ما فكر فيه عجاج كان هذا الغناء الذي تبحث عنه المدارس لتلقنه لأولادها فلم تعثر منه إلا على القليل فكان يتلوه على أولاده ثم يأتي به في برنامج خاص من الإذاعة من قبيل أناشيده التي كان منها مطلع أنشودة رمضان:

«رمضان أقبل بالهدى وهلاله الفضي لاح
وبلال أذن فيه حي على الصلاة على الفلاح»

ويبدو لي أن هذا النوع مما كان يسد به النقص الحاصل في تنشئة الأطفال وتهذيب أخلاقهم ولغتهم كان كثيراً ولكنه نهب مع ما نهب لعجاج حين هرب من القدس سنة ١٩٤٨.

ولقد وجدت في مجموعة للسيدة (سوسن) عقيلة الأستاذ الوجيه العجلوني قطعة من هذا الشعر المنظوم للأطفال الذي يصور (ماري) وهي صبية مولعة بحمل يتبعها أينما ذهبت وقد لحق بها ذات يوم إلى المدرسة فضحك الطلاب والطالبات من دخول الحمل إلى مدرستهم ويقول عجاج:

كان (لماري) حمل من أجمل الحملان
مثل الحرير صوفه كان اسمه (يقظان)
شبه الهلال قرنه باهى به الغزلان
تطعمه من خبزها من مائها ريان
إن خرجت للعب أو بركة البستان
جرى جرى يتبعها كالعاشق الولهان
يصحبها كظلها يهتز كالنشوان
وذات يوم خرجت وتربها يقظان
ولحت مدرسة تنور الأذهان
لما أطلت فجأة تضاحك الصبيان
فقد رأوا وراءها رفيقها (يقظان)
كطالب قد جاءهم ما أضحك الفتيان
فاحمرّ منها خدها تحار في التبيان
قالت لعمري صاحبي قد ارتقى إنسان
فجاءكم لا أمره سهو ولا نسيان
بل جاءكم يخبركم ذا مبتدأ نيسان

كما وجدت في مجموعة السيدة (سوسن) تصوير لخيال الطفل الساذج وأوهامه وما قد يمر على باله من المزعجات في أثناء وحدته أو في أثناء منامه فيقول:

قيس وليـــد، زهـــرة البيـــت طفـــل صغيـــر زانـــه اللـــه
(بسكوتـه) معجـونـة بـالـزيـت في مهـــده واللـــه يـــرعـــاه

***

(قيس) بكـــى إذ أمـــه غـــابـــت والبيـــت مـــن سكـــانـــه الفـــار
لا أمـــه لما بكـــى عـــادت لا جـــارة جـــاءت ولا جـــار

***

في نـــومـــه قيس رأى حلمـــاً حـــربـــاً رأى قـــامـــت رأى جنـــداً
حلـــم خفيـــف يسلـــب النـــومـــا فـــار، بحلـــق القطـــة الســـودا

***

ومن هذا القبيل طيف الحبيبة وتلمس البراءة في قوله: «في قتلها ما خشيت، في زورة تخشى العزول؟ «إذ يقول في هذه المقطوعة»:

يـــا طيفهـــا مـــا تبتغـــي تسري وقـــد طـــال السرى
هـــاجـــرة وطيفهـــا يـــزور في وقـــت الكـــرى

***

أأنـــت منهـــا مـــرســـل أم جئـــت سراً في خفـــاء
إن كنـــت مثلي عنـــدهـــا فـــالطيـــف مثلي في عنـــاء

***

أكلمـــا بـــادلتهـــا عتبـــي، شكـــت عيـــن الرقيـــب
أكلمـــا استنجـــزتهـــا قـــالـــت: رويـــداً عـــن قـــريـــب

***

يـــا طيفهـــا عُـــدْ قـــل لهـــا ســـواك مـــالي مـــن رســـول
في قتلهـــا مـــا خشيـــت، في زورة تخشى العـــــذول؟

وعجاج رجل وصول، وفي، يتفقد الصديق تفقده لآله وأكثر، وكثيراً ما كان يستبطيني حين أكون بسوق الغرب فيجيء إلي ويأخذني لرأس المتن لأقضي هناك يوماً كاملاً، ومن عادته أن يمر ببيوت أصدقائه زائراً ومتفقداً أو عائداً، كما يستجيب لدعوات

المؤتمرات الوطنية وحضور المحاضرات العلمية والأدبية، وقد دعي لحضور أحد المؤتمرات في الجزائر فألقى محاضرة نفيسة بهذه المناسبة وجاء من هناك بالشيء الكثير من الوصف لبيئة الجزائر وخصائصها والأحوال العامة عند السكان وأذكر أنه قال لي أن السحنة العامة الدالة على الكآبة عند الجزائريين هي لأنه قل وجود أسرة في الجزائر دون أن يكون لها شهيد في حركة الاستقلال وهذا ما ترك الوجوه عابسة هناك.. وقد خالفته أنا في الرأي لا من حيث كثرة شهداء الجزائر فالمعروف أنها قد فقدت نحو مليون شهيد في حرب الاستقلال وإنما خالفته لأن هذا ليس هو السبب في هذه السحنة الكئيبة وإنما هناك أسباب يرجع إليها تكوين الصورة عند الشعوب ويجب أن نبحث عنها بحثنا عن سواد اللون وفطاسة الأنوف عند الزنوج وصفرة الوجوه وانبساطها عند الصينيين وغير ذلك إذا أردنا أن نقف على بعض الميسور من العلل، ويبدو لي أنه آمن برأيي وسكت.

عجاج وصهره زهير العجلوني في أحد المتنزهات ومعهما شهاب غزال.

ودعي إلى مهرجان بغداد والكندي ببغداد وألقى محاضرة هي الأخرى كانت من أنفس المحاضرات وأحسنها وقعاً في نفوس المحاضرين وقد تناول فيها واقع العرب وقضية فلسطين واستعرض في محاضرته هذه أموراً لم يتخصص بها غيره، وقد أقمت له بداري حفلة عشاء لتكريمه وكان ممن شارك فيها الشاعر الكبير محمد عبد الغني حسن، والمرحوم الأديب المؤرخ الفولكلوري عبد القادر العياش، وحضرها من وجوه أهل العلم والأدب المرحوم الدكتور مصطفى جواد والمرحوم الدكتور أحمد نسيم سوسة، والمرحوم فؤاد عباس، والدكتور علي الوردي، والأستاذ صبيح الغافقي، والدكتور عبد المجيد القصاب، والدكتور صفاء خلوصي، وغيرهم ممن نسيت ذكرهم، كما أقام له الأستاذ محمد عبد الغني حسن والعياش، والمحامي البحاثة هلال ناجي حفلة عشاء كبيرة في بيته وإلى هذا يشير الأستاذ محمد عبد الغني حسن في القصيدة التي رثى فيها عجاجاً بقوله:

ولقد ذكرتك يوم بغداد وقد بذل الوداد لنا بها أخوان
من كل ساق (كناجي) في الندى أو (جعفر) فخوانهم ملآن

ولعجاج مما ترك من مخطوطات ووثائق ومذكرات وتسجيل وقائع مما نشر في الصحف والمجلات أو كما حاضر به في الندوات سواء في القدس أو عمان وبيروت، ومما لم ينشر بعد ما يعادل مائة مجلد ضخمة لو أتيح لجامع أن يجمعها، ومن المؤسف أن لا يظهر منها إلا جزء صغير إلى حيز الطبع كان من هذا الجزء ترجمته (لحاضر العالم الإسلامي) في أربع مجلدات، و(بروتوكولات حكماء صهيون ونفاق اليهود) في ثلاثة أجزاء بمجلدتين، و(رجال من فلسطين) الذي كان قد صدر له وهو مسجى على فراش مرضه الأخير، ورسالة عن (أبي جعفر المنصور) وأخرى عن (القدس) و(حديث الإذاعة) (والتنوخي الأمير جمال الدين عبد الله)، و(الشيخ محمد أبو هلال المعروف بالشيخ الفضال) وترجم (النظام السياسي) و(العراق والدولة الجديدة) على ما ذكر الأب أنطوان ضو عن الكتب الثلاثة الأخيرة التي لم يكتب لي أن أقرأها، وقد علمت أنه كان يسجل في أيامه الأخيرة وهو فوق السرير مذكراته على الشريط ثم تجيء كريمته الدكتورة بيان فتنقل ما قد كان مسجلاً على الورق، وأن هذه المذكرات معدة للطبع كما علمت.

وعجاج خطيب مِصْقَعٌ إلى جانب ثقافته الحقوقية والعلمية والأدبية يعرف المناسبة التي تستدعي الحماسة في الكلام، والهدوء والملاينة، وما ينبغي أن تضم الخطابة من المعنى وما تقتضي كل خطابة من الوقت بحيث لا يزيد الخطاب على الحاجة ولا ينقص عنها، وأحسب أن هذه المبادىء قد تعلمها وأتقنها في السنة الأولى من الثانوية (ببرمانا) قبل أن يلتحق بثانوية (سوق الغرب) فقد ورد في رسالة إعجاب كتبها إلى العلامة روكس العزيزي - الذي كان قد كتب على تولتسوي - رسالة شائعة نفيسة وعثرت عليها من باب المصادفة:

يقول عجاج فيما:

«... أذكر أني لما كنت أول سنة من دراستي الداخلية في (برمانا) وذلك سنة ١٩١٢ كانت في المدرسة جمعية أدبية للصفوف العالية يتمرنون فيها على الخطابة وآدابها من جميع الوجوه، وكانت الجمعية برياسة الأستاذ الأول في المدرسة وهو نجيب شمعون من دير القمر رحمه الله، فقد كان فاضلاً جداً، ولم تشتد آصرة بين معلم وتلميذه اشتداد الاصرة بيني وبينه، وقد كانت الجمعية تعقد جلساتها أسبوعياً مساء السبت، وهي دائماً برياسة الأستاذ شمعون (المعلم الأول) بعد الرئيس الانجليزي (مستر فوكس) وللرئيس نائب يجلس إلى يمينه، ولم يتغيب الرئيس ولا مرة عن الجلسات، ويعين في كل جلسة خطابية (ناقد) ينقد كل خطيب بعد الفراغ من إلقاء خطبته، وينقده من جميع وجوه النقد، لغة، وفن إلقاء، وإشارات وصوتاً، إلى آخر ما يقبل النقد الخطابي من الإحاطة الكاملة، وبعد هذا يدلي الأستاذ شمعون برأيه الحاسم، إقراراً وتعديلاً، وتصويباً وتخطئة، ذلك لأن الغرض هو اتقان فن الخطابة وكان انتخاب (الناقد) في كل جلسة أهم من الخطباء المعينين تلك الليلة للخطابة.

ويقول عجاج في هذه الرسالة: «جئت أروي لكم هذا لا من قبيل التذكر لأمور مدرسية أيام التلمذة وإنما أقصد من ذلك أن أقول لسيادة الأخ الحبيب أن قصيدة (شوقي) في رثاء (تولستوي) كانت موضوعاً للمناقشة، وكأني عدت الساعة إلى تلك الليلة أصغي إلى أحد الطلاب وهو يلقي قصيدة (شوقي) في رثاء تولستوي بتمامها، فسبحانه تعالى في خلقه».

وبالإجمال فإن عجاجاً كان من النوابغ الأفذاذ في الكثير من أوجه الثقافة، وقد قال في وصفه الكثير ممن يزنون الرجال ويقدرون قيمهم في حياتهم ومماتهم، أما عجاج فلم يستوف حقه من التعريف الكامل في الشعر والنثر فقد توفاه الله ولبنان في أشد حال مما لم يشاهد بلد مثله في أوقات الشدة سواء في الحرب العظمى الأولى أو الثانية فضاع خبر وفاته، ولم يدر به إلا القليل حتى أنا الذي كنت قريباً منه في المكان كنت أبعد ما أكون منه معرفة بحاله، فما حال من كان بعيداً عن لبنان، ومع ذلك فقد قرأت ضمن مقروءاتي في جريدة (النهار) البيروتية كلمة (الأب أنطوان ضو) الذي كان قد زار عجاجاً قبل وفاته بثلاثة شهور وأمسك بيده بالرغم من محاولة سحب عجاج لها، وقبلها وقال له لقد اطلعت على أرشيف جميع من عملوا بفلسطين في الحركة الوطنية وكم يسرني أن أجد اضبارتك هي الإضبارة الوحيدة التي لم تشبها أية شائبة من الشكوك والطعن والتهم بين مئات الأضابير التي قلبتها بنفسي، وملخص كلام الأب أنطوان ضو في تعريف عجاج:

«عجاج نويهض لبناني أصيل، ابن الجبل الأشم، والأخلاق العالية، دستور عيش الإنسان في مراحل حياته الخاصة والعامة، إنه الكريم المتواضع، الوفي، المؤمن يكره كل أنواع التعصب، كما يرفض الملحدين والذين لا يعيرون تعاليم الدين الحقيقي الاحترام والإكرام.

أمضى حياته لخدمة القضية الفلسطينية، فهو رسولها، والمناضل في سبيلها حتى الشهادة، وعندما يكتب تاريخ المناضلين الفلسطينيين في عهد الانتداب البريطاني ومن النكبة إلى اليوم، سيكون عجاج نويهض اللبناني من بين أشرفهم وأصدقهم.

كان صادقاً في عمله الفلسطيني إلى حد الطوبائية، وكان يعتقد أن العربي عامة والفلسطيني خاصة لا يمكن أن يقصر في واجبه تجاه فلسطين والعروبة، وأن علة العلل هي الاستعمار والصهيونية فقط».

ثم يضيف الأب ضو قائلاً ـ «أرخ لفلسطين، وكتب التعليقات السياسية وخطب وألهب حماسة الجماهير، وشرح مخاطر الصهيونية ليس على فلسطين وحدها بل على العرب والعالم، ودافع عن الحقوق العربية الفلسطينية بالحجة المقنعة، ولم يترك وسيلة فكرية شريفة إلا استعملها دفاعاً عن فلسطين وعن العروبة».

جريدة النهار ـ بيروت في ١٩٨٢/٧/٤

***

وملخص قول الأستاذ وديع فلسطين الكاتب العبقري المجدد في عجاج وقد كان يشد بعضهما البعض الأدب الرفيع والوفاء، والمحبة يقول:

«عجاج أستاذي الأعظم وهو العلامة الفذ فخر أمته إلى آخر الدهر، وكنت لفرط إعجابي بهذا الرجل الباذخ الفضل، ولتقديسي لشخصه النبيل أطرد فكرة الموت عنه، وأطمئن النفس بأنه خالد بيننا، ولكن كيف لمثله حتى وان احتمل وهن الجسد أن يتحمل هذه المحنة الملهمة التي نزلت بساحة أمته (يريد بها مصيبة لبنان) ففضحت بلادتها، وخذلانها وهزالها، وخواءها ومواتها، وبرهنت للدنيا جميعاً على أنها ليست خير أمة أخرجت للناس.

وإني لا أعد وفاة عجاج في هذه الظروف الشائعة إلا استشهاداً يحاكي استشهاد الصناديد من أبطال فلسطين الذين ماتوا بشرف وكبرياء، ورفضوا ذل الخنوع أمام البربرية الصهيونية الغاشمة، لقد كان عجاج وطنياً عظيماً حتى في موته فصحّ فيه قول

الشاعر شوقي:

اختـــرت يـــوم الهـــول يـــوم وداع ونعـاك في عصـف الريــاح النـــاعـــي

ولقد حزنت حزناً قاتلاً عندما أتاني نبأ رحيل عجاج، وهو الذي كان أمة بأسرها، بل كان جامعة عربية صحيحة نقية لانشغاله الدائم بهموم قومه وآمالهم، ولقد كان لي عجاج أباً روحياً، يحتشد دائماً للعناية بي، ويخصني فوق وداده ومحبته نصائحه الغالية، ويثريني بتجاربه الغنية التي حصلها في عمر زاخر بكبار الأعمال، وكرام المفاخر، أما مكانه في أمة العرب، فليس يملؤه أحد، لأنه من طبقة الأفغاني، ومحمد عبده، والكواكبي، وشكيب أرسلان، واضرابهم من قمم العلم، والفكر، والتجديد، فلقد كان - رحمه الله - من أعلم علماء قومه، وأوسعهم إحاطة بالمعارف، وأكثرهم استنارة وبصراً وأعمقهم فكراً، وأبعدهم نظراً، وأرصنهم رأياً، وأبلغهم قلماً، وأشدهم تواضعاً، فلله دره لقد اجتمعت فيه الفضائل جميعاً فكان واحداً بمقام ألف من الرجال»

مجلة (الثقافة) المصرية - وجريدة (الدستور) الأردنية ١٩٨٢/١٠/٨

***

ويقول الأستاذ شفيق الحوت الوطني الكاتب الأديب اللامع في مقدمته لكتاب عجاج نويهض (رجال فلسطين) «ومن عرف أبا خلدون - كنية عجاج الحقيقية - عن قرب وقضى معه ولو بضع ساعات في ظلال صنوبرات منزله العتيق الرابض كالصقر منذ مئة عام تقريباً على قمة (رأس المتن) مطلاً على وادي (لامرتين) الساحر لاكتشف فيه من الصفات، والخصال ما قد يصعب اكتشافها من صوره المعروفة: كمؤرخ مدقق، وبحاثة غواص، وخطيب تنحني له المنابر، ويستحيل اكتشافها من صورته كموظف مسؤول احتار معظم من عملوا معه فيما إذا كانت ساعة (بك بن) أو مواعيد دوامه هي الأكثر دقة»

من مقدمة لكتاب (رجال من فلسطين)

***

وملخص ما جاء في قصيدة شاعر الأهرام الكبير وعضو مجمع اللغة المعاصر بمصر الأستاذ الجليل محمد عبد الغني حسن قوله:

أأبـا (بيـان) هـل لـديـك بيـان؟ عـــيّ اللســـان، وصمـــت الآذان
منعـاك مرّ... فمـا أحس بـوقعـه نفـــر، ولا ضجـــت لـــه أقـــران
مـن مـات يـوم الحشر لم تهتف بـه شفـة، ولـم يفطـــن إليـــه لســـان
هـذا جهـادك في العـروبـة لـم تـزل بجلالـــه تتحـــدث الأوطـــان

هذا يراعك لم يزل متدفقاً | فكأنه في فيضه طوفان
والله ما أودى بسحر بيانه | وقر، ولا أضنى عليه زمان
ما زال يأتلق البريق بمائه | ويزينه الإشراق واللمعان
ينساب في الآذان سحراً ذائباً | تروي به وتشنف الآذان

مجلة (الثقافة) ـ القاهرة ـ سبتمبر ١٩٨٢

***

ومما لخصته ما عثرت عليه في قراءتي كلمة للعلامة البحاثة الأستاذ روكس بن زائد العزيزي يقول فيها «... إذا عد العلماء العاملون كان عجاج منهم في الطليعة وأن حسب المجاهدون المناضلون الذين أصابهم النفي، والتشريد، كان هو في المقدمة وإذا ذكر الأخوان الأصفياء كان في الصفوة المنتقاة، وكان أول من نبه على غدر الصهيونية وخطرها في كتابه: (بروتوكولات حكماء صهيون) حتى قيل عنه (لا يحق لأحد يشتغل في السياسة في هذه الحقبة من تاريخ الشرق الأدنى إن لم يقرأ كتاب الباحث العلامة عجاج نويهض) ولقد كان عجاج فخراً لكل عمل زاوله، وكان أميناً في كل منصب تولاه...».

مجلة (أفكار) الأردنية ـ أيلول ١٩٨٢

وقد قرأت قصيدة للأستاذ عبد الهادي كامل يرثي فيها عجاجاً رأيت أن أقتطف منها هنا بعض ما جاء عن عجاج إذ يقول الشاعر:

عزاء لنا نحن الجميع وأهله | بعلم غدا تحت التراب مطوحا
بكنز من الأدب والعلم والحجى | فضم الثرى أعلى الكنوز وأرجحا
عرفناه أستاذاً، أديباً، وكاتباً | عرفناه فكراً ثاقباً ثم مصلحا

مجلة (أفكار) الأردنية ـ أيلول ١٩٨٢

****

ولا بد أن تكون هناك آراء في عجاج لم تقع في طريقي عفواً كما وقعت هذه الآراء ولو كان عجاج قد توفي في غير هذا الظرف العصيب والمحنة الكبرى التي حلت بلبنان لكان للأدب في وفاة عجاج بعض العزاء فيما كنا نسمع من آراء صادقة بعيدة عن المجاملة والأقوال المألوفة في مثل هذه المناسبات كما توفي في هذه الظروف رجال لهم أهميتهم في عالم الشعر مثل الشاعر (أمين نخلة) وعالم التاريخ مثل (جواد بولس) وفي عالم البحث والترجمة مثل (يوسف أسعد داغر) ولم أسمع عنهم ولا كلمة لأن الله قد استأثر بأرواحهم

ولبنان كان يحتضر وعلى وشك أن تمحى خارطته نهائياً من وجه الدنيا.

***

وتقول السيدة الكاتبة الصحافية نورا نويهض عن أبيها عرضاً وبدون قصد لتعريفه، «أن والدي رحمه الله، وأسكنه فسيح جنانه، كان بارع النكتة لا يفوته ايرادها حتى على نفسه، وكان كبير القلب احتمينا به طوال أعمارنا نحن أولاده معتزين بحنانه، وكان نزيهاً، عفيفاً في كل تصرفاته ومعاملاته الخاصة والعامة، وكان في منتهى السلم من الكرم في حالة الثراء والفقر، كان كريماً بنفسه، وكريماً بماله وبما يملك من حطام الدنيا».

وفي سنة ١٩٧٩ بدأت الإنذارات الصحية تنذر باعتلال صحته وبدأت تقل شهية الأكل عنده، ويقل إقباله على النوم، وصار يحس بالضعف والخدر الأمر الذي دعاه إلى النزول من رأس المتن إلى بيروت لمراجعة الأطباء وإجراء الفحوص، ومنذ هذه السنة لم ينقطع عن استعمال الأدوية والعقاقير، وكم مرة خفت شكواه حتى ظن أنه برىء مما كان يشكو، وكم مرة اشتدت به العوارض حتى أرغمته على دخول المستشفى، وكنت أزوره في دار كريمته الكبرى الست نورا ببيروت التي تغلبت عليها كنيتها (أم عمر) مع أن عمر ليس ابنها البكر، وإنما اسم ابنها البكر (مكرم) وهو نعم الابن لا يؤخره عن أخوته شيء من الصفات الغر، ثم أزوره في المستشفى حين تشتد حالته، ومرة نقل إلى مستشفى (الشبانة) بالقرب من (حمانا) فزرته هناك، وكنت في كل زياراتي أتوسم بسبب انطلاق بشرته وحسن استقباله الخير واستبعد كل قلق وخوف عليه، فقد كان رحمه الله في سقمه كما هو في صحته صاحب نكتة، وبراعة في صياغة الحديث المليء بالجاذبية، ولا غرابة فقد كانت كل خطبه ومحاضراته، مرتجلة يتلوها عن ظهر قلب ويطعمها بالكثيرمن الذكريات، ولولا وصية الأطباء بوجوب التوقي من كثرة التحدث إليه لظللت ألازمه في المستشفى طول النهار.

ويبدو أن عدم الاستقرار وانقباض النفوس في هذا البيت الذي كانت فيه ضحكات أهل الأدب والمعرفة تبلغ عنان السماء بدأ يعكر الجو، فقد مرضت السيدة أم خلدون، وصار عليها إجراء عملية استئصال المرارة من الكبد، فكان لابد من الانتقال من رأس المتن إلى بيروت، ولابد أن يكون لأبوي خلدون سريران من أسرة المرضى متجاوران في حال المرض وفي دور النقاهة النسبية، وفي هذه الأثناء دخل الأستاذ نصري سليم وهو آخر من بقي من أشقاء السيدة أم خلدون في الحياة، ولقد دخل المستشفى مستشفياً وتوفاه الله ببيروت، فاشتدت سحابة الحزن والانقباض تماسكاً في هذا البيت، ولم تمر الأيام حتى فجع هذا البيت بمفاجأة ما كانت بالحسبان إذ استأثرت رحمة الله بروح الأستاذ علي

نويهض، شقيق المرحوم عجاج نويهض، وقد مر ذكره هنا فقد كان أحد خريجي الجامعة الأميركية ببيروت، وكان عالماً باحثاً دمث الأخلاق وترك هو والأستاذ نصري سليم حزناً عميقاً في قلوب سكان هذا البيت.

وبدأ عجاج يحس ويلمس الموت في كل جارحة في نفسه، وأدرك أنه إن لم يمت اليوم فسيموت غداً أو بعد غد بالرغم من هذا الذهن المتوقد الذي لم تخب ناره حتى في أشد ساعات المرض، فلقد كان من القليلين الذين ظلوا يحتفظون بذاكرتهم إلى آخر الساعة أو قبيلها ويتحدث بدون ملل أو كلل قبل وفاته بمدة قصيرة.

أقول لقد أدرك قرب مغادرته دار الدنيا فأمر بأن يعد ضريحه في وسط الحديقة منذ الآن وكان ذلك قبل وفاته بأكثر من سنة، فكان له ما أراد، وقد قام الضريح في المكان الذي خططه وإلى مقربة من ذلك المجلس الذي كان يجلس فيه للناس في المواسم المناسبة وفي الصيف خاصة تحت تلك الصنوبرة الوافرة الظل التي طالما اهتزت غصونها طرباً لما تسمع مما كان يجري تحتها من مناقشات أدبية، وقضايا تاريخية، وقصائد أشعار من الانجليزية والعربية، وتعليقات على ما كان يصدر من الكتب الحديثة ودواوين الشعر.

وجالت في ذهنه فكرة الرثاء ذات ليلة من ليالي الشتاء، وهم بأن يرثي نفسه وشرع فعلاً بالنظم، وكتب بعض الأبيات وسجل بضع القوافي وزوجه إلى جانبه ترى عمله هذا وتبكي وتخفي عنه دموعها، وهنا سألت نفسها لم لا ترثيه هي وهو لم يزل في قيد الحياة بعد؟ إذ من يدري أن لا تكون هي قد ماتت قبله ـ حفظها الله ـ ولم تقل فيه بعض ما تعرف، وهكذا استعدت قريحتها لأن تقول في زوجها ما كان مرتسماً عنه في ذهنها، وفي ليلة أخرى من ليالي الشتاء الباردة من سنة ١٩٨٢ وهي السنة التي توفي فيها قرأت عليه قصيدتها، فأحست بارتياحه، وتقبله منها هذا الشعر الذي صورت فيه رأيها عنه، ومد يده إلى ما كان قد نظمه في رثاء نفسه ومزقه مع كل أسف.

وقدمت السيدة أم خلدون قصيدتها بهذه الكلمة أثبتها هنا مع القصيدة إذ تقول:

«مهداة إلى رفيقي في الدرب وقد قلتها في حياته وهو على فراشه في مرضه الأخير لأني خشيت انقضاء حياتي قبل أن أتم واجبي نحوه فرثيته كما لو كان قد توفي قبلي وبقيت أنا وكان نظمها قبل وفاته بسنة أي في ١٩٨١.

أرثيك قبل الموت وهو معجل … آت إلينا والحياة تنادي
وهي التي أم وترأم ولدها … تحنو على الأبناء والأحفاد
لكنها بنت الممات وأخته … وأمينة السر الخفي البادي
تبكي وتضحك للبنين فموت ذا … كحياة ذا والموت كالميلاد

***

أرفيق دربي دربنا مرسومة   نمشي إليها بالخطى المتهادي
فأقبل معي ندع الشقاء وراءنا   لا تبتئس فالموت نسوم هادي
إن مت قبلك يا رفيقي لا تقل   راحت وخلتني حبيس وسادي
فالموت إن وافى فلست ترده   وهو الرسول يجيء في الميعاد

***

لا تشك ضعفاً إن ضعفك طارىء   فالقلب مشدود إلى أوتاد
أنت القوي وإن وضعت مفاصلاً   فالروح تقوى في ضنى الأجساد
الروح جوهرة تضيء على الدنى   والجسم بيت غلافها المعتاد
تزداد نوراً إذ تفارق بيتها   وتشع في الأجيال والآباد
الروح مسك فوق مبخرة وما   أجسامنا إلا هباء رماد
الروح تحيي من جهاد خالد   وحياة أوطان وصدق مبادي

***

يكفيك من دنياك انك واحد   ممن بنى الأوطان بالأمجاد
جاهدت بالأرقام كالأبطال في   ساح النضال فكان خير جهاد
كنت العروبة روحها ولسانها   يا منبر الشرف الهتوف الحادي
ما من بيان هز أفئدة الورى   كدوي صوتك يا خطيب النادي
هذا اليراع يمر حولك مولها   ويسود الأوراق بالتعداد
يا ابن الصحافة في جليل مقامها   حررت فيها الحق من أصفاد
وخطبت في الحشد الكبير تثير من   همم الرجال لرد خصم بلادي
هذي المواقف طالما كررتها   في القدس في عمان، في بغداد
القدس لا تنساك مهما غيرت   صور البنين الغر والأضداد
قد كنت تأمل أن تعود فربما   كان الزمان يجود بالأسعاد
الله أكبرِ كم تغير مظهر   في أرضنا وعدَت عليه عوادي

***

تبكي العروبة من بنيها عصبة   كانوا سيوفاً عدن للأغماد
كانوا حماة يفتدون حياتها   بنفائس الأعلاق والأجساد
وهي العزيزة قد تضعضع ركنها   بين الدعي وبين خصم عاد

تبكي وتلعن من رموها بالحصى   من عصبة الأعداء والحساد
ترجو بنيها، هم لديها قلة   مع كثرة الأخوال والأولاد

غنوا لها ، والرقص في حلباتها — جار ، وصفق سامع الانشاد
حتى إذا جد الجهاد تفرقت — سبل الذي قد قام بالأعياد

***

ناديت بالآلام ديناً خالداً — رحماك بالإسلام رب هادي
يا أصدق الخلان إن جاع الوفا — غذيته بالقلب والأكباد
تبكي على ما غيبته يد الثرى — وتخلد الذكرى بدمع مداد
وتقول في الأدباء أرباب النهى — ما قالت الشعراء بالأجواد
وحظيت من أحيائهم بمحبة — طافت بها النجوى بكل بلاد
الأصدقاء يحبرون رسائلاً — مترقبين الرد كالمعتاد
هذي الرسائل منهم وإليهم — حب الجمان من البيان الشادي
بالأصدقاء غناك يا رب الغنى — وبهم ومنهم منهل الوراد
لم تدخر مالاً بل اخترت الغنى — بالنفس ، تبني شامخ الأطواد
والفقر من حظ الأديب إذا انبرى — للحق ، والإصلاح ، والإرشاد
فافخر بمالك من عديد مآثر — هبة الإله لخلّص العباد

***

شيدت قبرك في حديقة منزل — مهوى القلوب وطلبة القصاد
بيت الصديق ، ومهبط الإيحاء إن — جاش القريض بذهنك الوقاد
وحديقة البيت القديم مجالس — للأنس في سمر المساء وناد
ولطالما روّت يداك نباتها — فاخضرّ سنبلها على الأعواد
ضحكت أزاهير زهت ألوانها — وترنمت فوق الغصون شوادي
والأهل والأصحاب حولك أنسّ — تحت الصنوبر فوق رأس الوادي
زيتونة الدار الوحيدة قد روت — ما قيل من ظرف ومن إنشاد
(والزنزلخت) تعطرت أردانه — بشذا الحنان وفرحة الأحفاد
زهرات عمر حول جدهمو غدوا — سر الحياة يعيش في الأجداد
لم تنس ما عاشوا أحاجي جدهم — متلهفين كلهفة الصياد
والذكريات تعيش في أجوائهم — دهراً طويلاً والسنون تغادي

***

هذا الضريح يقول قولاً صامتاً — والروح ساكنة بكل فؤاد
يا زائري قبري تناجوا برهة — واتلوا الفواتح فهي منكم زادي
وترحموا فالله أكرمني بكم — والله يكرمني بخير معاد

***

كنت أنا بقبراشمون بالقرب من سوق الغرب التي لا تبعد عن بيروت إلا نحو خمسة عشر كيلومتراً ولكن خرط القتاد كان أهون من مجرد التفكير في الوصول إلى بيروت وأن عجاجاً في بيت ابنته الست نورا أم عمر، وأن قبراشمون هي كبيروت تلاقي من حملة الصهاينة وقنابلها، وقذائفها وأسلحتها الجديدة التي بدأت تجرب ما يشيب من هوله الأطفال، وكان بيت الست نورا في محلة هي من بعض أهداف اسرائيل وهي محلة لا يسكنها أحد من المقاتلين ولكن الصهاينة تتعمد أن تستهدف المقاتلين وغير المقاتلين من السكان الأبرياء، وأنا لا أعرف أسماء المحلات وكان الأصدقاء يعرفون مساقط هذه القنابل ويعرفون الخطر المحدق ببيت السيدة نورا فيخفون عليّ ما يعرفون إذ كنت في أشد القلق على عجاج لمجرد وجوده ببيروت فكيف بي إذا علمت أنه في موضع لا يسلم من خطره حتى اللائذون بالملاجىء وإذا فرضنا سلامتهم من هذه القنابل التي تقلب ملك العمارات الشاهقة رأساً على عقب فكيف يطيقون الصوم عن الطعام والماء أياماً وأسابيع.

وتوفي عجاج في مثل هذه الحالة التي يعجز الواصف عن وصف ويلاتها وأرغمني الطبيب على أن أعالج هذه الصدمة التي جرحت القلب بدخول مستشفى (الإيمان) بعالية لاستحالة نزولي إلى المستشفى الأميركي ببيروت، أما كيف توفي عجاج، وكيف قضى أواخر أيامه وكيف كان أول لقاء ربه فقد وصفته لي السيدة نورا في رسالة أغرقتها أنا بالدموع وذلك بعد خروجي من غرفة الإنعاش وإقامتي في المستشفى أياماً وبعد أن هدأت الحال نسبياً؛ وهو وصف لا يستغنى عنه لمن يتابع سيرة هذا الرجل الكبير الفذ يجمع الخصائص الإنسانية، وتقول السيدة أم عمر:

«عمي الجليل الغالي جعفر الخليلي حفظك الله ووهبك العافية وطول العمر، لقد عز علي حتى العمق أن تقضي كل هذه المدة العصيبة بلبنان فلا أتمكن من التشرف برؤيتك، والاطمئنان عليك شخصياً، ولو لربع ساعة خاطفة، فقد تسارعت الأحداث وتلاحقت المصائب بشكل عجيب، رهيب، وإليك سيدي أبا فريدة التفاصيل:

في السابع عشر من آذار الماضي (١٩٨٢) نزل الوالدان إلى بيتهما في بيروت (بيت السيدة نورا) وعاد فوراً الطبيب سيدي الوالد وفحصه فحصاً دقيقاً، ووصف له دواء جديداً أضافه إلى أدويته السابقة، وكان يبدو عليه المزيد من الضعف والهزال، وبسبب نزول الماء الأزرق على عينيه اليمنى بعد اليسرى، كان يستصعب القراءة إلا في أوقات وجيزة معينة، أما الكتابة فقد كانت صعبة للغاية لعدم استطاعته ضبط أصابعه وتمسكها بالقلم.

وبعد نزولهما ببضعة أيام، عدت أنا للتحرير في مجلة (الحسناء)، وكانت خديجة المخلصة وهي الابنة التي لم ألدها وإنما لوجودها معنا خمسة عشر عاماً قد جعلها عندي

أغلى من ابنة الرحم، كانت تقوم بكل أعمال البيت، وبعد الظهر وفي نهايات الأسبوع كان يتسنى لي الاعتناء بالوالدين بنفسي لأعوض عن فترات غيابي النهارية في العمل.

ولقد علمنا بمجيئك إلى لبنان، وقد فرح الوالد أيما فرح، وكنت قد أرسلت وقتئذ تقول بأنك ستنتظر صعود الوالدين إلى (رأس المتن) لتزورهما هناك، وكانت الوالدة تنوي الصعود خلال حزيران لتطل على البيت ولكن غياب (أم يوسف) مساعدتها (ببرجاس) في حوران جعلها تؤجل الصعود بعض الوقت، وكنت أنا أشجعها على التأجيل لخوفي عليها من الارهاق في الجبل بمفردها.

وفي اليوم الرابع من حزيران بدأت فصول المأساة، ويوم قصفوا بيروت بالطيران بعد ظهر ذلك اليوم، كنت في مكتب المجلة القريب جداً من أماكن القصف من (بئر حسن) وبمعونة الله عز وجل استطعت الوصول إلى البيت بالسلامة وأنا تحت الغارات المتواصلة، ومنذ هذا اليوم لم أعد للعمل، فقد بدأ الاجتياح الرهيب والغارات العنيفة، وكان الوالد الغالي رحمه الله يسألني كل يوم عن الأخبار فأقدم له تقارير متتابعة عن مسيرة الأحداث، ولما سمعنا بأخبار (عينعنوب) و(قبراشمون) وجوارهما استبد به القلق عليكم، ولكن من أين لنا أن نعلم شيئاً عنكم لنطمئن؟ وكان في بعض الأحيان يمضي ساعة وأكثر وهو يحدق إلى السقف غارقاً في التفكير، شابكاً أصابعه الهزيلة فوق صدره، فأجلس حينذاك قربه أرفه عنه، وأسري، وأحاول استدراجه إلى فتح ما يختزن صدره من الذكريات، وما يجول في ذهنه من المشاعر والأحاسيس فيتمتم طالباً رحمة الله بنا جميعاً، ثم يبدأ بالحديث عن الماضي وعن أمور لا علاقة لها بالحرب والدمار...

وفي ١٨ حزيران نسفت بناية بكاملها تقع في جوارنا تماماً، ولاعتقادنا بأن ذلك قد حدث من جراء قصف جوي هرعنا جميعاً الى الملجأ حاملين الوالد كطفل صغير يبدو عليه الرعب والعجز.

وبعد عودتنا من الملجأ شكا من زوال ما كان قد تبقى من سمعه وذلك بسبب أصوات الانفجارات، ولكن سمعه هذا قد عاد بعضه إليه في اليوم التالي، وعاد يمعن أكثر من السابق في الكآبة وشرود الذهن، والتفكير، فقد أصبحت بيروت مطوقة، والصعود إلى رأس المتن صار ضرباً من ضروب المغامرة المجنونة والأمور المستحيلة.

وبعد ظهر اليوم الثاني والعشرين من حزيران، كانت شقيقتي (بيان) وزوجها، وأولادها عندنا بعد ما هربوا من القصف المتوالي على منطقتهم، ولقد جلست أحادثه بعض الوقت، وفي نحو الخامسة بعد الظهر نادتني بعد ذلك الوالدة هلعة مضطربة وقالت: تعالي انظري ماذا أصاب (البابا)؟ فقد كانت عيناه شاخصتين إلى مكان محدود، وكان لا

يستطيع النطق ولا يستطيع الحركة، وانتابني الرعب لمرآه ولم أجد من وسيلة غير استدعاء الطبيب وكان هذا الطبيب يسكن بجوارنا، فجاء على التو، وبعد أن أتم فحصه قال أن الراجح عندي أنه يعاني ثلاث انسدادات شريانية في الرأس، والذراع والساق من اليسار، وكان قبل يومين قد أصيب بالتهاب معوي بسيط مع شيء من ارتفاع الحرارة ولكن العلاج كان قد خفض الحرارة وبدا أحسن حالا إلى أن دوهم بالإصابة بانسداد الشرايين، وقد بقيت في تلك الليلة أنا والوالدة وأختي بيان ساهرات بالقرب منه، وكان ينظر إلينا بعض الأحيان بقصد ومعرفة، ولكنها كانت نظرة خرساء من الشكوى باللسان أو بالحركة، فكنت أخفي دموعي، وأقبل على يديه وذراعيه ووجهه وأقبلها فكان يحاول أن يبتسم وكأنه يريد أن يقول أحبكم، وليتني أستطيع الكلام والبوح بما يجول في خاطري.

وفي صباح اليوم التالي نقلناه إلى مستشفى الجامعة حيث أعطي (مصلاً) وبعض المضادات الحيوية بعد أن اتضحت إصابته بالتهاب رئوي حاد، وهنا اتفقنا أن أنام أنا معه في تلك الليلة تخفيفاً عن الوالدة.

وفي الخامسة بعد الظهر حصلت حادثة التفجير الرهيبة قرب فندق (الهوليداي إن) والقريب نسبياً من مستشفى الجامعة، فهزته رعود الانفجارات وأبواق سيارات الاسعاف المتواصلة وهي تأتي بالجرحى والمصابين أفواجاً إلى المستشفى فكان يزداد هلعاً، وقلقاً، على الرغم من أني كنت أحتضنه، وأسكن عليه، ولا أفلت من يديه، أو أتوقف عن الحديث معه وتطمينه، وقد أمضى ليلة مزعجة بسبب تجمع البلغم في صدره بالشفاطة الكهربائية، وفي الصباح جاءت (بيان) لتحل محلي، وعدت أنا إلى البيت لأنام قليلاً، وفي الحادية عشرة والنصف قبل الظهر هبت على قصف قوي صاخب من البوارج الإسرائيلية التي راحت تمطرنا بالقذائف ابتداءاً من السفارة الأميركية وانتهاء بالحمام العسكري، فقضينا ساعتين ونصف ساعة ونحن في رواق البناية، وقد أصيبت الوالدة خلالها بنوبة قلبية ما لبثت أن هدأت حالها بعد أخذ الحبوب الخاصة بها، ولما توقف القصف بعض الشيء طلبت من ابني (فراس) أن يأخذ الوالدة إلى المستشفى لتكون في مأمن إلى جنب الوالد.

وفي الليلة الأخيرة كانت الوالدة وكانت (بيان) في المستشفى، أما نحن فكنا في الملجأ لأن القصف كان قد استؤنف بشدة وبدون توقف، ولم تكد تحين الساعة السادسة من صباح ١٩٨٢/٦/٢٥ حتى جاءتني مخابرة تليفونية للملجأ تحمل خبر الوفاة التي حدثت في الثامنة والنصف صباحاً، ولم يكن بالإمكان مبارحة الملجأ لأن القذائف استمرت تتساقط طوال ذلك اليوم وحتى منتصف الليل الذي أعلن فيه وقف إطلاق النار وفي صباح ١٩٨٢/٦/٢٦ عادت الوالدة وشقيقتي (بيان) من المستشفى، وأخبرتاني بأن المستشفى قد قام بالترتيبات اللازمة وأودع جثمانه الطاهر في (البراد) إلى حين يكون بالإمكان نقله إلى

بلدة (رأس المتن) لأن (رأس المتن) يومذاك كانت تتعرض لقصف شديد من الجبال وانتظرنا إلى أن يهدأ الوضع قليلاً ليتم نقل الجثمان ولم يهدأ الوضع قليلاً إلا يوم ١٩٨٢/٦/٣٠ فنقل جثمانه بسيارة خاصة بدفن الأموات وكان برفقة الجثمان الوالدة وابن عم الوالد الرجل الشهم عادل نويهض (أبو وليد)، ولدى وصول الجثمان أقيم له مأتم قصير لم يدم أكثر من ساعة ونصف ساعة شاركت فيها العائلة جميعها، ودفن بعد الصلاة عليه في الضريح الذي أعده وأشرف عليه وهو مسجى في الفراش».

بعد أيام بلغني خبر الوفاة، وكان صديقي العلامة الدكتور بدوي طبانة يقصر وصف (المصيبة) على الموت وحده فيقول (الموت مصيبة) بل هو المصيبة، وهنا شعرت بأن هذه المصيبة وبكل ما تعنيه من الحزن والهم، والغم، والكآبة، والألم قد حلت بي بفقد هذا الصديق العالم الجليل، والإنسان الفذ الذي كان يصور الإنسان الكامل بأقصى ما كان يستطيع فانسللت من بين من كنت أجالسهم ساعة الخبر والتجأت إلى غرفتي وأنا (بقبراشمون) وانكفأت على وجهي، وقد ذاب كل كبدي وتحول إلى دموع، دموع فيها الشيء الكثير من ذكريات الماضي التي صارت تمر على عيني كأني كنت أراها متمثلة في حكاية عجاج وهو في القدس، وهو بعمان، وهو برأس المتن تحف به ثلة من أهل العلم والأدب مسحورة بعلمه، وأدبه، وكرمه، وكم صرت أردد أين صار كل هذا؟ ولماذا صار الموت مصيبة؟ واقتصر معنى المصيبة على الموت.

وفي الليل كنت كالمجنون لا أدري كيف يمكن أن أخفف من ثقل هذه المصيبة، وأعقبتها الليلة الثانية و أنا على مثل هذه الحال وشعرت كأن الحالة من الذبحة الصدرية التي شكوت منها من قبل قد عادت ولكن بأشد مما داهمتني من قبل، وألح الطبيب علي وجوب دخول المستشفى حالاً وبدون تأخير، ولكن النزول إلى المستشفى الأميركي ببيروت يكاد يكون مستحيلاً، ونقلني الطبيب الصديق بنفسه الى مستشفى (الايمان) بعاليه، وكان من الصعب إيجاد محل لي في المستشفى لكثرة المصابين والمجروحين الذين شغلوا حتى الممرات وافترشوا الأرض رأساً عند رأس ورجلاً عند رجل ولقد قيل: أن المرء كثير بأخوانه، وكان كما قيل فأدخلت في غرفة الانعاش، وربطت بالجهاز الالكتروني لضبط حركات القلب، وجرت التغذية عن طريق الوريد ، ووضعت كمامة الأوكسجين في الأنف، وكان ضغط الدم في صعود يومياً، وبقيت عدة أيام وأنا في مثل هذه الحالة والطبيب يوصيني بطرد الأفكار المزعجة من نفسي كأنني قادر على أن أفعل شيئاً من هذا القبيل ولم أفعل، وعادني الطبيب الكبير الدكتور سامي قائد بيه وهو من أكابر أطباء القلب بلبنان وبالجامعة الأميركية وقد خرج خصيصاً من بيروت وبطريقة خاصة للوقوف على حالتي الصحية، وقد سره ما وجد من العناية الفائقة بي في هذا المستشفى، وبعون

الأخوان أيضاً نقلت بعد أيام من غرفة الانعاش إلى غرفة أخرى مزودة بكل لوازم الراحة الصحية.

وخرجت بعد أيام من المستشفى لكي ألازم السرير في البيت نحو شهر ونصف شهر أو شهرين كان الطبيب يزورني في كل أسبوع مرتين، وقد علمت أن السيدة أم خلدون قد سافرت إلى عمان لتسري نفسها وتنشد الراحة النسبية عند ابنتها السيدة سوسن، فتركت أمر تعزيتها إلى حين رجوعي إلى عمان، وأول ما فعلت عند وصولي هو القيام بزيارتها وأنا أهم بارتداء ملابسي رأيتني أبكي وأجمع بعض الكلم أودع فيها شعوري بهذه المصيبة التي يقصرها الدكتور بدوي طبانة على الموت دون غيري، وقد تألفت من ذلك أبياتاً مرتجلة تضاعفت حين تعطلت السيارة في الطريق بسبب الازدحام ومن المؤسف أن تأخر تسجيلها على الورق فنسيت منها عدداً من الأبيات ولم يبق في ذهني إلا بضعة أبيات أنشدتها أمام السيدة أم خلدون ودموعي تتساقط على خدي إذ قلت:

أعجاج جئت إلى حماك ولم أجدك فيا ترى أني أراك؟
وأرى بوجهك بهجة الدنيا وما الدنيا وبهجتها سواك
يا ضيعة الخلق الكريم، وضيعة الأب الرفيع رَحَلْتَ فارتحلا وراك
لو تفتدى كانت جميع فضائل الدنيا من الدنيا فداك
كنت الملاك بكل ما خص الإله من الخصائص بالملاك
يا غائباً عزت وحتى في المنام لمشتاق رؤاك
ومسافراً لا يرتجي طول الزمان به رجاء في بقاك
كيف السبيل إلى السلو وما نسيتك كيف أن أنسى أساك
نضبت دموعي في رثاك وبعد لم أبلغ قليلاً من رثاك
يا دوحة شهدت تفيؤنا فغارت منه أفياء الأراك
ستظل طول الدهر تحكي ذكرياتك مثلما تحكي قراك

لقد حلت بي المصيبة منذ مات عجاج، وسأظل أبكيه ما دام لي عينان تستمدان دموعها من الكبد الذائبة، والقلب المحترق، وإذا ما حملني الشوق إلى زيارة قبره ذات يوم فسأهيل تراب قبره على رأسي وسأكرر قولي:

(أعجاج جئت إلى حماك ولم أجدك فيا ترى أني أراك؟)

وأعود من حيث أتيت أجابني من داخل القبر أم لم يجب؟•

مكتبة الجوادين العامة
مؤسسة السيد هبة الدين الحسيني
الشهرستاني
تأسست سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م
مدينة الكاظمية - العراق

المحتويات

كلمة لا بد منها
بقلم جعفر الخليلي ٥
مقدمة من قلم روكس بن زائد العزيزي ٧
هكذا عرفتهم من الشعر ٢١
كيف عرفت ميخائيل نعيمة ٢٣
كيف عرفت وديع رشيد الخوري ٥٥
كيف عرفت محمد جمال الهاشمي ٧٣
كيف عرفت جورج صيدح ٩٥
كيف عرفت الدكتور أمين زهر ١٥٩
كيف عرفت عجاج نويهض ١٨٣